منشورات ضفاف
DIFAFPUBLISHING

سعد العبيدي

حفل رئاسي

وقائع غير مروية من أحداث مجزرة قاعة الخلد عام 1979

رواية

حفل رئاسي

سعد العبيدي

• كاتب من العراق.

انها مؤامرة. هكذا قالوا. فقلت مثلهم هي فعلاً مؤامرة. لم أفق من قولي فوجدت نفسي محشوراً مع المتهمين، مسجوناً مع المذنبين، متمنياً الموت، وأكثر مرة تمنيت فيها الموت، عندما صعد لؤي درجات السلم ليحرق حياً. صعد متباطئاً، وكأن عضلات ساقيه قد شلت من جذورها. دفعه حارس الى الأعلى، في محاولة التعجيل بصعوده. تخيل عزرائيل متربصاً أعلى السلم، ينتظر صعوده، فأبطأ لا إرادياً. تعجب وهو في طريق الصعود، من التقاء الرغبات في عقل الحارس، ونوايا عزرائيل في مسألة الاستعجال. تساءل: هل يعقل أن عزرائيل لا يعرف الحارس، واحداً من أوحش أهل الأرض وأكثرهم ظلماً؟. كيف يلبي رغبته في قبض الروح، بهذه الطريقة البشعة؟. تأوه من الموت وهذا الصعود، وعالم يتحكم به الغل المجنون. صرخ من اعماقه، طالباً الرحمة، ومن عزرائيل الاستعجال في قبض الروح، فأزاد الحارس ناره حطباً، لترتفع الى أعلى.. وعندما أسلم الروح، أطلقت زفرة كانت تكتمها الأنفاس العطشى، وتمتم خلالها القلب مرتعشاً، كأنه ينبض في كومة أحزان. قلت مع نفسي: هل تشفى الأحزان؟، وهل ينتهي التيه، وآهات هذا الزمان، وأعود مثلما كنت أقرب للإنسان. لا، لا أريد العود الى حضائر فيها نفس الانسان. أريد الهروب من نفسي، من وطني. سأبقى غارقاً في دموعي. الدمع لي وطن، سيطفئ النار التي توقدها دوماً هذه الأحزان.

شاهد باق على قيد الحياة

ISBN: 978-614-02-1332-6

9 786140 213326

منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING
editions.difaf@gmail.com

دار ومكتبة عدنان للطباعة والنشر والتوزيع

جميع كتبنا متوفرة في موقع نيل وفرات.كوم www.neelwafurat.com - www.nwf.com

حفل رئاسي

وقائع غير مروية من أحداث مجزرة قاعة الخلد عام 1979

طبع في لبنان

حفل رئاسي

وقائع غير مروية من أحداث مجزرة قاعة الخلد عام 1979

رواية

سعد العبيدي

منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING

الطبعة الأولى

1436 هـ – 2015 م

ردمك 978-614-02-1332-6

جميع الحقوق محفوظة

دار ومكتبة عدنان
طبع – نشر – توزيع
بغداد – شارع المتنبي
بناية المكتبة البغدادية
079017853386 - 07707900655
07901312029 - 07813515055

منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING
هاتف بيروت: 9613223227+
editions.difaf@gmail.com

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر

الى كل من سُجِنَ ظلماً من أهل العراق.

الى كل من تعذب في سجنه من أبناء العراق.

لكي يتذكروا وقع الألم ولا يظلموا غيرهم، إذا ما تمكنوا يوماً،
هم أو أبنائهم أو أحفادهم من بعدهم، بعد أن أصبح القهر،
والظلم والانتقام شائعاً في هذا العراق.

اذهب الى بيتك. لا تتحدث بما حدث... هل فهمت؟.

أجاب بالموافقة صمتاً، وكأنه فهم المغزى المطلوب.

هو لن يتحدث الى أي انسان، حتى لزوجته الأقرب الى القلب.

ولن يتحدث الى بناته أو أصدقائه، ولا الى رفاقه المقربون.

سوف أغلق صندوق الأسرار، لن أفتحه أبداً، هكذا قال لنفسه، بعد تلقيه التحذير الواضح من جاسب، وهو في الطريق الى البيت عائدا من رحلة أبو غريب، السجن المركزي للدولة العراقية.

لقد غلقه بالفعل الا في الأحلام، التي تتسرب من خلالها آلام التعذيب، وحشرجة الموتى، وصرخات منتصف الليل، على شكل كوابيس، رافقته منذ اليوم الأول لخروجه، وباقي الزملاء، وكأنه بتكرارها قد فقد مفاتيح التحكم، بذلك الصندوق المقفل فقط في المنام.

المنام أصبح مقلقاً، يخافه سبيلاً لخروج كلمة أو عبارة، يفسرها الجلادون افشاءاً للأسرار، وعدم تنفيذ الأوامر الصادرة بتقييد اللسان.

أنا أعرف طارق جيداً، هو من أبناء قريتي الجمجمة التي أحبها، عرفته منذ زمن طويل، وعرفت الكثير من أسراره، و لم أعرف ما مر به من تجربة مرعبة أثناء سجنه، أدت به الى هذا الانقلاب على الذات... انقلاب كبير، وهو الانسان المبدئي الذي أعرفه غير ميال الى الانقلاب.

كما عرفت سرمد عن قرب، كان مديراً لي في العمل، وكانت علاقتي به متميزة، وعرفت الكثير من أوصافه، التي تقدمه خطوات

عن أبناء جيله العسكريين والحزبيين، و لم أعرف كذلك تفاصيل تجربته في السجن، لأنه هو أيضا قد أغلق صندوق أسراره، بمفاتيح الخوف ذاتها، مثله مثل طارق وحليم وعزام وشكري، والآخرين الناجين من المجزرة، حتى أني وعندما ألتقيته في شارع الشيخ عمر أول مرة، بعد خمس سنوات من مغادرته الجب، حاولت التقرب من ذاكرته، بدافع التعرف الشخصي عن أصل الموضوع، فشعرت بأن قلق العالم كان موجوداً، في صوته الرافض للبوح.

مازلت أتذكر نبرة ذلك الصوت المنفعلة، عندما قال لا أتذكر، وذلك السكون الذي أعقبه، واحساسي انه سكون ليس حقيقياً، جاء من عقل يضج بحزمٍ من صخب الأفكار.

جلست مع طارق أول مرة بعيداً خارج البلاد، أردت تفاصيل تلك الأيام، كان يتهرب من ذكر التفاصيل.

هل كان خائفاً من العودة الى ذكريات سجن أبو غريب؟.

أو أن الذكريات المؤلمة، قد أخذت لها مكاناً بعيداً في قعر ذاكرته الموصدة، لا يريد عقله الباطن خروج لها، يترك جروحاً في ذاته الواهنة؟.

أو أن طعم العلقم في ذكرياته، بعد أكثر من خمس وثلاثين عاماً على تجربة وصفت بالمرة، وأكثر من عشرين سنة، على مغادرة البلاد غير متأسفاً على رمي سبع حصوات وراء ظهره، حين وقف متجاوزاً خط الحدود العراقية السعودية، أيام الانتفاضة الشعبانية التي فتحت له أبواب الهروب واسعة، ومهدت له أو لعقله المرهق كسر جميع الأقفال.

لا أدري، قد يكون الخوف أو خليط المشاعر المفعمة بالأسى، دافعا لكل ذاك الكتمان، كانوا يتهربون دوماً عن ذكر التفاصيل

الخاصة بهم، وباقي رفاق شاركوهم زنازينهم، وحفلات التعذيب، وسكرات الموت.

أمر يثير الحيرة والاستغراب.

إنهم لم يكونوا طارئين على بنية الحزب الذي قدمهم، قرابين لاعتلاء قائدهم سدة الرئاسة، وهم الكبار والمنظرين والقادة المنفذين، الذين ساروا معه الطريق، والتجربة التي يصفونها أو يحلوا لهم وصفها، بتجربة نضال.

ولم يكونوا قلة، فالعدد الإجمالي خمس وخمسون، أُعدِمَ منهم اثنان وعشرون بتفويض من المحكمة الحزبية، وثلاث وثلاثون، توزعت عليهم أحكاماً بالسجن، بين الخمسة عشر عاما، وبين السنة الواحدة، قُتل منهم خلال فترة الثلاث سنوات ونصف، أربعة عشر ضحية بطرق مختلفة، وما تبقى منهم خرجوا نصف مقتولين، بعد أن ذاقوا مر العذاب على أيدي الرفاق الجلادين.

إنزل هذا بيتك... هل كانت تلك الكلمة هي البداية الفعلية لطريق الحرية؟.

أم انها كانت بداية قيود جديدة، سوف يفرضها النظام على مناضليه القدامى؟.

أم ان رحلة الحياة الجديدة، ستبدأ مع خطوته التالية، عند دخول البيت، بعد ساعات من مغادرته رهبة سجن شاع اسمه أبو غريب؟.

أعرف انه لم يتحدث بالتفاصيل الى زوجته، أقرب الناس اليه.

بقيَّ متكتماً على أسرار تلك الفترة، التي قضاها في السجن بعيداً عنها، وأربع بنات في ريعان الشباب.

هل هي مرحلة الذل بعد الرخاء الذي عاشه، في حضن السلطة التي سجنته بتهمة التآمر؟.

أم انها مرحلة جديدة من عفو عن خطأ ارتكبه النظام بحقه، وباقي الرفاق؟.

ومع هذا وذاك وعلى الرغم من التكتم عن اسرار تلك الأيام، الا أن حصولي على بعض التفاصيل من آخرين، كان المفتاح السحري لاستفزاز طارق وسرمد وحليم وعزام، وآخرين ممن تبقى على قيد الحياة، للحديث عن التفاصيل المؤلمة لتلك الأيام، باشارة بدأت متشابهة، على شكل غصة، أو لعثمة وصفها طارق ببعض كلمات قائلاً:

حاولتُ مرارا أن أتكلم، لكني ما استطعت. لم يكن ثمة إمكانية لاخراج المكبوت.

كنت وكل مرة أهم فيها لاخراج القليل منه، أجد نفسي وكأني أهذي من كثر القيود.

منذ أن خرجت لم اذق طعم النوم العادي، توقضني الكوابيس أكثر من مرة، وعيناي كأنهما انقلبتا، وأصطبغا بلون الدم.

الإحساس بالآدمية الذي يبقيني انسانا في هذا الوجود، لم يعد موجوداً.

أجزائي أحسبها مقطعة في داخلي، مثل أولئك الذين قتلوا تعذيباً.

عقلي الذي طحنته الأفكار التي تتصارع في طريق الخروج المسدود، احسه كومة أفكار أنتظر خروجها لأعيش بلا أفكار.

بعدها بدأ تداعي الأفكار سيل لا ينقطع، روى فيه أدق التفاصيل، وكذلك فعل الآخرون، كانهم يكتبون بأنفسهم قصة عذاباتهم، ومعاناة من نوع خاص.

***

إنها مؤامرة

يجلس متوتراً على حافة كرسيِّه الدوار، وكأنه قد تاه عن جمع يرافقه، في طريق مظلم. مكتبه الفخم، ومنصبه سفيراً للعراق في الدولة الألمانية الشرقية، لم يعيدانه من التيه الى الهدوء، الذي تعوده مع بدايات الدوام الرسمي، في الأيام السابقة.

نهض من مكانه، سار خطوات عدة، عاد بعدها الى المكان، لتأخذه الذاكرة القلقة بعيداً الى أيام الشباب، تدور فيها الصفحات من موقف الى آخر دوران دولاب تسيره ريح. يتعبه الدوران، يشعره بقليل من النحول، يعتقده النسيان الفائت لاحتساء قهوته الصباحية، فيطلبها من سكرتيرته الجميلة على الفور.

أدار وجهه الممتلئ صوب برلين، المدينة التي شكلها الماء المتدفق من ذوبان الصفائح الجليدية، نهاية العصرالحجري.

تأملها جيداً من شباك مكتبه المطل، على جهتها الشمالية.

أحس جمال خضرتها الدائمة، ذاك البستان الذي عاش فيه الطفولة، على ضفاف شط الحلة، قريباً من جنائن بابل المعلقة، وتمثل له طقسها الصيفي، ربيع بغداد المنعش على ضفاف أبو نؤاس، ولاحت له امتداداتها الى الماضي، شعاع ينعكس على ذاكرته القلقة، وهي تستجلب الصور المتنوعة عن ماضي بلاده والحاضر.

صور عقلية، بات يقارنها مع الأبنية القديمة التي تلوح في الأفق،

وقد أعاد أهلها ترميم أجزاء، هدمتها الحرب العالمية الثانية، إلا بعض من شواهدها، أبقت عليها عمداً، لإثبات فعل الحرب الدنيء، وانعاش الذاكرة القريبة لعقول الأجيال، الساعية الى مقت التناحر والعداء.

تمعن فيها جيداً.

تذكرَ شرحاً قدمتهُ السكرتيرة قبل شهرين، عن كيفية تطورها مدينة بدأت قرية بسيطة، لتكون بفعل أهلها النشطين، المدينة الأكبر في ألمانيا، والثانية في عموم أوربا، ولتكون بفعل التقاء نهرين في ربوعها، وتعدد البحيرات على أرضها، المدينة الأجمل بلا منازع.

حاول مقارنة التقاء نهريها بالتقاء، دجلة والفرات في قضاء القرنة، فلم يجد وجهاً للمقارنة، تمنى أن يلتفت اليها الأهل في العراق ويجعلوها جميلة مثل برلين.

لِمَ عادت به الذاكرة الى سنوات الماضي البعيد؟.

ما الذي دفعه لأن يمارس رياضة التفكير في هذا الوقت بالذات؟.

الوقت الذي انفتحت عنده المسافات بين الدراسة الثانوية في مدينة الحلة، وبين هروبه في اثنائها الى سوريا، ونجاحاته دبلوماسياً في أعرق عواصم أوربا، باريس وبرلين.

هل أثرت فيه الأخبار التي تناقلتها الوكالات العالمية، عن انقلاب حدث في بغداد؟.

الأخبار أخذت تتكرر مراراً في النشرات، على طوال اليوم بالدقائق والساعات.

أم أن التأثير جاء ناتجاً عرضياً للتخيلات، التي أخذت تُشّـرِقُ وتغَرِبُ، ساعيةً الى استفهام ما حصل في البلاد.

أحداث متسارعة تنمُّ عن تنفيذ انقلاب، لا يريد عقله الباطن تأكيد الاعتراف بحدوثه على مستوى الوعي المُربَك؟.

مد يده الى علبة سجائره، دخن سيجارة أخرى من التي يفضلها مستوردة من السوق الدبلوماسية الحرة.

لم يستطع إيقاف سيل التفكير في هذه المحنة الجديدة، وكأن في قلبه وهج من الحزن، لا يعرف لماذا، وعند إطفائها تنبه الى انه في حال توتر، يتحرك في كرسيه الدوار، مثل نزيل في مستشفى عقلي فقد السيطرة على ذاته، وتنبه الى ان نشرات الأخبار لم تتوقف عن ذكر الأحداث، ذات الصلة بالانقلاب الحاصل في بغداد.

***

عاود النظر بالتفاتة سريعة الى جمال برلين، وعاود المقارنة مع بغداد التي أحبها، وما يجري فيها من أحداث، فأدرك أن صداقته مع النائب الذي أصبح رئيساً بالأمس، سوف تفتح من أمامه كثيراً من الأبواب. عندها بات كل تفكيره منصباً، على محاولة الاتصال بصديقه، اللواء الركن نسيم معاون رئيس جهاز المخابرات بأية طريقة، قد يجد منه تفسيراً لما حصل ويحصل في بغداد.

حاول الاستدارة بالكرسي الى جهة الشمال، قاصداً تناول الكتاب المشهور، وعّاظ السلاطين للعلامة علي الوردي، أعتاد قراءة أوراق من فصوله الغنية بالعبر، عندما يشعر بالحاجة الى، معرفة بعض الجوانب الخفية للتاريخ العربي الإسلامي، والدوافع الاجتماعية

للصراعات المريرة، التي بدأت ما قبل الخلافة الإسلامية بمئات السنين، وانتقلت الى القريشيين القريبين من الرسول قبل الدفن، ومن بعدهم الى جميع الأقوام التي حكمت العراق، حتى أحداث الأمس التي لا يريد تسميتها انقلاباً، بأي حال من الأحوال، وعلى الصراع الأزلي من أجل السلطة والنفوذ، الذي أنتج فعل الانقلابات في عراق يمتد آلاف السنين، وعلى الدوافع الاجتماعية للتناحر بين السنة والشيعة، وأحقية الخلافة الإسلامية لما قبل ألف وأربعمائة عام.

يده المرتعشة لم تساعده على التمسك في الكتاب.

سقط من بين أصابعه الكتاب.

تبعثرت أوراق سجل عليها بعض الملاحظات، عن مقتل الخليفة عثمان وقميصه المشهور، والصراع الدامي بين الخليفة علي بحكمته المعروفة، وبين معاوية بن أبي سفيان بدهائه المعهود، ودوافع السلطة المستبدة، ومسألة توريثها من ذلك الزمان الى هذا الزمان.

تألم لتبعثر وريقات كتاب لكاتب عملاق، مُنعت مؤلفاته بأمر من النائب الذي أصبح رئيساً بالأمس، في الوقت الذي اتسع نشرها بغزارة، خارج العراق قبل الأمس بعشرات السنين، فألمَّ به وجع، مثل غز السكاكين في عضلات القلب، زاده شدةً ذلك الغضب المستثار، من داخله عما يحصل في بغداد، وان استمر في الإصرار على عدم تسميته انقلاباً حتى الآن.

لم يستوعب مآله، أعضاء في القيادة القطرية، يتآمرون على الحزب لصالح السوريين، عندها تملكته حيرة منفرة، لم يجد في مكبوتات عقله المتطايرة، باباً للخروج منها، كأن أبواب الخروج سدت من أمامه بمزاليج حديد.

كيف يصدق أن عدنان الحمداني متآمر.

محمد عايش متآمر.

غانم عبد الجليل متآمر.

ومحمد محجوب كذلك متآمر.

هم قادة الحزب، ومسؤولين جل الذين يجلسون الآن على مقاعد الصف الأول في مسرح الدولة الكبير، بينهم شخص النائب الذي أصبح رئيسا بالأمس.

***

عشعش الصمت في داخله عميقاً، حاول فتح منافذ في دفاعات عقله المغلقة بإحكام، نجح في اخراج بعض ما فيها من أفكار، بقدر لم يعينه على إيقاف سريان الانزعاج، الذي تحول بسرعة البرق الى مشاعر ضيق.

لم يدرك وقتها، أنها تُعَبرُ عن رفض في داخله، لأمور لا يريد التصريح بوجودها على مستوى الوعي، كأنه تناشز معرفي أو ارتباك في التفكير، لم يقلل من حدته الاتصال الهاتفي مع صديقه، معاون رئيس جهاز المخابرات، جاءت بين سطوره المتناثرة بعض التفاصيل عن المؤامرة التي حصلت بالأمس، وقائمة أسماء لمشاركين جدد لم تعلن رسمياً منذ الأمس.

استوقفته قليلاً مسألة التتابع بقوائم المشاركين، تجاوزها ظناً منه أن أمرها يعود الى صيغ التحقيق، وقابلية الانسان على تحمل عذاباته، وأذهلته كثيراً آخر قائمة أسماء حد الشعور بالإحباط الشديد، واضطراب الحال الذي أحس به، وكأن عيناه دخلتا في جوفهما، وإن

جسمه القوي الممتلئ قد أنكمش قليلاً، فعاوده الصراع بين تصديق ما يسمعه، وبين ما يحسه، بالتأسيس على معرفة جيدة بغالبية الأسماء، التي ترد في قوائم التي تصدر تباعاً، مما حول مشاعر الإحباط في داخله، الى وخز في الضمير المغلف بآلام الصراع.

كيف حصل هذا وعدنان بمثابة الصديق المدلل للرئيس الجديد؟.

عدنان الذي قال عنه في اجتماع خاص، إنّه مني بمنزلة الشقيق برزان.

هل يعقل أن عدنان تآمر على الرئيس؟.

إنهما آخر رفيقان كانا يتركان المكتب ليكملا السهرة في بيت أحدهما على انفراد.

صدق أو لا تصدق قالها في نفسه، وأتبعها بقول آخر:

إنَّ كل شيء سيكون معلوماً في القريب. لا سيما وان الحزب لا يخفي الوقائع، والأحداث عن رفاقه، وان كانت بسيطة. فكيف له أن يخفي حدثاً فيه تآمر، على الدولة والحزب في آن معاً؟.

إنه ضرب من المستحيل.

حاولَ الوقوف متكئاً على حافة الطاولة الخشبية لمكتبه، فتكوم بجسده الممتلئ في الكرسي الدوار، الذي اختارته السكرتيرة محشواً بعدة طبقات من الاسفنج المضغوط، فعاد الى وضع الجلوس، من دون سيطرة منه على جسم بات يختض، مثل سعفة نخيل تهزها ريح.

شعر بأقدامه وكأنها يبست، وأحس دوامة الغضب قد تحركت في صدره، محدثة لسعة حرق، ألهبت جوفه بألم لا يطاق، إعتقدها مسألة طارئة، ستنتهي في القريب.

إتجه الى تعديل جلسته، حاول إزاحة العتمة عن صدره المليء بالألم، فمرت على أطراف ذاكرته المشوشة هيأة عدنان، تصوره مسجى على قاع الغرفة الخاصة بالتشريح، بكامل قيافته الانيقة، مخنوقاً بربطة عنق صنعت من الحرير.

عندها داهمه شيء من الخوف، أسهم بأزاحة الصورة المشوشة عن سطح الذاكرة، ودفعه الى الانتقال بيديه القويتين الى رقبته.

تحسسها أولاً.

أرخى ربطة عنقه، معتقداً أنه قد فتح مجراً سالكاً لهواء متعسر، يفيده في الحصول ولو على قليل من الاوكسجين، الذي أحسه قد نفذ من الدم، وأحس نفاذه يداً تطبق على رقبته عمداً، لتميته خنقاً بربطة عنقه، مثل الصورة التي تخيلها لصديقه عدنان.

تحدق به عيون الموت من كل الجهات.

عاود تلمس رقبته، وربطة العنق التي ارتداها في الصباح حمراء، انسجاماً مع لون قميصه الأبيض، والبدلة الرصاصي.

فكها بطريقة مشوهة، مثل شخص أقترب منه الموت، أراد التخلص منها وسيلة خنق بل موت شبه محتوم، ومن فرط الاستعجال أخل بالأناقة التي عُرف بإتقانها في الملبس، اذ لم يعد في عقله المتلاطم بالأفكار مكاناً للأناقة، ولم يعد يعير اهتماماً للتشبيه الذي وضعه البعض في مسألة الأناقة، والهندام مع صديقيه النائب قبل أن يصبح رئيساً، وعدنان الحمداني قبل الاعلان عن اشتراكه في المؤامرة.

فشل في تأمين حاجته من الاوكسجين، وفشل كذلك في الحصول على جلوس يخفف ألماً يتزايد بشكل سريع.

أخذه دوار شديد، واهتاجت أحشائة ثم ثقيأ، حتى أقعده القيء الجاف على الكرسي ثانية، فصار كومة كبيرة.

فكر بعزرائيل الذي تصوره ملكاً يحوم الآن في أجواء العـــراق، مزهواً بقطف أرواح المتآمرين... لابد وأن تُقطف أرواح المتآمرين ان كانوا كذلك متآمرين، هكذا هو القصاص العادل لديمومة الحـــزب والثورة، كما أن بناء الغد الأفضل، يقتضي التخلص من المتـــآمرين، والرئيس قد عرفه جاداً في محاسبة المقصرين والمتآمرين، هـــذه هـــي الفكرة التي مرت على خاطره سريعة، وفي هذا الوقت بالذات.

ترك الفكرة سريعاً.

أنتقل بخياله كمن يفتش عن عزرائيل قادم من العـــراق، تخيلـــه يجول في ربوع المكتب، في كل مكان من زوايا المكتب. ومع هذا لم يجد ما يشير الى حضوره ملكاً متوجاً للموت، بأجنحته العريضة وآلة تخيلها أيادٍ عملاقة، لسلخ الروح عن الجسد، ونفث الرائحة الخاصـــة بالموت.

أقتنع لحظتها من أن آلامه ليست طارئة.

وهي ليست عادية، فقرع الجرس مرتين متتاليتين على سكرتيرته الشابة.

***

تحضر كعادتها مسرعة، مبتسمة، تمسك قلماً وحافظة أوراق، لا يفوتها تسجيل الأوامر والملاحظات، أو بعض الطلبات مثل كل مرة. وقفت أمامه مستغربة أو بالأحرى مضطربة، بعد أن وجدته في حال أقترب فيها من الهياج، وقد ترك كرسيه، محاولاً التخفيف من الضغط

الذي أحسه، ثقلاً مؤلماً على صدره الموجوع، وكأن رباعاً رفع مائتي كيلوغرام نتراً، أخذَ منه قاعدة للرفع عمداً ليخنقه.

حاول التكلم. لم يصدر عنه سوى أزيز خافت، وبدلاً من الاستمرار بالمحاولة، قصرَّ على نفسه المشوار، بإشارة عابرة الى الصدر. فهمتها أمراً للإسراع في طلب الاسعاف الفوري.

تعثرت من طولها الفارع قبل الوصول الى الهاتف، مثل فرس أصيلة تكبو قبل نهاية السباق، لكنها وصلت. ارتجف صوتها عندما طلبت الاسعاف بلغة المانية سليمة، زادتها حياءً، اشتهرت به طوال خدمتها سكرتيرة للسفير.

قبل الالتفات اليه، والاقتراب منه اتجهت مسرعة الى الشباك. فتحته على مصراعيه، فجاءت دفقة هواء منعشة، مثل نسيم البحر أول الصباح. لم تغير شيئا من على وجهه المتغضن.

كلمته بلهجة بغدادية، مازالت تحتفظ بسلامتها منذ مغادرة العراق مع العائلة عام 1963.

وقفت بمواجهته جسداً يحس ألماً في داخله، كأن سكاكين تقطع أوصاله من الداخل. أرادت ان تأخذه بالحضن، لتخفف عنه مقدار الألم، أو تزيل قدراً من مخاوفه، وبدلاً عن هذا الأخذ، حاولت بمعرفة نفسية بسيطة، اكتسبتها من الأب المتخصص في علم النفس السريري، وبفطنتها الانثوية الناضجة تهدئته، أو إلهائه حتى وصول الاسعاف.

اقتربت منه أكثر ليشم عطرها الباريسي الذي يهواه.

تكلمت عن برلين.

نسيت نفسها وحالته، وهي تسترسل بمعلوماتها الوفيرة عن هذه الجوهرة التي تعرفها، مثلما تعرف تفاصيل محلتها الوزيرية، بأشجارها

الباسقة من اليوكالبتوس، وسواقي المياه التي ابتلعت مجاريها الأرصفة غير النظامية، ونواديها التي تكاثرت، وتكاثر رواد لها يتفاخرون بإقامة حفلات سمرهم، وتبادل أنخابهم من عرق العصرية المشهور، على حدائق بيوت، أغتصبها رجال الانقلابات العسكرية الثوار، من أهل السياسة الكبار للزمن الملكي، أمثال جعفر العسكري والأيوبي، ونوري السعيد وغيرهم.

نظرت اليه ثانية، فوجدته يغلي داخل ثيابه، وقد انهار في أعماقه كل شيء، وكأنه قد انزلق نحو هوة سحيقة بسرعة برق، فحاولت الاتصال بالإسعاف ثانية. ألحت بضرورة الاستعجال في الحضور، حتى كررت عبارة "بسرعة رجاءً" عدة مرات.

سألها أحدهم عن الأعراض، وعن موضع الألم، أجابته بدقة متناهية، واصفة الحالة بكل وضوح، كأنها ممرضة ممارسة مثلهم.

طلب منها ابقائه على اريكة أو حتى على الأرض، لا يتحرك كي لا يجهد قلبه، وطلب منها أيضا الاستمرار بتبادل الحديث معه، حفاظاً على ديمومة الوعي، ختم حديثه بالتنويه الى موقعهم المتحرك، قريباً من السفارة، وإنهم يولون الأمر كل الاهتمام، العراق بلد صديق.

لم تمض دقيقتان على انهاء مكالمتها الأخيرة، حتى وصل في نهايتها الى باب السفارة طاقم طوارئ طبي، في مقدمته مسعفان، يزيد طول الواحد منهم عن مائة وتسعون سنتمتراً، بأجساد رياضية، كأنهم جنود من القوات الخاصة، يسبقهم في المشي شاب لا يقل عنهم طولاً، توحي عدسات يضعها على عينيه، وسماعة فحص تتدلى من على رقبته، أنه طبيب طوارئ متمرس.

توجه المسعفان على الفور، لفتح أجهزة متعددة توزعت على أرض الغرفة، جعلتها أقرب الى مستشفى صغير، منها الى مكتب سفير.

وضعا قناع تنفس الاوكسجين الصناعي على فمه المفتوح، لإدخال المزيد من الهواء، وحال تأكدهما حصوله على أول دفعة منه، سارعا الى مد أسلاك الى جهاز متنقل لتخطيط القلب، بينما استمر الطبيب بتوجيه سيل من الأسئلة:

أين يتركز الألم، وهل باق في مكانه، أم يتحرك من مكان الى آخر؟.

هل هذه المرة الأولى التي تعاني ألماً، ينهش الصدر من الداخل؟.

ألا يوجد أشخاص في العائلة عانوا أمراض القلب؟.

هل أشارت الفحوص الطبية التي أجريتها من قبل، الى وجود مشاكل في القلب، أو مؤشرات لارتفاع ضغط الدم؟.

يحسم التخطيط أمر التشخيص بشكل واضح، ذبحة صدرية، حسبها الطبيب كذلك، وتعامل معها، من مؤشرات الألم الشديد الذي توسط الصدر، والتعرق الغزير، مع محاولات التقيؤ من النوع الجاف التي تكررت عدة مرات، دفعته الى اخراج حبتان مختلفتان في اللون والحجم، من صيدليته المتنقلة، التهمها طارق دون السؤال عن طبيعتهما، وكأنه يستعجل الأمر، لتخفيف ألم وصل حداً في شدته، شبهه عند تبادل الكلام مع سكرتيرته، مثل سكين يمسكها قصاب غشيم، أخذٍ بتقطيع الأوصال بغير انتظام.

كان هاتفه الخاص في المكتب، يرن طوال الوقت لكنه لم يجب، ولم تجب هي كذلك، لانشغالها بكيفية ايصاله الى المستشفى، بأسرع

وقت ممكن، متأملة صحة التشخيص، وملائمة العلاج لتجنيبه الخطر، والحيلولة دون ترك آثار جانبية للذبحة، على قلبه الحنون، اذ أنها تعرف جيداً أن الذبحة اذا ما عولجت بالأدوية الصحيحة، خلال ست ساعات، سوف لن تترك أثراً على عضلة القلب، التي لم يصلها الدم بالقدر الكافي، معلومات عرفتها من كتاب للوالد عن الأمراض النفسجسمية، اعتادت تقليب صفحاته عندما استهوتها دراسة الطب، قبل تحولها المفاجئ الى الاقتصاد السياسي.

ألتفت الطبيب بانزعاج صوب الهاتف الذي لم يتوقف عن الرنين، وهو يعطي الاشارة الى المسعفين، أن ينقلاه الى سيارة الاسعاف على كرسي متحرك أحضراه معهما.

تمنع أولاً، في خطوة تَرفَعَ فيها على القدر الذي أرداه أرضاً في عمر الشباب، أو أنه لم يَرِد الولوج الى منزلةٍ، فيها الضابط المظلي السابق، والسفير الحالي محمول على كرسي نقال. ومع هذا أستسلم عندما أكد له الطبيب، بلغة تخلو من الدبلوماسية، عدم الحاجة الى إضافة أي جهد غير لازم، على القلب المتعب في الوقت الراهن.

***

حفل يرعاه الرئيس

تعيش بغداد مفاجأة من نوع خاص. تورَّم القلق في نفوس الكبار من البعثيين، حال وصولهم يوم الثاني والعشرين من تموز، قاعة بنيت أصلا لتقديم العروض المسرحية، سميت بالخلد، من دون معرفة مسبقة، من ذاك الذي أسماها هكذا، بأنها سَتُخَلدُ مشهداً مثيراً، يأكل فيه الكبار أكباد أبنائهم، في حفل يصفق في ثنايا طقوسه الوثنية، ما تبقى من الأبناء لمنظر المضغ البطيء لأكباد أخوتهم نيئةً.

يشهدون على دوافع الوليمة، والمضغ، ودس السم، مذهولين غير قادرين على التفريق، بين الوهم وبين الحقيقة، كأنهم قد أصيبوا جميعاً بهستيريا من نوع خاص، لم يذكرها علماء الصحة النفسية من قبل.

يكتمل الجمع حول المسرح المعد مكاناً للحفل الرئاسي، أو بالمعنى الأدق لمسرحية رئاسية.

الأدوار حددها الرئيس الجديد، والمشاهد حددها هو أيضا كرئيس، والناجون قالوا فيما بعد أن قوائم الضحايا قد حددها كذلك الرئيس، قبل ساعات من قرار أتخذه لتسويق فصولها على عجل، وقالوا أيضاً أنه كان ومنذ اللحظة الأولى، لاستلامه دفة الرئاسة مستعجلاً، وكأنه أصيب بضغط الزمن أو بحوازه كما يقال، يريد اليوم ممتداً، لا ينتهي بالساعة الرابعة والعشرين، يتمناه ثمان

وأربعون، ولو كان قد أمتلك بعض من أسرار الكـــون، وقوانينـــه المادية، لجعله أكثر من ثمان وأربعين.

حضر هذا الفصل على هذا المسرح، بكامـــل لباســـه المـــدني المستورد خصيصاً من هاروتز، الماركة البريطانية المشهورة. تتقدمـــه شلة جنود محاربين بلباسهم الزيتوني. تحيط به شلة أخرى، ومن خلفه مباشرة المقدم رباح المرافق الأقدم، تحدق عيناه بمن في القاعة واقفـــاً، يصفق لمقدم رئيسه، بعيني طائر الباز، قبل أنقضاضه على فأر خـــرج من جحره، ليلتقط الرزق.

كل شيء محسوب باتجاه اكتمال فعل الهستيريا، للموجودين في محيط المسرح مشاركاين ومشاهدين. وكل حركة مطلـــوب منـــها اسباغ الرهبة، على أجواء الحفل المسمى كناية، اجتماعـــاً لكـــادر الحزب المتقدم، بقصد الزيادة التراتبية، لوقع التأثير في عقل الحضـــور هستيرياً.

يأخذ الرئيس الجديد، أو صاحب الحفل ومخرجـــه في الســـر، المكان أعلى خشبة المسرح. توزع الجنود الحماة في زوايـــا القاعـــة، لتأدية الدور المخصص لهم، تأمين فعل الارهاب الهستيري في نفـــوس الموجودين. أصوات بساطيلهم عند احتكاكها بأرض القاعة، عوضت عن الموسيقى الكلاسيكية، التي أعتاد المخرجون العراقيون تقـــديمها مصاحبة، لأقتراب الممثلين واعتلائهم خشبته المعروفة. قال عنها الأخ غير الشقيق للرئيس في جلسة تبادل أنخاب النصر، بعد أسابيع مـــن هذا الحفل، أنها كانت لازمة لتضخيم فعل الهستيريا.

ما زال الجمهور الحزبـــي المرهوب، واقفاً في مكانه ينتظر الأذن بالجلوس.

تعمد الرئيس تأخير الجلوس، لاعتبارت رآها واجبة، لتحقيق فعل القهر اللازم للنفوس الشقية، من أول لقاء له معهم كرئيس.

التفت الرفيق عزام، السفير في الوزارة، هنا في هذا الوضع، صوب زميله الرفيق رمزي، سأله بقدر من الاستغراب فيما إذا كان هذا المشهد إجتماعاً حزبياً، أم ندوة ثقافية، أم مؤتمراً للنقد والنقد الذاتي، حيث لم يعد يعرف حقاً حسب زعمه. طالبه رمزي بعدم الاستعجال والانتظار قليلاً، فالدقائق القادمة حسب ظنه ستجيب عن السؤال، وفوق هذا ستقدم مفاجئات لم يعهدها هو من قبل.

بقيّ عزام على حاله يسأل، وبقيَّ رمزي متمسكاً بمحاولات التهرب من الجواب، بينما ظل الآخرين في أماكنهم خلف تلك الكراسي الخشبية، التي شهدت عبر تاريخها الطويل، عروض مسرحية لفرق عراقية وعربية، وأخرى أجنبية مشهورة، خلت من المفاجئات، ومشاهد الهستيريا المثيرة للتوتر، وتعكير المزاج.

مشهد الدخول وارتطام البساطيل بالأرض الاسمنتية، وارتداد الكراسي الخشبية أثناء الوقوف، أثارت قدراً ملموساً من التوتر، وحققت غاية الرهبة المقصودة في نفوس الحضور، سحبتهم قسراً الى نوع من الصمت الجنائزي، يشبه في خوائه صمت الحملان، عند تعرضها لهجمات الذئاب. لكنه صمت مؤقت، لم يدم سوى ثوانٍ معدودات، فأهل السياسة لا يصمتون.

لم يتعودوا البقاء صامتين.

لا يؤمنون أصلاً بالحكاية التي تقول "اذا كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب".

يصمتون فقط عندما يتكلم المسؤول، فكلامه سيف أمضى من الذهب.

ولأنهم لم يتعودوا، أو في الحقيقة لأنهم يمقتوا الصمت، بادر أحدهم أحتل مكاناً له آخر القاعة بكسره، من خلال هتاف وجد الآخرين أنفسهم مدفوعين، بوقع الهستيريا الى ترديده عالياً:

يحيا الرئيس.

فانتشرت إثره عدوى الهتاف، ومحاولات كسر الصمت.

كثيرون هم الراغبون بالهتاف، حتى شعروا بتدافع هتافاتهم في زحمة القاعة، التي عجت بنوايا تبديد الخوف، عن طريق الهتاف.

الرئيس من جانبه، ملتزم بالتوقيتات التي حددها هو، كمخرج للحفل، وملتزم بتعاقب المشاهد وتوزيع الأدوار التي رسمها هو، كاتب السيناريو الخاص بالحفل، لا يريد الحيدان عن مقاطعه الثابتة، وان عُرفَ عنه الخروج عن النص في حياته العملية، لكنه ليس في كل مرة يخرج فيها عن النص، وليس في هذه المرة، وهذا اليوم المميز في تاريخه السياسي، حيث الرغبة القوية بالتزام الثابت من النص. على هذا أعاد الصمت الى وقعه مطبقاً، بإشارة من يده اليمنى، تعني الاذن بالجلوس، وقطع الهتاف وان كان بحياته المجيدة.

وتعني له أخذ المكان الملائم على كرسي فخم، حول الطاولة الخشبية الأنيقة أعلى المسرح.

وتعني أيضاً رفع الستارة، والبدء بوقائع المشاهد على التوالي، لبدء السيناريو المعد باحكام.

وتعني كذلك حفل رئاسي من نوع خاص، يجهل المشـــاركون فيه، والمدعوون اليه، المرعوبون وغير المرعوبين، دوافع إقامته في هذا اليوم بالتحديد.

ينهض الرئيس من جديد، إيذانا بالوقوف، ورفع الشعار الخاص بافتتاح الاجتماع الحزبـــي، تقليد أرساه الحزب منذ تأسيسه، وسار عليه حتى اليوم.

ردد هو الشعار، جزء من الشعار، وأكمل المجتمعـــون الشـــطر الأخير منه، فَعُدَ الاجتماع قائماً.

جلس هو أولاً، ومن بعده أخذ الجميع أماكنهم على الكراسي الخشبية التي تطوى، باشارة من عنده.

نظر إليهم بعينين كانتا تبرقان، بريقاً لا يشـــاهد إلا مـــن تلـــك الحيوانات الليلية، فَعَلَتْ رغوة الصمت افواههم المغلقة ثانية. ولأنه واحد منهم، مثلهم لا يحب الصمت، فبادر بتبديد ثناياه، بعرض متوالٍ لقدراته الخارقة، على قراءة نوايا المقابل، من خلال النظر في العيون قائلاً:

"المرضى، أنا أعرفهم من أعينهم، لو يصطفون أمـــامي خمســـة آلاف واحد، فأنا أستطيع أن أكشف ما في قلبه من خلال عينيه، إلا حين يغطي عينيه بنظارة سوداء، عندها أطلب اليه أن يزيح النظـــارة عن عينيه".

يتصاعد صوت التصفيق مع تصاعد ضربات القلب، اســـتجابة للرغبة في كسر الصمت. يعلو صداه سقف القاعة، حـــداً أعطـــى المشهد رهبة ذات وقع مخيف، كأنه دويٌ مصدره مجهول.

هتف أحدهم من أصحاب الصفوف الأولى هذه المـــرة، بحياتـــه رئيساً عظيماً، يعرف كل شيء، يتحسس آلام الفقراء، ينصر المظلومين.

استجاب له آخر من الصفوف الوسطى بهتاف مقتضب، حيث قال بصوت متهدل كأنه قد أصيب برجفة:

أنتهى الظلم بمقدم الرئيس، يحيا الرئيس.

يتعالى التصفيق، فأشعره بنشوة أخذته بعيداً، كمن يحلق فوق السحاب، أسعده مثل مطرب بدأ الغناء تواً، ومعه تعالت أصوات الحضور بكلمة "الله". وتحت تأثير النشوة هذه، وهذا التصفيق الحار مسك قلمه ليكتب شيئاً، ثم عاود النظر الى صفوف الرفاق المرصوفة على الكراسي الخشبية، كانه يريد تكرار كلمة "الله" ليعيد وصلة غناء، أو يكرر بيتاً من الشعر أستهواه الحضور. فكرر مشهد القدرات الخارقة قائلاً:

"كنا كما اعتقد – في اجتماع بالمجلس الوطني، وكان موضوع الحديث العلاقات مع سوريا، كان الى جانبي الرفيق عزة ابراهيم، قلت له: اشوف نقطة سوداء في عقل وفي قلب محمد عايش. وهذه النقطة قطعاً لا يمكن ان أخطأ في انها موجودة. لكن فقط أريد منك معاونتي بملاحظاتك، في أي إتجاه يريد محمد عايش يفعل بها؟ وراح الرفيق عزة والتقى به وقال له: لماذا انت غير مرتاح؟ هل يوجد شيء لا يريحك؟. حكى له عايش حكايات عن أحد الرفاق. وادعى انه غير مرتاح من كلام أحد الرفاق في الجلسة. كنت أفتش عن أي رفيق يهز قناعتي فيما اشوفه. جاءني الرفيق عزة ابراهيم، قال لي: لا اعتقد بوجود شيء الا بهذه الحدود".

نعم سيدي، لقد شخصت بنباهتك النقطة السوداء في قلب الخائن، كان متآمراً حقوداً يستحق الموت، قال عزة الذي حصل على موقع النيابة قبل أيام، وهو جالس في مقعده بالصف الأول، وتعزيزاً

لهذا القول أشر من مكانه، ملوحاً بكلتا يديه، بما يعلي من شأن الرئيس باني مجد البلاد.

يتفاجأ الرفاق بكلام رئيسهم، فيُعَبرون عن دهشتهم باندفاع شديد نحو التصفيق، وكأنهم يطلبون المزيد من الايضاح. وهو من جانبه كان مستعداً لإعطاء المزيد، بعد توهم العقل هلوسةً بسماع كلمة "الله"، قائلاً:

لقد تعرض الحزب والعراق الى مؤامرة خطيرة، تم اكتشافها بهمة الأخيار، هكذا هو قدرنا سنمضي بخطواتنا النضالية الى الأمام، وطريق النضال كما تعرفون محفوف بالمخاطر.

كلمات أتم بها المشهد الأول.

أعقبها بأخرى على شكل دفعات، مع كل مشاعر انتشاء وتصفيق، ووهم بسماع كلمة "الله" ليمهد من عنده الى مشهد جديد.

***

محيي عبد الحسين المشهدي، تآمر على الحزب، ليس من بيننا من يتآمر على الحزب، قالها الرئيس، وأعطى الاشارة للسيد المشهدي أن يتجه الى المنصة، يوضح أبعاد المؤامرة، وطبيعة النوايا وأسماء المشاركين.

يتجه الى المنصة مثقلاً بأحمال الهموم، ومشاعر الخوف المكبوت، ووعود لا يثق بصدقها. هيئته العامة، وجهه الذي شاخ سنوات بيومين تعلوه مسحة ارتباك، ملامحه توحي بتعرضه الى ارهاق شديد. كان شاحباً بعينين ذابلتين تعانيان أرق الخيانة، تؤشران نوبة اكتئاب شديدة، قد ألمت بصاحبهما.

تمايل محيي في مشيته قليلاً، لم يكن هو ذاك الذي عرفه العراقيون "محيي". إنه ليس هذا الشخص السائر نحو المنصة ذابلاً، بوجه مليئ بتجاعيد الكهولة الشابة، كأن الزمن عبث بهيئته، فتح أخاديد في وجهه العابس، لم تكن موجودة بالأمس، أضاف الى عمره الزمني، عمراً نفسياً بسنوات عديدة، قفزت به فجأة الى الشيخوخة، وهو في عمر الشباب.

مشى شارداً، غير مبالٍ لتلك النظرات التي تحاول التهامه نياً من رفاق الأمس، أقتربت منه النظرات، وجدت وجهه الكهل قد اقترب من الصفرة المائلة للسواد، البدلة التي يرتديها، كأن قياسها قد تغير، بات أكبر من ذي قبل، وباتت ربطة العنق الزرقاء متراخية حول العنق، يتراءى لناظريها، كأنها سوداء تعكس حزن صاحبها الأسود، وقلق الحضور.

إن ما أراه ليس محيي الذي أعرفه، منذ عملنا سوية في التنظيم الحزبي الطلابي، قال عزام همساً لصاحبه رمزي، وأكمل بنفس الطريقة، لقد تغير كل شيء فيه، حتى صعب عليّ تبيان شخصه، لولا بعض الملامح التي لم تزيلها عذابات اليومين الفائتتين.

قصد الزاوية اليمنى.

المصابيح الوهاجة أثارت في داخلة قلق من النوع الهائم، ومجموعة "الميكرفونات" وكاميرات التسجل زادت من شدة القلق.

تعثر في مشيته قبل وصوله اليها، كاد أن يسقط، وقبل ملامسة يداه الأرض استعاد توازنه وعدل خطاه.

وقف خلف المنصة مشدوهاً، لم يتكلم، لكن وجهه الهرم نطق نيابة عنه، كان جسده النحيل عبر لغته الخاصة يقول، أني خائف

عليكم، سيتعرض بعضكم على أيدي اللئام مثلما تعرضت، هتكاً للانسانية، قلقٌ على مصير حزبكم، الذي وضعه الجلادون بين فكي وحش مفترس، وقلقٌ على ضميرٌ، شرع يعذبني قبل النطق بالأسماء، زوراً كما أرادوا. اني مُكره على ما سأقول، لقد عذبوني، هددوني، وعدوني باعفاء من حكم الموت، إذا ما قلت ما يريدون قوله، على هذا المسرح، وفي هذا الحفل الكبير.

نظر الى الرئيس، كمن يريد الارتداد عن الاتفاق المبرم، لكنه لم يرتد، ففي داخله غصة من فعل التهديد.

بدأ حديثه مشوشاً، وَجهَ الاتهام أولاً الى السيد محمد عايش، عده الرأس الذي خطط للمؤامرة وقادها، قائلاً:

"وأيضا طرح محمد عايش بصيغة.. تقريبا بس أقل شوية... أيضا ما معناه خلي يراجع موقفه.. ويعيد النظر كان هذا هو الهدف منه لخاطر يأجل موضوع الرفيق أبو عدي... ومحد حچه طبيعي.. حچه أيضا عدنان حسين.. المجرم عدنان حسين وكان حديثه طبيعي.. مغلف يعني تغليف.. ما اعرف شنو يعني ما اع.. نعم".

كلام لم يفهم الحاضرون من نهاياته شيء، ولا من بدايته أي شيء، خرج من بين شفاهه المتيبسة من دون انتظام، كأن الدنيا غامت في عينيه، وأشتعل الغضب المباغت في صدره.

عدّلَ من وقفته قبالة الرئيس، بلل ريقه أملاً في ترطيب تلك الشفاه، ومع هذا لم يستطع الهروب من خواء في داخله، و لم يفلح في أخفاء وجه، بات ينث إرهاقاً وخوفاً بشكل واضح، وعينان محمرتان.

قسّم نظراته بين رفاقه والرئيس، كمن يستفسر عن صحة تمثيل الدور، فيأتيه الرد من الرئيس بصيغة أمـــر في أن يُكمـــل. فيكمـــل بالطريقة المشوشة ذاتها:

"بتوجيه خارجي بالضبط.. يعني مثل.. انو هذا رأي الأسد... فلذلك صار بالاجتماع من طرح".

يصمت لحظات.

نظرَ حائراً الى سقف القاعة، التي جلس الرفاق المحتفلون علـــى كراسيها، في حالة ذهول غير مسبوقة، ثم عاود الحملقة في الســـقف، وكذلك في الوجوه. أراد قراءة شيء ما علّه يكـــون قـــادراً علـــى التخفيف، ولو قليل من الألم الذي مزق داخله... ألمٌ ظن ســـيقتله، قبل التمتع بالعفو الذي وعد به الرئيس، مقايضة بحسن الاعتـــراف، وقراءة الأسماء المطلوب اشراكهم في سيناريو المؤامرة. وبدلاً من قراءة ذاك الشيء عاود الكلام متلكئاً بوقع أكبر:

"من... طرحت.. أني انو.. على. أبو.. الرفيق أبو هيثم.. انـــو يعيد النظر يعني بموقفه"

يصمت للمرة الثالثة في مشهد يبدو أنه لم يتمرن عليه، ثم أعقب ذلك سيل من الشهيق والزفير، يتدافع مثل زحام في موقف باص نهاية الدوام الرسمي.

نظر الى المنصة التي وقف أمامها، كأنه يقرأ من ورقة وضـــعت عليها قبل اعتلائه لها ثم أكمل:

"صار يعني وجود الرفيق أبو عدي علـــى.. ال.. علـــى رأس المسؤولية الأولى من شأنه، يعني يفشل كامل المخطط، وإذا أســـتمر الرفيق أبو هيثم بالوضع اللي المعروف وهو ما راغب يعني.. وتعبـــان

يسهل عملية يعني.. يسهل عملية الاتصالات والتواصل... يعني عملية مفيدة"

يتلعثم في الكلام، أراد مدداً بالاتجاه الذي يفترض أن يتكلم فيه. فجاءه المدد بكلمة واحدة "أكمل".

"في الحقيقة إن المجرم محمد عايش كان جالسا إلى جانبي وكتبت له ورقة كتبت ورقة في الدفتر واعتقد إن اقرب واحد منا شاهد ما حدث هو الرفيق حسن علي العامري"

رد الرئيس قائلاً على الفور:

"أنا أيضا كنت منتبه عليكم... عيني عليكم".

نعم كنت منتبه، وعاود الاسترسال في الكلام قائلاً:

"فقلت له في الورقة... يبدو إنني أنا المقصود بشكل خاص والظاهر نحن"

يكمل الرئيس العبارة الناقصة في الحديث أو يستعجلها لأمر ما:

"تم كشفنا".

نعم. وأكمل حديثه:

"گتله إذن إني هسه والورقة بخط أيدي.. إني هسه راح أقدم استقالة.. أقدم استقالة من الـ من... من المجلس وهاي الشغلة منكم تره تورطت فقال متقدم استقالة ولا تتورط.. لا تستعجل.. على كيفك هسه.. يعني لتستعجل."

يقاطعه الرئيس بالقول:

كنا نقرأ في قلوبنا صفحات التآمر قبل ان نمتلك المعلومات عن طبيعته.

دعك من القول، لقد فهمنا نوايا التآمر الخسيسة.
عليك تزويد الرفاق بأسماء المشاركين في هذه المؤامرة القذرة.

***

نظر مفزوعاً في ورقة بيضاء سُطرت عليها مجموعة أسماء بقلم حبر أحمر. أنتقل في نظره الى جمهور المجتمعين، كمن يستنجد بهم كي لا يقرأ. لم يجد فيهم من يستطيع تقديم النجدة في موقف هم أحوج فيه الى النجدة.

حاول القراءة، وقبل أن يبدأ، فكر في إطلاق صرخة يقول فيها أني مجبر على التكلم دون ارادتي. لكن الخوف الذي أشتد في داخله حال من دون ذلك. وبدلا من الصراخ سار مع النهج محاولاً القراءة، بسرعة مثل شاة تستعجل موتها على يد ذئب أشهب. كأنه يريد الانتهاء منها، مهمة عدّها سبيلاً وحيداً، لتجنيب الزوجة تنفيذ ذاك التهديد بالاعتداء على شرفها... مهمة وخز لضمير مهان، لا مفر من أدائها كما هو مطلوب.

كاد يغمى عليه هروباً من هذا الموقف الذي يقدم فيه الرفاق، قرابين احتفال أراده الرئيس، فاتحة عهد جديد، لكن عقله الباطن أصر على أن يبقى على خيط من الوعي يربطه بالرئيس، الذي وعده شخصياً بالعفو.

بدأ القراءة بهيأة معلم التحق تواً بالتدريس، في محاولة منه تلقين صف من طلاب المدرسة الابتدائية، مادة مقررة في درس الحساب.

توقف عند السطر الثالث، نطق اسماً كُتب خطأ عبيد الرحمن، حيّره اللفظ، أنتظر قليلاً، أدار وجهه صوب الرئيس، يستجدي

التصحيح بطريقة أضحكت الرئيس، ضحكة نصر فيها قدر من التشفي، وفيها دفع باتجاه طلب الاستمرار، بعد تصحيح اللفظ الى عبد الرحمن. ومن بعد هذا التفت الى المقدم رباح، تذكر تفاصيل الوعد، وطريقة التهديد بالاعتداء على الزوجة التي يحب، في حال عدم الامتثال الى ما يراد قوله، ثم استمر بالقراءة، تلى أسماء المشاركين، خاف نطقها بطريق الخطأ، أو خاف عبور إحداها نتيجة عدم التركيز. استعجل أحياناً، وأبطأ أحيانا أخرى، كأنه يعرف تماماً، ما وراء القراءة من خطوات، تحدد مصير بات محتوماً لا محال.

كل من يرد اسمه في الاعتراف، يردد الشعار، ويترك القاعة فوراً، قالها الرئيس، أمين سر القطر، القائد العام للقوات المسلحة، الراعي الأوحد للاحتفال.

أنا بريء.

اقسم بالله العظيم بريء.

لم ألتقِ محمد عايش من قبل، قالها محمد سمير عضو فرع البصرة، حال ورود اسمه على لسان السيد محيي. فطلب الرئيس من أفراد حمايته المنتشرين بين صفوف المجتمعين، وبعد أفتعاله حالة غضب شديد بالقول:

حماية، اخرجوه من القاعة، لعنة الله على هذه الشوارب.

تحت حراب الذل، ووقع الأخامص القوية لبنادق الكلاشنكوف الروسية الصنع، تلاقفه الغلمان، وأبناء العشيرة القادمين في الأمس، متعطشين لتنفيذ أوامر التصفية الخاصة بالحساب، كأنهم يحملون تراكم قرون من دوافع تصفية الحساب. وبعد ان يأس من ايصال حقيقة عدم معرفته بالمؤامرة، هتف بحياة الرئيس، آخر وسيلة انقاذ،

فزاد النزف من نتوءات شـــرايين، وأوردة كانـــت بـــارزة أعلـــى يديه.

اقترب حاله من الاغماء، وقبل اكتمال الاغماء، وتسليم الروح الى عزرائيل الذي أخذ له مكاناً في آخر القاعة الخاصة بالاحتفـــال، قال بصوت غير واضح "والله بريئ"

يتذكر الرئيس أمراً، فيقاطع القراءة الخاصة بالأسماء قولاً:

"من أكثر الرفاق اللي مكتشف هـــاي الزمـــرة هـــو الرفيـــق طاهر" ويكمل كلاماً عن الرفيق الذي اكتشف المـــؤامرة حســـب ادعائه:

"كان حتى مرات يثقل عليهم زايد.. إحنا نلومـــه.. يخـــابرهم بالتلفون يگللهم ترى تكتلكم مكشوف وتآمركم مكشوف ونطلب منه بأنو يتريث في التقييم"

يتحدث عن رسالة من أحد الرفاق حســـب وصـــفه، تتعلـــق بالمؤامرة الخطيرة فقال:

"ربما الرسالة قبل ثمن تشهر إحنا كنا ما چنا مكتشفيهم"

نهض الرفيق طاهر عضو القيادة، نفى بطريقة مهذبة أن تكـــون الرسالة حاملة، معلومات خطيرة فقال: "الرسالة... رفيق أبو عـــدي تتعلق بغبن أصاب الرفيق ليس إلا، ليس فيها معلومات خطـــيرة ولا شي أخر تتعلق، ليش انقل من ايران إلى بغداد... ومـــن... وهـــاي هي".

يرمقه الرئيس بنظرة غضب. لم يكن الرد بهذا الوضوح متوقعـــاً من الرفيق الذي عده قريباً من محيط دائرته، بعدما ســـار الســـيناريو الخاص بالمؤامرة، كما هو مرسوم.

هذا كلام رهيب، يعني عدم وجود علاقة لما قيل باكتشاف المؤامرة. جملة وشوش بها عزام صديقه رمزي، بصوت خافت لا يكاد يسمعه.

نعم، ماذا قلت؟... لا، سأقول لك ما في قلبي لاحقاً.

تضج القاعة بالتصفيق، فقطعت على عزام وصال الحديث، وجعلت الرئيس يدرك أن الحضور لم يتنبهوا لما قاله طاهر، فعادت ملامحه سريعاً الى سابق عهدها، مغمورة بنشوة الانتصار على أعداء، اعتقد تآمرهم عليه أو وثق أنهم سيتآمرون عليه.

هذا آخر المشتركين، سيدي الرئيس، قالها السيد محيي، وعينيه باتجاه الرفاق ساعية للاعتذار، وكأنه يريد القول لقد حدث هذا كله في لحظات ذهول وإكراه، حدث من جانبي وسيحدث من غيري، كوابيس لا يلبث الواحد أن يستفيق متخلصاً منها، ساخراً من طبيعتها إلا ويقع في مطباتها. ألم يكن هذا المآل قائما في عراق الماضي وعراق اليوم؟. نعم سيبقى وستبقى أبواب التلفيق في ربوعه مفتوحة، ما بقيَّ الرئيس على قيد الحياة... هكذا تداعت في عقله الكلمات وهو ماض الى حتف مجهول.

***

يعم الهدوء قاعة جلس أصحابها جميعاً على مقاعد الاتهام، لا يعرفون ما يحصل من حولهم، ولا يمكنهم التنبؤ بما سيحصل لاحقاً. مزاجهم خليط من الدهشة والذهول والخوف، وهستيريا متناوبة بين الضحك، وبين البكاء، وكذلك من الصراخ المتكرر لمجموعة شعارات، أمام قاض وحيد، أخذ مكانه أعلى وسط المنصة مزهواً بالانتصار.

مزاجٌ، وزمن ضاعا في ذاكرتهم ما بين دخول القاعة، وانتهاء السيد محي عبد الحسين من قراءة الأسماء.

ومع هذا استعادت وجوههم لونها الحقيقي، بعد التأكد من ضمان الحصول على صكوك الولاء المطلق للرئيس.

كلم الرفيق عزام صاحبه، بعد ان أغدق على نفسه بقدر من الهدوء والسكينة، عن أن الزمن في داخله قد أنكمش حداً، لم يعد يحسب فيه الساعات التي مرت من عمر، أنقصته سويعات الاجتماع هذه عدة سنوات. رده طالباً السكوت حتى الخروج من القاعة بسلام، فصكوك الولاء لا تشبه ضماناتها صكوك الغفران.

في الجانب الآخر من القاعة، قفز الرفيق عواد من وسطها فاقداً السيطرة على ذاته المضطربة، كأنه أصيب بصدمة العفو من حكم الاعدام، قبل التنفيذ بلحظات.

هتف بحياة الرئيس حامياً الأمة العربية من المحيط الى الخليج.

منقذاً العراق من كل تآمر خسيس.

نصير المظلومين في العالم.

باني الحزب من جديد.

أستمر هكذا في الهتاف، وبمواصفات للرئيس، غالبيتها تُذكر لأول مرة، حتى جف حلقه من شدة الحماس، فأغميَّ عليه. تقدمت اليه الحماية باشارة من المقدم رباح، وضعته جانباً في ممر للتيار الهوائي، تاركة حاله الى الرفاق، آخذين على عاتقهم افاقته، بسبب انشغاله واياهم بقضايا أهم، من فقدان الوعي لموالٍ مضمون للرئيس.

يعود الهدوء من جديد، فاستغله علي حسن المجيد من مكان له متميزاً في الصف الأول. انتصب واقفاً بقامة طويلة، تشاهد من كل

أركان القاعة. طلب الحديث لملاحظة صغيرة. فأذن له الرئيس مرحباً فقال:

"هذه الفقاعة التي ذكرتها ما أظن إنها تسبب لنا انكسارات نفسية، ولكن لو نرجع الى الخلف، ولا أريد لوم القيادة ولا أريد ألوم نفسي ولا أي أحد مهما يكون لأن كل ما عملته القيادة صحيح وكل ما ستعمله هو صحيح ومؤمنين به ايمان مطلق. لكن وجود عبد الخالق السامرائي حياً يشم الهوا أكو عناصر لازم ترجع مرة أخرى وتعيد الكرة وتعمل على إعادة عبد الخالق السامرائي مرة أخرى... فآني أرجو تنبيه أو أنتباه القيادة... عفوا مو تنبيها لهذه المسألة... وضرورة أن يحاكم مجدداً عبد الخالق السامرائي وضرورة أن يعدم عبد الخالق السامرائي".

يتعالى التصفيق تأييداً لملاحظة المجيد، ومطالبته اعدام عبد الخالق، المسجون مدى الحياة. فيرد الرئيس قائلاً:

"على أية حال عبد الخالق مثل ما حجولكم... بعد الآن ما نرحمو... ما أكتمكم سر إذا ما كلت... آنو أنا المسؤول الأول عن بقاء عبد الخالق السامرائي حيا".

والذي عملته سيدي صحيح، قال المجيد معقباً. ومن بعده أكمل الرئيس:

"وكلها ضمن قيم... يعني القيم البعثية هذي... ونكول لا كون خاف نخسرنا بعثي صغير بسببه هل البعثي الصغير هذا ما لازم نخسره... بس لا... قضية أمن الثورة والحزب هي أكبر من اي شيء رفيق علي".

لابد وأن نقطع رأس الأفعى سيدي، رددها المجيد بصوت مسموع، وأضاف بأن انجازنا الجبار هذا سيبقى ناقصاً، إن لم نقطع رأس الأفعى.

عفيه رفيقي، رأيك صحيح، الحزب لابد وأن يعمل على قطع دابر الأفاعي في هذا البلد الأمين، رد الرئيس، وأكمل رده مسترسلا في الكلام الذي يتقنه ارتجالا:

عبد الخالق، لم يتعظ، بقيَّ يتآمر على الحزب والثورة، على الرغم من عفونا عنه، وتخفيضنا لحكم الإعدام الذي صدر بحقه الى المؤبد.

يسكت ثوانٍ معدودات، ثم يواصل الكلام:

أبشر سوف لن يفلت أحد من العقاب، مهما كان موقعه، وفي أي مكان يكون من هذا العالم. الثورة اليوم بعون الله وهمة الرفاق الخيرين من أمثالكم، قادرة أن تصل الى كل بقاع العالم. العراق اليوم ليس هو عراق الأمس. ستسمع رفيق، وسيسمع كل الرفاق والعراقيون العظماء أخباراً تسرهم في القريب العاجل.

بعدها وقف في مكانه، ردد الشعار إيذاناً بانتهاء الاجتماع، ثم أكمل ما قاله طالباً من الرفاق الاتكال على الله.

يملأ الهتاف قاعة الخلد، بوقع أشد من المرات السابقة.

يحس الرئيس زهواً بنصره على المتآمرين.

التفت بجسمه الممتلئ الى جمهور الرفاق الغاط بالهتاف، كأنهم يقفون جميعاً على خط محدد لسباق خاص بالهتاف، أو أنهم قد أصيبوا بعدواه النفسية، وهو الاحتمال الأكثر. اتجه نحو الممر المؤدي الى باب القاعة بموكب، تضاعفت أعداد الحمايات في سيره، وأتجهت نحوه الحناجر هاتفة لاسمه العلي، وأخرى تردد أهازيج شعبية، ومعها مناداة بأعلى الأصوات "الموت للمتآمرين".

يلوّحُ بيده اليمنى راضياً بما تحقق، وبوعود لتحقيق المزيد، كأنه ينتظر المزيد من الهتاف والتأييد، بإيقاع القصاص على كل من يتطاول على الثورة والحزب، وعليه قائد وحيد.

الحمد لله على السلامة، قالها الرفيق جمال عضو فرع بغداد الكرخ، لصديقه غازي، عضو مكتب تنظيم الوسط، الماشي الى جانبه أثناء الخروج من القاعة مقترحاً بقاءه في بغداد، وعدم عودته الى بابل هذا اليوم، وتحويل الوجهة صوب مكان يستطيعون فيه الاحتفال معاً بهذا اليوم العظيم، ثم استمر بالقول:

أحس برغبة شديدة، لأن أتكلم، منابع القلق في داخلي، تكاد تقتلني، دعنا نخرج الى أي مكان، نحتسي فيه خمراً، يساعدني في أن أتكلم.

لكن بغداد في رمضان، تغلق حاناتها، ونواديها في هذه الأيام لا تقدم مشروباً يساعد على فتح منافذ الذاكرة، ويطلق عنان الكلام.

ساجد حلاً لكسر هذه القاعدة، سيغفر الله عصيانه في كسر القاعدة بهذا اليوم، عصيان قابل للغفران سيدي، خير من الموت كمداً بلا ذنوب آتية من عصيان.

وكيف سنقضي الوقت من الآن حتى الليل؟.

أتذكرُ صديقنا نوفل من أيام الدراسة الجامعية؟. لقد عمل في التجارة، وبات ميسور الحال، اشترى مزرعة، من الرفيق حازم الذي حصل عليها هبة من الحزب، محاذية للطريق العام بغداد – سلمان باك، بنى فيها بيتاً جميلاً، جهزه بكل لوزم الراحة، خارجه مسبح طوله خمسين متراً، داخله بار يحوي انواع من المشروبات، أعتدنا

الذهاب اليه في بعض الامسيات التي نجد فيها أنفسنا مشدودين، محتاجين الى الكلام، دعنا نقصده.

لكنني لم أره منذ عشر سنوات، ثم أني صائم.

هو يَذكُرُكَ دائما، سيفرح بوجودك. وبالنسبة للصوم، أنا عن نفسي سأفطر حالاً، لم أعد قادراً على الاستمرار بالصوم، سنذهب اليه في مكتبه بالكرادة، ونأخذه معنا الى المزرعة، نتغدى، ونسبح، ومن ثم نبدأ مشوار الترويح مع بداية الليل.

الساعة الثامنة ليلاً، جلس ثلاثتهم على حافة المسبح، استذكروا أيام دراستهم في كلية التربية قبل عقدين من الزمان، ومسيرتهم الحزبية فيها شباب متحمسون، ومعه أخذ الويسكي من النوع الخاص مأخذه، في سهرة استمرت حتى الرابعة صباحاً.

سأل نوفل صاحبيه قبل التوجه الى النوم عما حدث في قاعة الخلد؟.

أجاب جمال، لقد تهاوى الرفاق مثل الهشيم، كنت محموم في داخلي، شعرت وقد أرتفعت حرارتي، خفت أن أنفجر، المحكمة الحزبية ستبدأ بعد أيام، ومن هذا اليوم الى ذاك، الذي ستطوى فيه صفحة المؤامرة ألف عمامة ستميل، كما يقول أهل المثل.

فردد نوفل عبارة "الله في العون".

إني لا أعتقد أن محيي سيبقى صامداً الى يوم المحاكمة. كنت أراه في القاعة، وكأنه في عالم آخر بعيد عما يجري، قال غازي. فأفصحَ جمال عن حقيقة سَرهُ بها يوم أمس، نسيبه المدير في جهاز المخابرات، كان قد حضر آخر جلسة تحقيق، مع محيي المشهدي، قال، لقد كان محيي عنيداً، لم يعترف بذنب اشتراكه في المؤامرة، على الرغم من

وضعه عارياً في حوض ماء، انخفضت حرارته دون الصفر، وكان غير آبه لضغط يديّ الرفيق رئيس الجهاز على رأسه الأصلع من الأعلى، لاغراقه حد الاختناق، وتكرار الأمر عدة مرات قربته من الموت. كان صلباً لم يعترف، ولم يعترف ايضاً عندما عرضوه لصعقات كهربائية. بقيَّ مصراً على براءته، لكنه لم يصمد دقيقة واحدة بعدما سمع رئيس الجهاز، يصدر أمراً بجلب زوجته الى الحاكمية، عندها أيقن بعدم جدوى الإصرار على التحدي، وأقر بالاستسلام والتوقيع على ورقة بيضاء. طلب أن يملي عليه رئيس الجهاز ما يريد، فاكتفى سيادته، بوضع توقيعه على اعتراف المشاركة في المؤامرة، وإن محمد عايش هو الرأس المدبر لكل شيء، وإن لعبد الخالق السامرائي علم بها.

وهل حقاً كان يمكن أن تُجلب الزوجة الى الحاكمية، سأل نوفل، فأجابه جمال بعبارة قصيرة:

في هذا اليوم الذي تبرر فيه الغاية الوسيلة، كل شيء ممكن، وأضاف، سيأتي محيي الى المحكمة، وسيحاكم، لكنه لم يعدم، هناك وعد قال عنه نسيبي من السيد الرئيس باعفائه من الاعدام، إذا ما أعترف بالمشاركة، وقد أعترف فعلاً، وهو المطلوب.

***

ما بعد المؤامرة

يئس السيد شكري الحديثي، سفيرالعراق في المجر، من أن يحصل على ردٍّ من هاتف صديقه السفير طارق، أو من سكرتيرته التي اعتاد مهاتفتها يومياً، وعندما اشتد استغرابه، طلب أخوه السفير محمد، الذي سبق له العمل وكيلا لوزارة الخارجية، والذي يتمتع بعلاقات جيدة مع عموم موظفيها، العارفين بما يجري، القريبين من الوزير، الموجود حاليا في اجازة يقضيها في بغداد، ليستفسر منه شخصياً عن موضوع البرقية التي أشارت الى ضرورة حضوره الفوري في الوزارة، لكنه لم يحصل على الرد، الهاتف مغلق. حول طلبه صوب شقيقه الإعلامي السيد راجي الموجود في لندن، متأملاً الاستفسار عن أنباء نشرتها الصحف النمساوية والأمريكية، وتداولتها وسائل إعلام محلية، عن انقلاب حصل في العراق، أجبر رئيسه البكرعلى التنحي لنائبه القوي صدام حسين.

أعاد السماعة الى مكانها، فالخط مشغول.

قلق الاستدعاء في داخله، لم يعطه الفرصة أن يهدأ، فتوجه بمعاودة الاتصال ثالثة بالسفير طارق، وكأن في داخله سعي مُلح للحصول على إجابة، يريدها سريعة لتخفف القلق المتصاعد في داخله، مثل وهج النار، متيقناً أن الإجابة الصحيحة سيحصل عليها منه شخصياً، باعتباره الصديق المقرب من السيد النائب الذي أصبح رئيسا حاليا للعراق.

قال لنفسه وهو يقطع غرفة المكتب، ذهابا ومجيئاً، إن طارق حزبيٌّ نافذ، يعرف بواطن الأمور، بالقدر الذي يسمح بإعطاء الاجابة الصحيحة. لكنه لم يجب، فاتجه الى السكرتيرة التي تكلمت معه ببطء، كمن بات يفقد وعيه بالتدريج، قائلةً، سأتصل بك لاحقاً، السيد السفير يعاني من وعكة صحية. مع السلامة.

شعربنوبة نحس تدفعه مرغماً الى ترك الهاتف، وإبقاء وقع الاتصال مفتوحاً مع منابع الذكريات، توصله سريعاً الى سؤال عن حقيقة مايجري في العاصمة بغداد، وعن علاقته بموضوع الاستدعاء، فازداد القلق في داخله درجات، يصعب تحملها في المعتاد.

***

هناك في برلين، وقفت السكرتيرة تتابع سفيرها، بنظرات ملؤهها الحزن، وهو محمول على الكرسي المدفوع.

تيقنت عدم قدرتها البقاء واقفة في المكان، كأنها تودع مسافراً الى المجهول بلا عودة، فقررت السير خلف موكبه راجلة، حتى سيارة الاسعاف.

تأملت مشهد نزول السلم الكهربائي من الإسعاف، وصعود الكرسي النقال الى داخلها، المهيأ مستشفى ميدان متنقل، وبعد أن كبس الأسى قلبها، قالت مع نفسها وعينيها تذرفان الدمع، سيصل بالوقت المحدد.

سيحصل على العلاج اللازم في الوقت المحدد.

سيعود الى مكتبه بوقع أنشط مثلما رأيته مفعماً بالحيوية والأمل، عند عملي معه سكرتيرة شخصية، قبل ثلاثة شهور من الآن.

سيعتني أطباء مستشفى "شاريتيه" الحكومي بقلبه العليل.
انهم أطباء متميزون.

قطع السفير شكري اتصاله مع سلسلة الافكار، فقد الشعور بنفسه وبتواصله مع العالم المعتاد، وكأن منادٍ في داخله يجيب، بعدم جدوى التداعي الخاص بالأفكار. ولكي يُنقذُ نفسه المتعبة من أنياب القلق، التي غُرِزت بتلافيف عقله، قرر التوجه صوب مطعم قديم، مكتوب اسمه باللغة المحلية "Peter" أعلى التلة التي تمتد الى حصن "فيشرمان" ارتادته شخصيات مشهورة عالمياً، وُضعت صورهم على حائطه المكسو، بورق تزينه ورود بارزة، بينهم فرويد، وستالين، والعراقي يونس بحري، وجمال عبد الناصر. آخر الصور على هذا الحائط، الذي يشبه متحفاً تراثياً، كانت للدكتور كورت فالدهايم، كتب تحتها بلغة ألمانية بليغة، وخط مذهب "سياسي ودبلوماسي نمساوي دولي.

المطعم مميز بتربع إطلالته الواسعة، على تلة تغطيها أشجار العنب في ضواحي العاصمة بودابست. أعتاد السفير شكري إرتياده وحيداً في الاوقات التي تهاجمه الأفكار المقلقة. يتلذذ طعامه المحلي، وقليل من النبيذ الزهري على طاولاته، المصنوعة من خشب الابنوس، أيام الامبراطورية النمساوية المجرية، يحلم بوضع صورة مناضل عراقي، من الجيل الجديد على أحد جدرانه، أسوة بتلك الشخصيات المشهورة.

لم لا؟. فهناك شخصيات تستحق، أن تجاور صورها هؤلاء المشهورين.

ينقطع الحلم قريباً من باب السفارة الخارجية، بمجرد ظهور السكرتير الاول لها، حاملاً برقية تأكيد على البرقية التي وصلت قبل

ساعة، تطالبه إشعار الوزارة، برقم الرحلة التي سيحجز عليها الى بغداد، ليتمّ استقباله من قبل دائرة المراسم.

وقف في مكانه، حزين غائم النظرت، لم يعد يملك من القوة ما يكفي، للحيلولة من دون اصابته بأعلى درجات القلق.

استجمع ذاته التي بعثرها القلق، ألقى نظرة على البرقية، لمح في أعلى متنها إشارة، الى أن نسخة منها أعطيت الى محطة المخابرات في السفارة.

تلفت يميناً وشمالاً، أراد أن يتكلم بدوافع التنفيس، لمشاعر القلق المتزايد، أوقفته دفاعات العقل التي حالت دون خروج الكلمات. شعر وكأن رأسه يدور كحجر الرحى، يطحن أحلام عن بغداد عاصمة اليقظة العربية، طالما تمناها بداية انتماءه الى الحزب. كاد الدوار يسقطه أرضاً، لكنه تماسك بقوة جسم، بنيت عضلاته على ممارسات طويلة لكرة القدم، قضاها في فريق الشباب العائد الى قضاء حديثة، ومن بعدها منتخب الجامعة المستنصرية.

عاد الى مكتبه محملاً بهواجس وأحاسيس غير مريحة، يردد بعض الأخبار التي أشارت، الى اشتراك السفير مرتضى الحديثي وزير الخارجية السابق في المؤامرة، وعاد الى ترديدها مع نفسه مرات عديدة، لم يكتف بالمرور عليها كأخبار تناقلتها جميع الوكالات. راح يحلل العوامل التي دفعت، مثل أولئك القادة الكبار للتآمر على الرئيس، ولم تمض على ترؤسه الدولة والحزب، سوى ليلة واحدة، لا سيما الحديثي مرتضى الذي عرفه صبياً نشطاً في المدرسة الابتدائية والمتوسطة، وشاباً مضحياً ملتزماً، قدوة للآخرين في الدراسة الثانوية، وصاحب مبادئ عليا ليس من بينها الالتفاف على الرفقة.

ألم يكن هذا وقع غريب؟، سأل نفسه، وأعطى لها جواباً للسؤال، لابد وأن المؤامرة قديمة، واستغل المتآمرون ظروف انتقال السلطة، ونفذوها بالوقت الحاضر.

أعاد قراءة البرقية، وهو جالس حول مكتبه الضخم، كمن يجلس على صندوق بارود. وبعد اتمام جملتها الأخيرة، انشغل بما ورائها في ظروف التطورات الحاصلة، وما تردد من أنباء عن اتساع رقعة الاعتقالات، لتشمل أعضاء شعب وفروع في الحزب، فضلاً عن وزراء ووكلاء وزارات، وقادة عسكريين، وأعضاء في القيادة القطرية.

لم يسأل نفسه هذه المرة، بل كلمها منوهاً الى أن المؤامرة تبدو محكمة، والمشاركون في تنفيذها كبار المسؤولين، وأمرُ فشلها يبدو عجيباً، وقد أشترك بها كل هذا العدد من الحزبيين المدنيين والعسكريين، لو كتب لها النجاح، لتدحرجت آلاف الرؤوس، من يدري أي الرؤوس كانت مرشحة للتدحرج، لكنها ستتدحرج حتماً، كانه يحس تدحرجها، وهو في مكانه البعيد عن بغداد.

لم يا ترى الاستدعاء في هذا الوقت بالذات؟.

هدأ مكتفياً بعلامات البؤس، وبقدر من الحزن، ثم حوّل وجهته من المطعم المؤمل افراغ كدره المتزايد على موائده المعزولة، الى بيته على نهر الدانوب، قريباً من السفارة، ليناقش تفاصيل سفر تملأه الريبة، وثنايا المجهول مع الزوجة القريبة من القلب.

***

مستشفى "شاريتيه" تلوح في الأفق القريب. تشغل مكاناً وسط العاصمة العامرة برلين. كانت وما زالت مستشفاً خاصاً، يقتصر العلاج في ردهاتها الأربع، على كبار القادة الالمان الشرقيين، يحضرها بين الحين والآخر، أطباء سوفييت مشهورين لدعم الألمان، بجهد طبي سوفييتي، لتعميم المنفعة العلمية الى جميع دول حلف وارشو، لا يستغرق الطريق اليها من السفارة، سوى دقائق لا تزيد عن الخمسة في أسوء الأحوال. سيارات الاسعاف لا تتأخر في الوصول اليها، فالنظام المروري، أعطى لصفيرها قوة خرق، لبعض سياقات السير عند الضرورة، وألزم سائقو السيارات الآخرين والمارة، بالتنحي جانباً، وفسح المجال لها بقوة القانون.

تمسكُ ساعتها. لم يفارق نظرها تلك العقارب التي تدور مستمرة. عدّت سبع دقائق، وفي بداية الثامنة أتصلت بالمستشفى. تأكدت من الوصول، اطمأنت من إنه سيلقى الرعاية الكاملة، ويحصل على العلاج اللازم، وسيعود في القريب. سيعود حتماً، جسمه قوي يتحمل هجمات الزمن الطارئة، أيا كانت، هكذا تظن.

وجهها الجميل بات مسترخياً رائقاً، لا تظهر على قسماته المرسومة بإتقان، أية معالم خوف اضافي. ومع هذا الوسع في الاطمئنان، فقد استسلمت بعد عودتها الى المكتب لبعض أفكار مزعجة، أخذت تمررها من دون سيطرة على انبعاثها سيلاً من خلايا العقل الباطن، حتى لم تعد قادرة على رفع سماعة الهاتف، التي عاودت الرنين.

***

قبل توجهه الى البيت القريب، وقبل أن يخطو خطوته الأولى نحو الباب الرئيسي للسفارة، عاد السفير شكري الى التلفون كمن نسيّ أمراً. طلب السكرتيرة نهى مرة أخرى على هاتفها الخاص، في المكتب المزين بباقات ورد طبيعي، وزعته بيدها على مزهريات من الكريستال البوهيمي غالي الثمن، امتثالاً لهواية نثر الورود، وعشق ألوانها الحمراء.

أبقى جرس الهاتف فاعلاً، كمن يتعمد ابقائه وسيلة ضغط حتى تجيب، وقد أجابت في آخر المطاف تحت ضغط الرنين المتواصل، سألها بشكل مباشر، فيما إذا تم استدعاء "أبو نداء" الى وزارة الخارجية في بغداد؟.

ردت بصوت كئيب ساخر عالي النبرات، لم تصلنا أية برقية، ولا أعرف شيئاً عن الموضوع.

توقف عن الكلام، كأنه لم يتوقع الإجابة، ولمدارات حرجه من صيغة السؤال المباشر، سألها عن تطورات الوضع الصحي للسيد السفير.

جوابها الواضح، زاد من شدة اكتئابه بعد أن جاء على عكس الرغبة الماثلة في داخله، من أن يكون طارق مع قائمة السفراء الذين تم استدعائهم الى بغداد، ضماناً للاطمئنان على السلامة باعتباره صديقاً للرئيس، وقريب من المفاصل العليا لإصدار القرار. وبما انه جواب لم يكن متوافقاً مع الرغبات الخاصة في داخله، فقد اسهم بتسرب الشك الى نفسه المتوترة. لحظتها تمنى لو لم يصب صديقه بالذبحة القلبية، لأعانه على التفسير، وان لم يرد اسمه في قائمة الاستدعاء، لأنه قادر على التفسير، بحكم موقعه في الحزب، وعلاقاته الجيدة مع غالبية الكبار.

تأخذه الخطوات البطيئة الى باب السفارة، كأن الخوف يبطئ خطاه. لم يطلب السائق الذي اعتاد ايصاله الى البيت، تعمد الذهاب مشياً على قدميه، التي أحس تنملاً في نهايات أصابعهما كمن جار عليهن بالمشي حافياً عدة أيام. واصل السير في الشارع المشهور بعلو أشجاره. التفت الى اليمين ومن بعده الى الشمال. تأمل الأشجار المتعانقة أغصانها على الجانبين. حاول النظر الى الشمس في الأعلى، تراءى له بصيص من اشعتها، قد تسلل خجولاً من بين الأغصان المتشابكة، الى الأرض المرصوفة بالطابوق الأحمر. دقق في علو الأشجار وجمالها، وتشابك أغصانها أكثر من مرة، كمن يفكر باحتمالات مفارقتها الى الأبد. نظر الى الأوراق التي كانت تتساقط من تلك الأغصان، تخيلها أرواحا مكتئبة تسقط من علو في نهار مثل هذا الذي لا ينتهي.

***

المستشفى الألماني خاص. الفحوص تجرى بشكل خاص، تشمل مساحة الجسد المتهالك من شدة الألم. تُبّتت في أعلاه وصلات أسلاك، لقياس الضربات المتسارعة للقلب، وإعادة التخطيط بجهاز أكثر حداثة، وقد وضعت على الأنف كمامة استنشاق، خاصة بالأوكسجين النقي. ولمزيد من الاهتمام، أوفدت وزارة الخارجية الالمانية الدكتور "ديتريش" أحد كبار أخصائي القلب في برلين، ليكون مشرفاً على العلاج في محاولة منها، اعطاء رسالة الى الحكومة العراقية، تتماشى ورغبتها في ادامة العلاقة القوية مع العراق، وربما مع الرئيس الجديد للبلاد، الذي تضعه في عداد الاصدقاء

الشخصيين للرئيس هونيكر، السكرتير الأول للحزب الشيوعي الألماني الحاكم.

يعقد الدكتور "ديتريش" حال وصوله المستشفى اجتماعاً طبياً تشاورياً. استعرض فيه نتائج الفحوص والتحاليل. أثنى خلاله على طبيب الإسعاف، لسرعة الاستجابة الى مكالمة السفارة، ودقة التشخيص "ذبحة صدرية ناتجة عن ارهاق عصبي شديد".

مسك صفحته الطبية، كتب فيها توصية بنقل المريض الخاص، الى غرفة العناية المركزة، لثلاثة أيام يستعيد فيها عافيته، ومن بعد، يبقى أسبوعاً تحت الرقابة الصحية في المستشفى ذاتها، بجناح القادة الرقم (2). وقبل أن يغادر، أعاد على مسامع الحضور اهتمام اللجنة المركزية للحزب والرئيس، بالعلاقات الواعدة مع العراق، الذي كان سباقاً في الاعتراف بدولتهم عام 1970.

بقيت نهى من جانبها مقيدة في مكتبها بحزمة قلق، زادت شدتها بعد استفسار السفير شوكت، عن موضوع الاستدعاء الى الخارجية في بغداد، فتشتت تفكيرها باتجاهات عديدة. تذكرت متأخرة، التزامها عرفاً بإبلاغ السيدة حرم السفير بما جرى، فطلبتها على الهاتف الخاص بالبيت، سلمت قائلةً:

"أم نداء"، مساء الخير. فجائها الرد على الفور، أهلا نهى مساء النور.

تعثرت نهى في الكلام، امتد صمتها المثقل بسَكينّة المكتب، وسكون الهواء، حاولت استجماع قواها، تعرفُ حرم السفير سيدة عاطفية، تحبُّ زوجها بإفراط، لا تريد اخافتها، ولا تقوى على كتمان ما حصل، تعتقد جازمة انها ان لم تعلم منها مباشرة، ستعلم

من الآخرين، وربما من السيد السفير حال استفاقته، وستكون بموقف حرج، لا تريد الوقوع في قاعه العميقة.

شعرت "أم نداء" أن نهى قد سكتت قليلاً، فسألتها أين ذهبت، فأجبت:

عفواً اني أسمعك. وددت أن أخبرك أن وعكة صحية بسيطة قد المت بالسيد السفير، وقد نقلناه الى المستشفى الخاص للاطمئنان.

غاصت السيدة حرم السفير في صمت، وكأنها وجدت نفسها فجأة، وسط ظلام كهف عميق. لم تصدق بداية، أو ان المفاجأة أسكتتها عنوة، فتوارت في الصمت أكثر نحو البعيد.

سألتها نهى فيما اذا كانت باقية على الخط، وأعادت التأكيد من أن المسألة بسيطة. انها مجرد ارهاق ناتج عن العمل. هكذا قال الطبيب الذي صحبه في سيارة اسعاف، مجهزة بكل اللوازم الطبية، للإشراف على حالته في المستشفى الرئاسي الخاص. وبعد أن أتمت الحديث زاد تيقنها من أن "أم نداء" لم تقتنع بكلامها، أو أن حالتها اقتربت من وضع الاغماء، فعاودت وصف الحالة بالإرهاق البسيط، في سعي منها التقليل من الأثر النفسي للخبر المفاجئ. وعند التأكد من استمرار توقفها عن الكلام، أضافت أمام صمتها المقلق قائلة:

عزيزتي، المسألة ليست كما تتصورين.

انتظري في البيت سنذهب معاً الى المستشفى.

لقد حضر السائق الان، ركن السيارة أمام السفارة، أنا قادمة حالاً، أرجوك أهدأي.

***

بغداد هي الوجهة

لم يهدأ السفير شكري طوال الطريق الى مسكنه، ولم يتوقف سيل الأفكار في داخله، حتى كاد القلق الغامر يخرجه عن المألوف، حسه المرهف لا يألف المفاجئات، والاستدعاء الى بغداد بهذه السرعة، أكبر المفاجئات التي لا تؤتمن نتائجها.

عبءٌ تشكل ثقيلاً على نفسه، سعى تحت تأثيره الى مد قوس المعرفة الخاصة بالاستدعاء، الى خارج السياقات الدبلوماسية، متوجهاً الى الزوجة، قاصداً محاورة عقلها النبيه عن دوافع الاستدعاء، وفيما اذا كان يحمل في طياته مضامين أخرى تعزز الشكوك، فأعطت وجهة نظرها بصيغة نفي للشكوك، ووضعت بدلها احتمالات كونه آتياً من بروتوكول، يتعلق بمقابلة رئيس الجمهورية الجديد كما هو مألوف. نفيٌ لم ينفع في ازالة تلك الأفكار، التي راحت تغزل في رأسه، توقعات عن الاستدعاء أقلها، إنهاء خدماته كسفير أو... ولما سرحت هذه الأفكار الكئيبة في رأسه، أستبعد أن تكون المقابلة سبباً في ظروف تنازل صوري عن العرش، من الرئيس الى نائبه في دولة تدعي الديمقراطية. وفي لحظة الاستبعاد هذه، رأت في عينيه السوداوين إرتياباً شديداً. حاولت تخفيفه مبديةً رأياً آخر، إعتقدته كافياً للتخفيف، فقالت، أجزم أن الاستدعاء لا يتعلق بك وحدك، وبالتأكيد هناك آخرين قد استلموا برقية مثلك، تطلب حضورهم الى بغداد. ثم لِمَ تفترض الأسوأ في هذا الموضوع؟. قد

يكون هناك توزيع للمناصب بعد اكتشاف المؤامرة، واستلام السيد النائب رئاسة الدولة. شخصيته تحتم القيام بتغيير الطاقم الى آخر من الشباب القريبين لعمره، ينسجم واياهم في العمل، منصب وزير الخارجية يليق بك، وأقله وكيل الوزارة، بالنسبة لي أفضلُ أن تبقى سفير، لقد اعتدنا حياة الانفتاح، حتى أفكر أحيانا بصعوبات العودة الى تلك الأيام، التي تمتلأ بالشك ومراقبة الانفاس، واشبه حالنا بالسمك الذي يموت، عند الخروج من الماء.

الماء هنا على اية حال.

خاتمة تطمين أردفتها بسؤال، لِمَ نستكثر عليك هذا، وأنت من أوائل الحزبيين المخلصين؟.

يهدأ قليلاً، كأنها دفعته باتجاه آخر غيّرَ من نهج التفكير المليء بالشكوك. اتجاه مختلف، لا يحوي أي من تلك الشكوك، بل وفيه أمل وقدر من المعقول. لكنه لم يسقط من حساباته تماماً، بعض المفاجئات غير السارة، فالعراق بحسب رأيه حمال أوجه ومفاجئات، مسيرته جلها مفاجئات.

هنا بالذات قطعت هدوئه المؤقت باقتراح، الاتصال بمعارفه من السفراء الآخرين غير طارق، الراقد في المستشفى، ذكرتّهُ بالسيد حليم السفير القائم في السنغال، فهو أيضا عسكري مرموق، وله علاقات واسعة في بغداد.

تجاوب معها على الفور بعد أن وجد في اقتراحها منفذ معقول. سأل نفسه، كيف لم يتنبه اليه من قبل؟.

مسك سماعة الهاتف، طلب صديقه السفير حليم، ومن فرط القلق دخل مباشرة في الحديث قائلاً، "أبو أسامة" هل لك علم

بموضوع الاستدعاء الى الخارجية للتداول بأمر هام؟. فرد عليه بطريقته الساخرة، يا أخي، إلقي السلام أولاً، واسأل عن أحوالي مقيم في هذا البلد، أعيش متجولاً بعشر دول أفريقية، مبعثرة على جغرافيتها العجيبة.

رد شكري ومازال القلق يتملكه بشدة، الآن نحن بأي حال وأنت تخلط الجد بالهزل.

لم يتركه حليم هكذا قلقاً بانتظار الاجابة، أكد علمه بالاستدعاء، وأكد وصول برقية صباح هذا اليوم، وأضاف، أزيدك علماً أن منطوقها ذاته، وصل حامد الدليمي في نيجيريا، وجعفر الذهب في أوغندا، وحسب علمي غالبية السفراء. ثم ان المعلومات ينبغي أن تكون في جعبتك، أخاك محمد كان وكيل وزارة يعرف كل المسؤولين، والأصغر يمسك الاعلام في لندن، وهو قريب من الجماعة. فأجابه أن أخاه لم يرد على الهاتف. ثم ان جميع الهواتف مغلقة كأنها مقطوعة، وكأن هناك قصد بقطع الاتصال مع الخارج.

وعندما سأله فيما إذا سمع شيئا عن طارق، الذي نقل الى المستشفى بعد اصابته بذبحة قلبية، كما تقول السكرتيرة. أجابه، نعم لقد علمت منها، إثر محاولتي الاتصال بعد استلام البرقية مباشرة. لقد أخبرتني بتفاصيل نقله الى المستشفى بسبب الذبحة. طارق قوي، وجسمه جسم رياضي، أتعجب كيف داهمته الذبحة مبكراً، ومع هذا لا تخف عليه، له سبع أرواح.

وقبل أن ينهي شكري حديثة، طلب من حليم اخباره عن المستجدات التي قد تحدث، فالقلق بات يهرسه من الداخل، وهو غير مطمئن لهذا الاستدعاء.

نعم سأبلغك عن أي جديد أسمعهُ قال حليم، وسأل عن أسباب القلق من موضوع أقرب الى أن يكون طبيعي.

وزارة تستدعي سفراء!. ما الجديد في الأمر؟.

الجديد قال شكري، هذا الغليان الحاصل في بغداد.

المؤامرة التي ملأت أخبارها العالم.

الاعتقالات التي جرت، وتجري لعشرات الحزبيين الكبار، فقط الكبار.

رد حليم باسلوب يريد بواسطته اسباغ جو من السخرية الجادة، على موضوع الحديث المقلق، قائلاً، أحمد لله أني لست من الكبار.

ما شأننا والكبار؟.

هم متآمرون ونحن سفراء في الخارج.

لماذا الخلط بين أمرين؟.

هل تعتقد أن الدولة تترك متآمراً على سلامة وطنه طليقاً؟.

أخبرني هل لك علاقة بالمؤامرة؟.

أخشى أن يكون أحد منهم قد أتصل بك من قبل، وتتوجس خيفة من انكشاف السر.

أي مؤامرة، وأي سر تتكلم عنه؟، قال شكري، واستمر في القول، تأملتك عوناً في مسألة التفسير بكونك ضابطاً سابقاً، وكاتباً ضليعاً بالتحليل، فوجدت في سخريتك زيتاً، يُسكب على نار في داخلي الملتهب.

فكان رد حليم عتاباً على قلق ليس في محله، ونصحاً في آن معاً، قائلاً، لقد حيرتني حقاً. من يراك بهذه الحال القلقة لا يأتي على باله

سوى، أنك خائف من انكشاف علاقتك بالمؤامرة، أنصحك التقليل من هذه الوسوسة.

لكن شكري الذي يعيش فعلاً تحت مستوى من القلق الشديد، لم يأخذ بنصيحة حليم، وعلى العكس اتهمه بالجهل تماماً بما هو عليه، وأستهزأ من أفكاره، وأكد انطباق المثل العراقي على آراءه "عرب وين وطنبورة وين"[1].

رد حليم بالسخرية ذاتها، طالباً التوقف عن الشك، وضرورة شد الرحال الى بغداد، حيث اللقاء على شاطئ أبي نؤاس، وتناول السمك المسكوف الذي يحبه، مؤكداً أنه قد حصل على حجز الى باريس يوم غد، ومن بعده بليلة سيغادر الى بغداد، وان اللقاء الأول سيكون في الوزارة حتماً، ومنها الى أبي نؤاس.

***

(1) المثل هو عن رجل بدوي كانت له زوجة تدعى "طنبورة"، وكانت خرساء، طرشاء، وكان زوجها قد اتفق معها على بعض الاشارات مع دلالاتها، ومن تلك الاشارات، إنه اذا ما فرش عباءته على الارض، فإنه يريد منها قضاء حاجته الجنسية، واستمر هذا شأنهما مدة من الزمن. وذات يوم هطلت امطار غزيرة، أغرقت بعض بيوت الشعر، عندها قرر أهل الرأي نقل أمتعتهم الى تل بقرب مضارب العشيرة، فأسرع الزوج الى خيمته، وفرش عباءته ليضع بها بعض امتعته الهامة لنقلها الى التل، وما ان فرشها حتى استلقت طنبورة عليها، وأخذت وضعا لاتمام العلاقة الحميمية معه، كما تعودت من قبل، فصرخ بها، صرخة قوية طالباً منها النهوض من فوق العباءة، إلا ان طنبورة بقيت مستلقية رغم تكرار صرخاته، وأخيراً اضطر لحملها من فوق العباءة، ثم قال هذا القول "عرب وين طنبورة وين" الذي ذهب مثلا، يضرب عن سوء فهم الموقف، والاستخفاف به، وكذلك لمن لا يعي ما يقال له.

سمح الطبيب الى حرم السيد السفير، مشاهدة الزوج الملفوف بأسلاك المتابعة العلاجية، من فتحة زجاجية جانبية حال مروره، وكتابة بعض الملاحظات على الصحيفة الطبية، المثبتة أعلى الجزء الأمامي من السرير.

رأته وقد غطَّ في نومه، كمن فقد الوعي تماماً، فقيل لها من أثر المهدئات التي تناولها، مع أدوية مُمَيّعة للتجلط الدموي.

حاولت الالحاح بالدخول على الطريقة العراقية في مثل هكذا مواقف، منعها ممرض، أنتُدبَ لأن يكون واقفاً في الباب، خصيصاً لتنفيذ مهمة منع الزيارات. طلب منها الانتظار ساعتين، حتى حلول موعد الفحص القادم من قبل الاخصائي "ديتريش"، الذي يقرر وحده إمكانية تنفيذ الزيارة المباشرة من عدمها.

انتظرته قلقة حتى فاق من غفوته الاصطناعية، وتلاشى في داخله الألم، واسترخى جهازه العصبي بعد شدٍ وصفه الطبيب، بما يفوق المعقول.

غير المعقول، أن يغفو الحبيب بهذه الطريقة، وهي باقية مشلولة، غير قادرة أن تفعل شيء.

العالم من حولها قد أنتهى، لم يعد بالنسبة لها يمثل أي شيء.

ساعات قليلة هي التي قضاها راقداً، تماثلت في مشاعره المبعثرة كالسنيين، وتماثلت لها عقود من السنين.

يحضر الطبيب المختص في موعده، يجري الفحوص المطلوبة، فيقطع وصل التوتر الجارف، ويسمح للزوجة بزيارة قصيرة لا تتعدى الدقيقة الواحدة، مع امكانية زيادتها خمس أخرى في المساء، إذا ما أظهرت الفحوص استقراراً ملموساً في الحالة الصحية التي لم تستقر بعد.

زيارة الدقيقة الواحدة لا تكفي، لإخفاء الدموع التي لم تنقطع منذ سماع الخبر، كأنها سيل جارف. اكتفت بتقبيل يده اليمنى، بأسلاكها الموصولة بعدة أجهزة في غرفة الانعاش، طالبةً ألا يتركها وحيدة والبنات، فهي لن تستطيع العيش بدونه.

دنت منه وبصوت خفيض قالت:

الله لو أمكن استبدالي بك راقدة على هذا السرير، لما حزنت.

لو خيرني القدر تلقي الاصابة عوضاً عنك، لما توانيت.

ربي اجعل يومي قبل يومه، واجعلني خادمة له، ما حييت.

آه لو تقبلني المستشفى ماكثة عند قدميك، حتى تتعافى، لبقيت.

عهدتك قوياً، وستبقى قوياً بإذن الله، وستعود أباً وحبيباً الى القلب كما كنت... نحبك بجنون.

يشد بيده الموجوعة على يدها الواهنة.

حاول الابتسام بوجهها الجميل، فجاءت ابتسامته باهتة بوضوح، مثل مفجوع يجامل سفيها في موقف عزاء.

***

هل حجزت تذكرة؟. سؤال وجهه حليم في اتصاله الهاتفي مع السفير حامد قبل الظهر. فأجابه ما زلت أفتش عن مكان بطائرة تتجه الى لندن، ومنها الى بغداد، لم أفلح بعد، لشدة التزاحم على أماكن خط الطيران هذا، يبدو أن موسم السياحة نشطاً هذه السنة، وفي هذه البلاد التي يؤمها الأوربيون للصيد صيفاً.

لماذا لندن بالذات؟.

لأن الدولة هنا مستعمرة بريطانية، وخطوط الطيران في غالبـــها تمر عبر لندن، والسنغال مستعمرة فرنسية، فخطوط الطيران منها عبر باريس، هكذا وضعت المنافذ والخطوط في الأصل.

لم التقيد بهذا الخط المزدحم؟. يمكنك الحصول على مكـــان، في أحد الطائرات المتجهة الى باريس، ولو عبر دولة أخرى، ومنـــها الى بغداد، كما فعلت أنا.

كانت الفكرة جيدة، أيدها حامد، ووعد الطلب من السكرتير تنفيذها، وسيقوم بابلاغه التفاصيل لاحقاً.

لقد حجزتُ لي غرفة في فندق الكونكورد، وسط باريس قريباً من البرج، قال حليم وأقترح قيام حامد بحجز واحدة له في الفنـــدق نفسه، ليتسنى اللقاء، وانتظار صديقهما المشترك، العميد عامر يأتيهما بعد انتهاء يومه ملحقاً عسكرياً، حسب الوعد الذي تم بينهما هاتفياً، لقضاء ليلة قد تكون الأخيرة من يدري.

ماذا تقول؟. سأل حامد بقدر من التعجب، فأجابه وما شأنك بقولي، أنا لا أعرف لِمَ هذا الاستدعاء، وما هو المستقبل في بغـــداد التي تغلي مثل مرجل يرمى تحته فحماً ليستمر الغليان. فأثار قوله هذا قلقاً شديداً في نفس حامد، دفعه لأن يعلق بـــالقول، كنـــت قبـــل ساعات غير مهتم لأمر الاستدعاء، على العكس من كلامك هـــذا، الذي وضعني في دوامة توتر، أدارت لي عقلي الذي بقيّ في حومـــة الدوران، مثل نواعير أهل الفرات، ودفعتني إلى تيه كمـــن أصـــيب بالفصام. وعموما، أتأمل تحسن صحة طارق، ليتسنى لنا الاتصال به قبل المغادرة الى بغداد، فهو الأقدر على معرفة الـــدوافع الحقيقيـــة، باعتباره محسوباً على السيد الرئيس. إنه يعرف الكثير مـــن خبايـــا

الأمور في مثل هكذا ظروف، لقد حيَّرتني اصابته بالذبحة، حتى بدأت أسأل نفسي فيما إذا سمع شيئاً، أوقعه في هذه الغمة التي قيل انها نتجت عن شد عصبي، أم إنها جاءت ناتج عرضي عن أحداث الأمس؟، حاولت "أم ماجد" الاستفهام من "أم نداء" عن بعض الامور، كما تعرف انهن صديقات من أيام عملنا الحزبي المشترك في كركوك، لكنها لم تفلح لعدم وجودها قرب الهاتف. أغلب الظن أنها في المستشفى. وقبل انهاء كلامه سأل، ألم تستغرب وجودي أنا وأنت في برقيات الاستدعاء، وكنا جميعاً حزبيين في تنظيمات عسكرية واحدة؟.

وألمْ تستغرب أيضا بقاء طارق المسؤول المباشر لنا، في غالبية تلك التنظيمات خارج دائرة الاستدعاء؟.

انها مقاربة لم تخطر على بالي، قال حامد وختم حديثه واعداً باعلامه التفاصيل، حال الحصول على التذكرة، آملاً أن يكون اللقاء في باريس.

جعفر الذهب، السفير العراقي في أوغندا، عضو فرع في الحزب، تعيّنَ مثلهم سفير في الوقت ذاته الذي عينوا فيه، معروف بهدوءه وجرأته وعدم قبوله الانحراف عن الطريق الصحيح، ناقد بصوت مسموع. استلم مثلهم برقية الاستدعاء صباح اليوم، علق عليها بقلم حبر أخضر" السكرتير اتمام اجراءات الحجز على الرحلة المتجهة الى بغداد، يوم الجمعة القادم واعلامي". وبعد إتمام التعليق، وإعادة البرقية مع باقي البريد المعروض، أتصل بالسفراء حليم وحامد، وفشل في تحقيقه بالسفير طارق، لم يولِ اهتماماً للاستدعاء، اذ وكلما سأله أحدهم عن هذا الموضوع، أجابه بعبارة لم تتغير، اتركها على الله،

أمام العراق طريق طويل، وأمامنا كثير من المهام، عسانا الحفاظ على الحزب قائدا لحكم البلاد.

سأله حامد عن أسباب التأخير الى يوم الجمعة؟. فأجابه، إن الدنيا لم تنتهِ بعد. لم الاستعجال؟. سنلتقي هناك في بغداد، لو أن طارق لم يمرض، ولو أنه قد استدعيَّ مثلنا، لكانت فرصة لقاء فريدة في بغداد، يالها من فرصة لقاء ستكون تاريخية حقاً.

سأله حامد مرة أخرى، لماذا لم تأتِ الى باريس، ومنها ننطلق معاً الى بغداد مع حليم، فأخبره عدم الرغبة بالذهاب عن هذا الطريق، وانه يريد التوجه الى بغداد مباشرة، بخاصة وان ليس لديه القدرة على تحمل وجع الرأس، ثم ان الخارجية ستعترض على صرف فروقات التذكرة عبر أوربا، وهو لا يملك ثمنها في الوقت الحاضر.

***

تقترب منه حذرةً بعد الايذان لها بزيارة الخمس دقائق، من دون أن يسمعها أحد، أو يسجل كلامها جهاز تسجيل، خاصة وان محطة المخابرات في السفارة، قد حذرت في تعاميمها السابقة من الوثوق بموظفي هذه الدولة، المعروفين بانغماسهم في التنصت، والتسجيل حتى في المواقف الخاصة، وبعد أن أبتلعت حذرها غير المبرر، بكت بحرقة ثم سألته عن الحالة التي أكد الاطباء عائديتها الى ارهاق عصبـــي.

لماذا أنت عصبـــي يا حبيبـــي؟. كل شيء في جوارك نعمة، يحمد عليها الله سبحانه، بناتك من حولك، أنا قريبة منك، صديقك أصبح رئيساً، لم أعهدك من قبل عصبياً، أنت أكبر من أن تقتل نفسك.

قتل النفس حرام، الضعفاء يقتلون أنفسهم، الأقوياء يواجهون الصعاب مثل الجبال، أنت واحد من هذه الجبال.

أجابها وهو يتابع صوت الصفير في صدره، وأنفاسه المتسارعة، انه العراق... إجابة شجعتها على القول بثقة عالية من أن العراق بخير، ثم سألته، ألا يكفي حلول الشباب محل الشيوخ في تحمل المسؤولية؟.

وألا يسعدك وجود السيد النائب صديقك القريب، رئيساً للجمهورية؟.

فعاود الكلام بوتيرة الصوت النحيف الخافت، قائلا، أن الألم الذي يعصرني آت من خسارة مجموعة من الرفاق، قال عنهم معاون رئيس المخابرات في مكالمته صباح اليوم، أنهم قد اعتقلوا بسبب مشاركتهم في المؤامرة، التي استهدفت الحزب والثورة، لقد تفاجئت، بل أُصبت بالرعب من ذكر أسماء بعضهم.

لماذا يتآمرون وهم قادة الحزب الفعليين؟.

لماذا يسلكون مثل هذا السلوك الخطير، وهم صفوة الحزب، مفكرين ثوريين؟.

إني أتألم كثيراً، فغالبية الرفاق الذين ذكرهم أصدقاء، أو من الذين عملت واياهم معاً، جميعهم جيدين، بل الأجود في الكادر المتقدم للحزب، لقد بات الأمر حبيبتي شديد الالم، كأنه الفأس التي تهوى على الرؤوس.

عند هذا الحد تدخل الممرض المعني بمنع الزيارات، وربما المسؤول عن تأمين الحماية الأمنية للسيد السفير، بعد أن أشّرَت الأجهزة المربوطة بالجسم، ارتفاعاً ملحوظاً بضربات القلب، معلناً بلوغ الخمس دقائق، ولزوم انهاء الزيارة على الفور.

مسكت يده مودعة، كمن يودع حبيباً في طريق الهجرة. نزلت الدموع على خديها بغزارة، تركت أثراً واضحاً، حاولت إخفائه، ثم قالت، لا تتركني.

وجودك منحني الحب، والحنان، فلا تتركني.

قلبك المريض كان لي مسكناً، فلا تهد مسكني.

سأغادرك مجبرة، وابقي لك روحي كي تطمأنني.

البيت من دونك، أرض قاحلة، لم يعد فيها معناً لوجودي.

لا تتركني في هذه الدنيا وأنت وحيدي.

وقبل أن تغادر، انحنت على يده، قبلتها من دون أن تلتفت الى وجهه، الذي لا تريد أن تراه ضعيفاً.

***

كانت عودة السفير شكري الى بيته مبكرة على غير العادة، وبعد إكمال جولة النقاش الأولى التي حاولت الزوجة فيها تهدئته جهد الإمكان، إتجه هو لتبديد قلقه بالاستماع الى الموسيقى، وأخذ قسط من الراحة، لكنه لم يتمكن، كان مثل مصاب بالحمى وسط صحراء.

نهض من مكانه.

عاود الجلوس الى جانبها على الاريكة داخل الصالة الواسعة.

استمرا بتبادل الدور الحواري، لتبديد القلق الآتي من وقع الاستدعاء.

سألتهُ عن حقيقة ما يجري في بغداد، وهل حقاً هناك مؤامرة؟.

تلكأ في كلامه، كأنه لم يستوعب الموقف حتى الآن، توجه الى التلفاز، فتحه على قنوات غربية، زادت من تلك الضبابية التي

أحدثتها الصدمة أمام عينيه السوداوين، فما يتسرب أو يسربه الاعلام، انقلاب في بغداد، واعتقالات شملت قياديين كبار. أما هي فقد أخذت الهاتف بيدها، وأدارت القرص على رقم شقيقها الخاص، في مكتبه بالقيادة القطرية، وعندما فشلت تحولت على رقمه الآخر، في البيت ففشلت أيضاً. بعدها حاولت الطلب عن طريق بدالة خاصة، فأكد لها الموظف المختص قطع الاتصالات من جهة بغداد.

طلبت منه، وكخيار احتياطي، أن يؤجل تنفيذ الاستدعاء، يؤخره قليلاً حتى يتبلور الموقف تلقائيا، اقترحت دخول المستشفى بغية الحصول على سبب طبـــي للتأخير، بعد أن بدت علامات الإرهاق واضحة على هيئته العامة، مؤكدة في كلامها أن الوزارة ستتفهم الموقف المرضي، وستقبل التأجيل الى حين تحسن الوضع الصحي. وعندما لمست عدم تفاعله مع طلبها قالت، قلبـــي ورغم كل التوقعات، غير مطمئن تماماً، دعنا ننتظر أيام قد تنجلي هذه الغمة وتتوضح نتائج الأقاويل، وإذا لم تقتنع بالانتظار، يمكنني الذهاب هذا اليوم الى بغداد، والاتصال بشقيقك وشقيقي للتعرف منهما عما يجري وعن أهداف الاستدعاء.

ما الذي بدّلَ رأيك؟. وقبل قليل كنت متأملة إمكانية الحصول على منصب أرفع، قال شكري فأجابته على الفور، لا أعلم حقاً، لكن وقع الحدث، وما ترشح عنه، بات يقلقني أنا ايضاً. فحاول من جانبه تهدئتها بالقول، حبيبتي لا يمكنني التأجيل.

أنتِ تعرفين شيئا وأنا أعرف أشياء، الرئيس لا يتسامح، طبعه شكوك، قد يفسر التأجيل رغبة في عدم الحضور، قد يضع من عنده أشياء في غير صالحنا، إنه في موقف صعب، هناك مؤامرة، ولا أريد

أن يقال عني تأخرت عن الحضور أو خفت، وتماهلت في الالتحاق، الموقف أصعب مما تتصورين.

عند هذا الرأي والقرار، تحول من شخص يريد دعماً لقراره في تلبية أمر الاستدعاء، وتخفيف وطأته على النفس، الى آخر يحاول التخفيف من شكوك زوجته واقناعها، بأن ما يجري مسألة عادية، كذلك تريد هي من جانبها، تبديد الشكوك المسيطرة عليها وعليه معاً، فبادرت الاتصال بالسيدة "أم نداء"، ظانة امكانية قيامها، بتنويرهم عما يجري، فزوجها قريب من أصحاب القرار.

أدارت قرص الهاتف بانفعال واضح، كمن له أعصاب أخرجها توا من الثلاجة. بدأ الرنين متتابعاً، وحالما بدأ، سلمته السماعة، طالبة التكلم أولا.

إسأل عن حال طارق في المستشفى، أخبرها عن محاولاتك الاطمئنان عن صحته الغالية عليك، واتصالك السابق بالسكرتيرة، وبعد أن فعل، أخذت منه السماعة وأكملت هي الحديث عن المستشفى والتمنيات، عرجت قليلا على بغداد والاستدعاء وما يجري هناك، فحصلت على اجابات شكر مختصرة، كأنها تريد انهاء المكالمة، فقلبها موجوع لا يتحمل الاطالة.

وضعت سماعة الهاتف في مكانها، وعلقت بالقول، طبعاً من كانت يداه بالنار غير من كانت في العسل.

سألها عن القصد، فأجابته أنك أعرف بالقصد، فاتجه الى قطع الحديث، لا يريد التحدث عن صديقه المريض بهذه الطريقة.

طلبت من الخادمة الفلبينية أن تجلب الشاي الى مكانها على الكنبة، التي تجلس عليها في الركن الجنوبـــي من الصالة الواسعة.

وهي في الطريق لإحضار الشاي، رن الهاتف بنغمته العادية.

رفعت السماعة، سلمتها الى السيدة حرم السيد السفير، التي تكلمت بلغة مجرية بسيطة، تفضلوا أنا حرم السيد السفير.

بادرها المتكلم بالتحية، والاستفسار عن أحوالها كما هي الأصول، وسألها بلغة عربية فصحى ان كان بالامكان التكلم مع سعادة السفير، ولتجاوز احراجها بعد تأكده من عدم معرفتها شخصه، عرفها بنفسه، أنا مايكل من وزارة الخارجية المجرية، أود مكالمة سعادة السفير، لم أتمكن من التكلم معه في مكتبه بالسفارة، قيل أن سعادته قد اتجه الى البيت.

شكرته على السؤال بلغة دبلوماسية جيدة، وأعطت السماعة الى شوكت.

لم يناور في كلامه السيد مايكل، مدير قسم الشرق في الخارجية المجرية، كأنه لا يملك وقتاً للمناورة، أراد أن يسدي خدمة خاصة لصديقه السفير، الذي تربطه واياه علاقات خاصة تجاوزت حدود الدبلوماسية.

سلم بطريقة مهذبة فيها مسحة صداقة، دخل في صلب الموضوع مباشرة، نصحه بعدم السفر الى بغداد في مثل هذه الايام التي تضج بالمفاجئات.

ضحك السفير ضحكة مصطنعة، لأنه في وضع يصعب فيه الضحك... ضحكاً تلقائياً قال بعد الانتهاء منه:

مايكل لم أكن أعلم أن للمجر قدرات فائقة، للتجسس على البريد الدبلوماسي المشفر فأجابه على الفور، أني جاد بكل معنى الكلمة، حيث لم أكن جاداً مثل اليوم، لسنا يا صديقي بصدد

التجسس من عدمه، لدينا معلومات مؤكدة، من أن العراق يمر بأزمة لا تُعرف أبعادها، هناك قرابين ستقدم من الحزب الذي يحكم البلاد، ستفتح أبواب على العراق، لا أحد يستطيع غلقها.

أعاد النصيحة بضرورة التريث، قائلاً، لماذا الاستعجال؟. هناك كثير من التبريرات يمكننا إخراجها، لتأخير تنفيذ الاستدعاء.

يسكت قليلاً ثم يعاود الكلام، ما رأيك أن نعمل لك لقاء هام بالرئيس بعد أيام من الآن، يمكنك تحديد الوقت الذي تريد، وأنا من جانبـــي سأسعى الى تنفيذه بدقة.

رد السفير على هذه المكالمة المهمة شاكراً، مؤكداً العودة الجازمة بعد أيام، ومعه التمر العراقي الذي يحب، لكن التمر هذه المرة سيكون بَصرياً، لأنه النوع الوحيد الذي ينضج في النصف الثاني من شهر تموز... مكالمة لم تثنه عن المغادرة، زادها الوقت الجاثم بطيئاً اصراراً على التنفيذ السريع، وكأن الانتظار أصبح عبئاً ثقيلاً عليهما معاً بطريقة تحول دون أي تأخير، عليه إضطرت الزوجة أن ترضخ للأمر الواقع صاغرة، فهي وان كانت قوية وقريبة الى قلب زوجها، لكنها لا تتدخل في عمله، ولا تريد أن تتحمل أعباء مسؤولية لا تعرف أبعادها.

***

حوار على متن الطائرة

تعيش بغداد استنفاراً كأنها في حالة حرب مع عـــدو مجهـــول، ومثلها وزارة الخارجية التي وجدت نفسها في ليلة وضحاها وســـط توتر متعدد الاتجاهات، يقترب من حالة الحرب.

استدعاءات شملت جل السفراء، واشاعات زيّدت من عدد الأسماء المشاركة في المؤامرة، وتسريبات الى وسائل الاعلام، لم يعد أحد قـــادر على ضبطها، ومحطات مخابرات في الجانب المخفي البعيد، تنشط داخـــل السفارات، تتابع موضوع الاستدعاء الفوري للسفراء، تراقب حركتهم بل وأنفاسهم، تخشى أن يتمرد أحد منهم على أمر الاستدعاء، ومن فرط الخشية حصلت على تخويل هاتفي من الرئيس الجديد للجهاز، بحتميـــة التصفية الميدانية، لمن يلمس سيره بهذا الاتجاه. برقيات تتكدس في المكتب الخاص لرئيس الجهاز، من تلك المحطات، تحمل معلومات مفصلة لمتابعة التنفيذ، لخصها المقدم لامع، ضابط أمن الجهاز بعدة أسطر جاء فيها:

سفيرنا في العاصمة المجرية، الاستاذ شكري الحديثي غادر علـــى الطائرة العراقية المارة بالعاصمة بودابست من برلين اليوم، يصـــل في تمام الساعة الثانية عشر حسب التوقيت المحلي لمدينة بغداد.

سفيرنا في أوغندا جعفر الذهب، يصل يوم الجمعة القادم.

السفيران حليم وحامد، يتجهان الى باريس سيقيمان ليلـــة في فندق الكونكورد، يصلان بغداد غداً على الطائرة العراقية.

السفير طارق حسين دخل المستشفى جراء الاصابة بذبحة صدرية، حالته مستقرة، تركها على مسؤوليته الخاصة، وهو الآن على متن الطائرة العراقية المتجهة الى بغداد من برلين مروراً بالعاصمة المجرية، الوقت المحتمل للوصول، منتصف الليل، معه على نفس الطائرة السكرتير الاول للسفارة في برلين مع بريد خاص بالمحطة لا يحتمل التأخير.

بغداد لم تهدأ، وكذلك عواصم غادرها السفراء، بينها بودابست التي تؤشر ساعتها المحلية السادسة مساءاً، ومع اشارتها هذه، أعلنت استعلامات المطار وصول الطائرة العراقية، برحلتها المرقمة (830)، قادمة من برلين في طريقها الى بغداد، وأكدت في ذات النداء، ضرورة التوجه لعموم المسافرين على متنها، صوب الصالة المخصصة للمغادرة عند المخرج الخامس.

عشر دقائق مرت على طلب الاستعلامات، التوجه الى الصالة، بعدها مباشرة تقدم الموظف المسؤول عن العلاقات العامة في المطار الى السفير شكري، رجاه التهيؤ بغية التوجه الى الطائرة، التي بدأت تشغيل محركاتها الأربعة واحداً بعد الآخر. نهض من جلسته مودعاً الوزير المفوض في سفارته، السيد نجيب كامل، وسكرتيرها الأول كريم قادر، مسؤول محطة المخابرات، اللذان حضرا لهذا الغرض، ومن بعده تقدم باتجاه موظف العلاقات المنسب من وزارة الخارجية المجرية، كمن يريد حثه باتجاه الصعود الى الطائرة، فاستجاب له الموظف، وصحبه اليها من بابها المفتوحة على خرطوم يوصلها بصالة المغادرة، التي فرغت من عشرين مسافراً، هم من حجز تذكرة على متنها للسفر الى بغداد.

رحب به عند الباب المفتوحة رئيس طاقم المضيفين الجـــويين. صحبه الى الدرجة الأولى، كان مستعجلاً بعض الشيء، يعي تماماً أنها لم تتوقف في محطتها هذه سوى نصف ساعة، لا يريد أن يكون سبباً لتأخير قد يجلب الانتقاد، هو بطبيعته حساس اتجاه أي انتقاد، كما إنه دبلوماسي ضليع لا يريد مواجهة انتقاد شخصي.

هم بالجلوس على الكرسي المخصص له (A 2) مثلما تحـــدد في بطاقة الدخول "البوردنج كارت"، سمع صوتاً يناديه من قريب، أبـــو محمد، تعال الى هنا، فالكرسي الذي بجانبـــي غير مشغول.

اتجه اليه دون الاستئذان من طاقم التضييف الجـــوي، وكأنـــه وجد ضالته، وقبل الجلوس سأل مستغرباً، مالذي جاء بـــك وأنـــت مريض؟.

وجهك مازال شاحباً، يوحي بالمرض حتى هذه اللحظة.

فقص عليه قضية الذبحة الصدرية، وكيـــف أســـقطته أرضـــاً، والمستشفى التي رقد فيها بجناح خاص، ومستوى الاعتناء الذي تمـــنى أن يكون، مثله في عراق يحاول الحزب إرساء قواعـــده في المســـتقبل القريب.

جلس شكري في المكان جنب طارق، وسأل، متى نصـــل الى هذا المستوى؟. وأجاب في الوقت ذاته وكأنه لا ينتظر الجواب، كل شيء بحساب، والانسان عندهم قيمة عليا كما يرد في أدبيات الحزب الشيوعي. أعتقد جازماً لا يمكننا الوصول الى ما وصلوا هـــم اليـــه، لأن انساننا مختلف، والظروف هي كذلك مختلفة، لهـــم حضـــارة في أوج عظمتها، ولنا حضارة تتآكل من داخلها، حتى اقتربـــت مـــن الأفول.

هنا بالذات لم يتفق معه طارق، فحضارة العرب من وجهة نظره، القائمة على ما يرد في أدبيات الحزب الذي انتسب اليه فتياً لا تأفل، سوف تُبعث من جديد. هناك مقومات لانبعاثها، الحزب أولى هذه المقومات في نضاله الطويل.

حاول شكري تغيير الموضوع، لأنه لم يكن مقتنعاً بالكلام، الذي جاء من صوب صاحبه، بشأن حضارة العرب التي ستبعث من جديد، فطلب اخباره ما الذي أتى به، وسبق لسكرتيرته التأكيد حتى مساء الأمس، من عدم وجود تبليغ بالاستدعاء الى بغداد قائلاً، كم كنا متمنين أن تكون معنا، لأن وجودك يعطينا اطمئناناً، من أن الاستدعاء يتم لدواعي دبلوماسية، وليس لأغراض أخرى.

قبل أن يقص عليه استلام البرقية، التي وصلتهم ظهر اليوم، طمأنه بشأن الاستدعاء، وعدم وجود أية علاقة له بالمؤامرة، تكلم وكأنه باق في منزلته مسؤول حزبي. أكد بلغة المسؤول الحزبي القريب من الكبار، أنه إجراء مهني يتطلبه الموقف الجديد، وما حدث بعد هذه المؤامرة الخطيرة، ولمزيد من التطمين، أشار الى استلامه قوائم المشاركين بهذه المؤامرة، التي كرر وصفها بالخطيرة، وكأنه ضابط قد أشترك في التحقيق بمجرياتها، واشار أيضاً الى أن صديقه معاون رئيس المخابرات، صادق في قوائمه التي لم يكن من بين المذكورين فيها، أيا من السفراء الوارد استدعائهم في البرقيات التي وصلت تباعاً، لكنه لم يجب على سؤوال وجهه شكري، عن كون الاستدعاء جاء تباعاً، ولم يأتي بقائمة واحدة أو بتعميم واحد، كما كان يحصل من قبل. وبدلا عن الاجابة، اتجه صوب اكمال قصة تمرده على الطبيب الألماني المختص، واصراره الخروج من المستشفى، وامتناع الطبيب عن إعطاء

الاذن في البداية قائلا، تصور حتى الطبيب الألماني علم بالاستدعاء، اذ وعندما واجه حقيقة وجود أمر هام في بغداد، تطلب السفر اليها في الحال، أذعن للأمر الواقع، وطلب التوقيع على صيغة تعهد بأن الخروج على مسؤوليتي الخاصة. وفوق هذا التعهد لم يأذن بشكل نهائي الا بعد الحصول على ضوء أخضر من اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الألماني، تصرف وكأنه حزبي من العراق.

عرجَّ في الكلام على ما دار بينه وبين "أم نداء" أثناء جمعه حاجيات السفر القصير، وتأكيده على عدم جواز التأخر عن تنفيذ الأوامر الصادرة، عندما حاولت نهيه عن السفر لمرضه، أو التأني لأيام على أقل تقدير. إلا انه أصر على تنفيذ الأمر، لأنه يعرف أكثر من غيره إصرار الرئيس على سرعة، ودقة تنفيذ الأوامر، وعدم قبوله أي عذر عن التأخير.

قاطعه شكري بالقول، هكذا هم النساء، القلق في داخلهن شديد، وتحسسهن لما يجري من حولهن أشد، هكذا تصرفت "أم محمد" عندما حاولت ثنيّي، أو تأخيري، كما فعلت "أم نداء"، كأنهن سوياً خريجات نفس المدرسة.

أيده في الاستنتاج، وأكمل. أنت تعرف جيداً أن السيد النائب، العفو السيد الرئيس، هو هكذا لا يقبل الأعذار، منذ الأيام الأولى للعمل السري، واستمر هكذا، حتى افتراقنا تنظيمياً، بعد تعييني في السلك الدبلوماسي سفيراً.

يقطع طارق حديثه بحضور المضيفة إثر طلبها بإشارة من يده. وعند وقوفها بمواجهته مبتسمةً، سأل صاحبه الرأي في طلب كأس من الويسكي، قيل له في المستشفى إن قليله مفيد لتوسيع الشرايين.

لكننا في رمضان.

أما تدري أننا على سفر، والسفر يُحل الافطار، كما أني مريض، فأصبح بحوزتي سببين للافطار. فرد شكري، طيب، أنت من أقترح، وأنت من يتحمل الذنب.

نعم سأتحمل الذنب، لقد تحملنا في حياتنا السياسية كثير من الذنوب، وما زال طريق الذنوب مفتوحاً، ومع هذا فهو طريق تحيط به الخضرة، وعلى جانبيه كثير من نقاط الغفران، الله يا سيدي غفور رحيم.

ما دام الأمر هكذا لا بأس، فالطيران الى بغداد طويل، والتوتر عالٍ، يستحق الاسترخاء بقليل منه كما ينصح الأطباء.

يطلب منها وهي واقفة بقوامها الرشيق تنتظر الأمر، قدحين من الويسكي بقليل من الثلج، ويكمل حديثه منوهاً الى اتصال هاتفي أجراه مع حليم وحامد، قبل توجهه الى المطار، والى مناقشة موضوع الاستدعاء، وشرح وجهة نظره القائمة على أساس، التشاور حول تطورات الوضع الحالي، اقتضته الضرورة السياسية، واحتمال مقابلة الرئيس. ثم أكمل حديثه مستغرباً هذا القلق، الذي لمسه على حال السفراء، الذين تم استدعائهم، وكأن ما يحصل قد حصل معهم للمرة الأولى.

القلق يا صاحبي آت من الظروف التي تؤكد وجود مؤامرة، ووجود قوائم تصدر بالمشاركين كل يوم، بل وكل ساعة أحيانا، قال شكري. فأجابه بطريقة لا تخلوا من العتب، وما علاقتنا نحن بالمؤامرة، وما يقال عنها؟.

لم يجد في وجه صديقه شكري قبولاً تاماً للرأي الذي قدمه، فاتجه لدعم صحة رأيه هذا، ذاكراً بالتفصيل تلك المقابلة الودية التي

جرت له مع الرئيس عندما كان نائباً قبل شهرين من استلامه مقاليد الرئاسة، يوم سأله عن احتمالات الحرب مع ايران واضاف، لقد أشاد بيّ مناضلاً، وأكد حاجة الحزب الى خدماتي قريباً من سلطة اصدار القرار، حتى انه قال بالحرف الواحد:

"ان المكان الملائم لك مناضلاً مخلصاً للحزب، ومبادئ الثورة، ليس في برلين، بل هنا في القصر الجمهوري بمكتب قريب من الرئيس، لأن الدولة والحزب، محتاجان الى رفاق مخلصين مثلك".

أتوقع عدم العودة الى برلين، سأكون في مكان قريب من الرئيس. فرد عليه، وأسارير الفرح باتت مفتوحة، عظيم أن يكون لنا صديقاً مثلك قريباً، يحتل مكاناً جنب الرئيس.

لكن شكري الذي لم تكفِ الاجابات المنقوصة، من تخفيض كمية القلق المكبوت في داخله، ردد العبارة الدارجة "الله يستر" التي عادة ما يكررها العراقيون في أوقات الشدة.

تأخذهم أطراف الحديث عن المستقبل، والأمل في عراق جديد، يختلف عن هذا العراق، الذي لم يستطع قادته وأد التآمر على حاله، منذ النشأة الأولى لدولته الحديثة عام 1921، وحتى الوقت الراهن. ومع هذا الانحراف عن سير الحديث، حاول طارق قاصداً، العودة الى الموضوع الذي بدأه منذ لحظة جلوسهما معاً في هذه الطائرة المتجهة الى بغداد، وذلك بالتاكيد على، وقوفه مع تحمل الشباب أعباء المسؤولية:

أرى أنهم وحدهم قادرين على ضبط الأمن، وتجنيب البلاد توجهات التآمر، والحزب بحاجة لهم لانبعاث الأمة من جديد.

وأين الحكمة في عقول الكهول، رأي أفصح عنه شكري، وعاود معه تكرار عبارة "الله يستر" ثانية.

تأتي المضيّفة حاملة قدحين أخريين من الويسكي، مما فتح مجالات عدة للحديث وقدر من الاسترخاء، وكأنها أرادت المساهمة من طرفها بتخفيف التوتر، الذي لحظته على هيأة السيدين، موجهة كلامها الى السفير شكري قائلة، سعادة السفير. اتركها على الله هو وحده العارف بالمستقبل، نحن الان مُعلقين بين الأرض والسماء، كمن يسبحون وسط بحر لا نهاية له، من يدري هل نصل بغداد الضفة البعيدة من هذا البحر؟. دعك سيدي من الغد، وتمتع باللحظة الماثلة هنا والآن، قدحان آخران من الويسكي يناسبان الحديث، ومفيدان للشرايين، كما هي نصيحة الطبيب الألماني.

رد طارق بعد استلطافه تدخلها، واستراقها السمع قائلاً، كلامك صحيح. علميه سيدتي معنى الحياة، وكيفية التخلص من قلق يشده على الدوام، لا يعطيه فرصة لأن يفعل شيئاً لدنياه. فقالت من جانبها، والرغبة في المشاركة بالحديث بانت واضحة على ابتسامتها المشرقة، سأعلمه الكثير إذا ما أتيحت ليّ فرصة اللقاء به في بودابست، التي يتغنى بلياليها على نهر الراين الشعراء. سأقبل دعوته على العشاء في مطعم "بيتر" إذا ما أراد.

وعندما خاطبها شكري من انه متزوج، سألته لم الذهاب بعيداً، وكأن روح الشرق تلبسك من أعلى الرأس حتى أخمص القدمين؟.

لماذا تفسرون الأمور هكذا بسهام الشك؟.

هل في لقاء رجل وامرأة ما يعيب، إذا ما خلت النفوس من الظنون؟.

لا، لا يوجد ضير ابداً، قال شكري. فردت هي بصوت فيه قدر من الغناجة، أعدُّ نفسي أنا لمياء مدعوة على العشاء، حال

رجوعك الى المجر بحفظ الله. أعرف هاتف السفارة. سأتصل بك حال التوقف للمبيت في هذه العاصمة الجميلة.

لك ذلك سيدتي... فشكرته مقدماً على دعوة هي من أخرجها، ورجت ألا تنسيه بغداد إسمها وهذا الوعد، وختمت كلامها بعبارة رافقتكم السلامة، لقد اقتربنا من الهبوط في بغداد، عليكم ربط الأحزمة، سأعلن عن هذا بعد قليل.

***

تنتصف الساعة عند الثانية عشر ليلاً، تطلب لمياء بصوتها العذب ربط الأحزمة، وتعديل المساند، والكراسي الى الوضع الطبيعي، إيذانا بالهبوط في مطار بغداد الدولي، تشير الى درجة الحرارة، وقد بلغت خارج الطائرة خمس وأربعون درجة مئوية.

وقفت الطائرة في موقعها، ووقفت هي مودعة السفيرين بنظرات تقدير حتى بلوغهما سيارة المراسم، الواقفة قريباً من السلم المتحرك، وجلوسهما على مقاعدها الخلفية، كمن تريد التأكد من سلامتهما أو أن شكري نقل لها جزءً من قلقه في أثناء الحوار المتبادل.

تنفس شكري الصعداء عند التوقف قريباً، من باب البيت الخاص بشقيقه في حي الأعظمية، لا يعير اهتماماً لكثافة السيارات، العائدة الى شرطة النجدة التي تجوب الشوارع ذهاباً وإياباً، و لم يسأل عن سيارات مدنية، وشباب يرتدون الملابس الرسمية يأخذون أماكن لهم في بداية شارع طه، الذي يسكنون فيه، بعد ان خف في داخله القلق الخاص بالاستدعاء، وبات يحيل كل المظاهر غير المألوفة، الى مؤامرة لم يعد يعير أمرها اهتماماً.

كلم نفسه كلاماً عن دوافعها، وحق القيادة في إجهاضها، ومحاسبة المشاركين أياً كانوا، وبأي مستوى حزبي يكونون. حمد الله على ابتعاد شبح الاستدعاء عن موضوعها. أنهي إجراءات السلام على بقايا العائلة الموجودين في البيت، ثم مسك سماعة الهاتف، طلب نداءً مستعجلاً الى الزوجة التي باتت تائهة في دهاليز القلق منذ أنتصاف النهار، لم تتحرك من مكانها قرب الهاتف، وقد أنتظرت هذا الاتصال بفارغ الصبر:

أم محمد أنا في بيت أخي محمد، كانت الرحلة مريحة، والاستقبال في بغداد على ما يرام مكانك خالي. ألم تعلمي المفارقة!، أن طارق كان معي على نفس الطائرة، هو كذلك قد استدعيَّ الى بغداد، قضينا حبيبتي وقتاً ممتعاً طوال الرحلة، وتكلمنا عن كثير من الأمور، أنا مشتاق اليك والى الأولاد، وددت مشاركتك هذا الاطمئنان، حمداً لله.

أجابته بنبرة صوت، يعبر تداعيه عن كثر اشتياق، وكأنها فارقت حبيباً دهر من الزمان وردت قائلة، شكراً حبيبي، أنا جد مرتاحة، سأغير طقم الكنبات في قاعة الاستقبال، سيكون في مكانه قبل عودتك بالسلامة، يحدوني الأمل في ألا تغيب طويلاً، مشتاقة لك حقاً، ولو أن الحدس في داخلي يشير الى احتمالات وجود منصب رفيع في الأفق سيأخر عودتك اليَّ أعز حبيب. لقد اتضح تفسير الحلم الذي حلمته، أثناء القيلولة بعد خروجك من البيت، "شاهدتك من بعيد جالس في مكان واسع أشبه بالقصر، على كرسي أضخم من الكرسي الموجود في مكتبك بالسفارة، ومن خلفك أشجار زيتون، تطل على بحيرة جميلة مليئة بالأسماك". وقد قرأت تفسير الأحلام

لأبن سيرين، الذي يقول إنَّ الشجر في الحلم منزلة أعلى، والماء خير وفير.

يا الله قال شكري، وبعد أن استهواه الكلام، عبر عن اشتياقه هو أيضاً، وأوضح من انه سيحاول العودة الى بودابست حال انتهاء الاجتماع، المؤمل حصوله في الوزارة يوم غد، وربما مقابلة السيد الرئيس بعد الغد.

ردت متأملة الانتظار على أحر من الجمر، سأنتظر مثل عاشق، يتأمل عودة معشوق من السماء.

عطشان وسط صحراء، تبقيه على قيد الحياة قطرة ماء.

سأنتظر عطراً ينعش روحي، ودفئ الشمس، وكثيراً من الهواء.

أغلق الخط معها، ثم التفت الى شقيقه الجالس الى جانبه، وقد سمع الحديث. حاول تبرير تلهفه، الى الاتصال بالاشارة الى شدة القلق الذي سيطر عليه، من لحظة استلامه برقية الاستدعاء، والى حد الوصول الى عتبة البيت. استأذنه الذهاب الى الفراش، فيوم مقابلات في الغد ينتظره طويل.

***

كان الوقت متأخراً، لم يسمح للسفير طارق اكمال اتصالات الاستفهام عن المؤامرة، كما ان التعب الذي خلفته الذبحة، بات واضحاً على وجه شاحب، تشبه صفرته نبت الزعفران، وعينان تلتحفان بهالة سواد، تقلصت عضلاتهما حداً، أخافت نسيبه سديد، الذي تعمد قطع الحديث وحثه على النوم. ومع هذا فالنوم لم يساعد على نسيان أمر المؤامرة الخطيرة، والتفكير بصباح ينتظره بلهفة، لإكمال المشوار.

كان مستعجلاً بشكل غير معقول، حتى لم ينتظر السيارة، التي وعدت دائرة المراسم ارسالها، لنقله الى وزارة الخارجية، بالساعة التاسعة صباحا. وبدلاً عن الانتظار طلب من سديد، ايصاله قبل التوجه الى عمله في وزارة العمل والشؤون الاجتماعية، مدفوع بقوة الاستفهام عن حقيقة المؤامرة.

وصلها قبل بدء الدوام الرسمي بقليل، فوجدها تعج بالحركة.

في الطريق الى مكتب الوزير، ظهر السيد عزام، سائر الى مكتبه في نفس الطابق، الذي يحتل الوزير معظمه، كان السلام حاراً، فهم كذلك أصدقاء طريق السياسة، المعبد بالأشواك.

مالذي اتى بك في هذا الوقت وأنت مريض؟.

أنتم الوزارة من استدعاني، وتعرفون جيداً أني مريض أرقد في المستشفى.

تعال لنشرب القهوة في مكتبي، فما زال الوقت مبكراً، فالسيد الوزير الدكتور سعدون حمادي في سفر، ووكيله الأستاذ حامد الجبوري قد لا يحضر قبل ساعة، وربما لا يحضر نهائياً، لأنه ومنذ الاعلان عن المؤامرة، وهو يدير الوزارة من مكتب يجاور السيد الرئيس.

أخبرني ماذ جرى، ولِمَ يتآمر قادة كبار في الحزب مثل عدنان، ومحمد عايش وآخرين؟.

عمرك أطول من عمري، كنت أريد أن اسألك نفس السؤال، فأنت من المحسوبين على الرئيس، وصديق له قديم، والمفروض ان تكون بالصورة أكثر مني.

بالنسبة لي، قال عزام، لم أعرف شيئاً يعينني على أن أعلم، ولما حضرت مع الكادر المتقدم للحزب الى قاعة الخلد، يوم الثاني

والعشرين، خرجت مذهولا، وقد سُدت من حولي منافـذ الادراك، وضاقت فرص الاطلاع، فبت حقاً لا أعلم.

لم يجلس السفير عزام على مكتبه، فضّلَ الجلوس على الكنبـة جوار طارق، ليتحدثا عن قرب، حديث همس، فهو بعد الخروج من قاعة الخلد مشدوهاً، آمن بضرورة الحديث عن طريق الهمس. قـال وعندما خرجتُ من تلك القاعة، التي بدت في نهاية المشهد، ما يشبه بالمسلخ، كنت تائها، مررت بحال أقرب الى الغيبوبة، ذهـب مـني عقلي، و لم أعد أمتلك القدرة الكافية للسيطرة على حواسي، كـان خوفي من أن أكون مجنوناً، يفوق خوفي من أن أكون متهماً، مازالت قدماي ترتجفان، عندما تَحضُرُ ذاكرتي قسراً، مشهد الرفيق فاضـل، يتكأ عليّ في نهوضه واهناً، حال المناداة عليه متآمراً.

إنها... توقف عن الكلام، أبدل صيغة الكلام، بصيغة أخـرى حال دخول السكرتير حاملاً البريد، وقال موجها كلامه الى طارق، رأيك في أن تزورني الى البيت، نفطر معاً هذا اليـوم، ضـروري أن نلتقي في القريب، إذ أن الموافقة على عملي سفيراً في واشـنطن قـد وصلت بالأمس، و لم يبق سوى موافقة السيد الرئيس الشكلية علـى الالتحاق، وهي في بريده، ومن المتوقع اتمامها هذا اليوم، أو في الغـد على أعلى تقدير.

السفراء المستدعون يصلون تباعاً، أغلبهم وصل قبل دقائق مـن بدء الدوام، أو بعدها بقليل، وصلوا وزارتهم بعقول يملـئ أوعيتـها القلق الهائم، يودون تبيان دوافع الاستدعاء، جلس غالبيتـهم عنـد الوكيل الإداري السيد حميد عبد القادر، ومسـؤولون حكوميـون كبار، يدخلونها لاستبيان مواقف الدول الكبرى من التغيير. فاجأهم

علي حسن المجيد بالسلام. نهضوا لرد السلام، بطريقة فيها قدر من الحذر. فتوجه هو بالكلام صوب طارق قائلاً، "أبو نداء" متى وصلت حمداً لله على السلامة، قيل أنك مريض؟.

يقترب منه، يأخذه بالأحضان. أجابه بلهفة صديق قريب، وصلت في ساعة متأخرة من الليل، صحتي جيدة، هواء العراق أشفاني من علة القلب الحساس. يبدو أن الخارجية لا تمتلك المفيد من المعلومات. رأيك التوجه صوب الرفيق برزان لمعرفة كل التفاصيل؟.

لكني جئت بقصد الحصول على مصادر، أرفد بها أطروحتي، التي يفترض تقديمها الشهر المقبل، الى كلية الدفاع الوطني في جامعة البكر، قال المجيد. فأجابه، سوف لن تطير الأطروحة، أعطني قائمة بما تريد من مصادر، وأنا أوفرها لك، وسأرسلها الى مكتبك مباشرة. فجامله بالرد، تفضل، من يستطيع رفض طلب الرفيق العزيز "أبو نداء".

البناية الرئيسة للمخابرات، في الجهة المقابلة من الشارع، الذي تطل عليه الخارجية، رئيسها الجديد، استلم منصبه في اليوم الذي استلم فيه الرئيس مناصبه، قبل أربعة أيام، يديره بحزم يثير الخشية. نشر رجاله المقربون في كل مكان، عمل تنقلات في بعض المناصب المهمة ليلة أمس، منحه الرئيس الجديد كل الصلاحيات لما يتعلق بالمؤامرة، زوده بمفاتيح خزائن أضابيرها، قوائم أسماء مطلوب التحقيق بمديات تآمرهم على الحزب والثورة.

دخلوا مكتبه بعد استئذان المدير المسؤول عنه، فأخذهم بالأحضان، رحب بالسفير طارق مثل شقيق التقى شقيقه العزيز، بعد فراق دام سنوات وقال، "أبو نداء" أحضروك الى هنا، وأنت طريح

الفراش، لقد عملت الصح، تعرف رفيقك السيد الرئيس، يزعل على من يحبه، فيما إذا تأخر قليلاً، عن تنفيذ الأوامر.

كيف أتأخر والحزب يواجه مؤامرة، قال طارق... إجابة استهوت نفسه الشكاكة، فأطلعهم فوراً على أسماء، من ثبت اشتراكه خائناً في المؤامرة، حتى لحظة دخولهم مكتبه. كرر عبارة حتى هذه اللحظة، كمن يريد اشعارهم، أن القائمة مازالت مفتوحة، ثم سأل، هل ترضون أعضاء مدللون في القيادة القطرية يخونون؟.

يتفقون مع حافظ الأسد على خيانة العراق، الذي عاشوا من خيره عشرات السنين، أعضاء قيادة قطرية ومكاتب وفروع، ضباط قادة.

إنها مؤامرة قذرة، لو كتب لها النجاح لا سامح الله، لما بقيَّ حزب اسمه البعث العربي الاشتراكي، ولما بقيَّ شيء اسمه العراق، يبدو أنهم مدسوسون في جسم الحزب من سنين، وأنتم كبار الرفاق كأنكم نائمون.

أتدري أبو محمد أني ولحد هذه اللحظة لم أستوعب، كيف يقوم عضو قيادة مثل الرفيق محمد عايش، العفو محمد عايش بالتآمر، قال طارق ثم توقف قليلاً عن الكلام، وكأنه يريد تفادى زلات اللسان، التي قد تُفسر شكاً، ثم أكمل:

طيب محمد عايش، وعرفنا شخصيته التي يمكن أن تكون سبباً في اندفاعه للتآمر، وأنتم أعرف بهذا من كل الرفاق، لكني أود التعرف حقاً، على كيفية اقدام عدنان الحمداني على التآمر، وهو الصديق القريب من الرفيق السيد الرئيس.

ان الخيانة تسري في دماء أولئك المتآمرين، وان علوم المخابرات لا تستثنِ الصداقة من الشك بالسلوك. لقد دققت شخصياً في هذا التآمر،

وحصلت على اعترافات صريحة، بتلقيهم أموال من حافظ الأسد، الذي وعدهم بإنزال لواء مظلي سوري لدعم تآمرهم، لكن الله بمشيئته، والسيد الرئيس بحكمته، قد أسهما في كشف المؤامرة قبل التنفيذ بأيام.

رأي قدمه رئيس الجهاز ثم نظر الى المجيد، ومن ثم الى طارق رافعاً، يده اليمنى كمن يلقي خطاباً حماسياً:

أتعلمون رفاق، أنتم بالذات كانت رؤوسكم من بين المرشحة قطعها، لو نجح التآمر لا سامح الله. سكت قليلا، كأنه يريد تجميع بعض الأفكار ذات الصلة بالمؤامرة، وعندما لم يجد جديداً، سأل طارق رأيه في أن يأخذون وجبة الغداء سوية هذا اليوم، باعتباره ضيفاً عزيزاً.

شكره بقوة، متحجج بكثرة مشاوير لابد من إنجازها، ثم أنه مريض بالجلطة، لا بد من التحسب، وأخذ قليل من الراحة بعد هذه الصدمة المفاجئة بشخوص المؤامرة.

لا تشغل بالك في مصير المتآمرين، قال رئيس الجهاز، سنقطع رأس من يفكر بالتطاول على الحزب والثورة، عهد الخدر والتهاون قد ولى، نحن اليوم في عصر جديد، أمامنا مهام ومشاريع كبيرة لعراق المستقبل، وأمتنا العربية.

شعر وهو في هذا المكتب الفخم، كأن عليه اثبات قدرة على الصبر، والمناورة أكثر من ذي قبل، فعينيّ أبو محمد تحدق به، مثل صقر الجير القطبي الشرس، وشعر في داخله رغبة في إنهاء الحديث، الذي ختمه بعبارة "الله في العون".

سأله كيف تتنقل في بغداد؟. عارضاً تخصيص سيارة، وسائق يكون بالخدمة طوال فترة بقاء قد تطول.

شكره طارق، بتأكيد القول إنك أبو محمد كنت وما زلت سباق في الأفضال، وان المكتب العسكري قد أرسل لي سيارة جديدة، ستكون بالامرة حتى العودة الى برلين.

تقدم منه خطوة فأخذا بعضهما بالأحضان، واتفقا على لقاء آخر في القريب.

***

ترك طارق بناية المخابرات مشوشاً، قدرته على التفكير، تناقصت من فرط الشد، حتى لم يعد قادراً على تجميع الأشياء، ما عرفه عن الأسماء والمؤامرة، وتحصيل الأموال، واللواء المظلي السوري، ونظرات الصقر القطبي، زادت عقله المشوش عتمة، وبرزت على سطحه العديد من الأسئلة، التي لم يجد لها جواب. وعندما وجد نفسه في السيارة كمن تاه في شوارع بغداد، تذكّرَ صديقه العميد زهير قائد الفرقة المدرعة، عضو الفرع العسكري للحزب، فقصده شخصية تمتلك قدرة فائقة، على تقصي الأخبار، التي تقع عادة ما بين السطور، وعندما لم يجده في البيت اتجه الى بيت عزيز الياسري، الذي نحيَّ من الحزب جانباً، قبل سنة بأمر من النائب آنذاك، متيقناً أنه الشخص الأقدر على لملمة النهايات الطرفية للشكوك، وبما يفوق زهير قدرة، في هذا الجانب الافتراضي المعقد.

لم يكن عزيزاً كذلك في بيته، أكدت أم علي خروجه مبكراً في ساعات الصباح الأولى، من دون علم منها بالجهة التي قصدها قائلة، هكذا هو عزيز ألم تعرفه؟. فطلب منها إبلاغه السلام، ورغبته القوية بمشاهدته في القريب العاجل، وطلبت هي إيصال السلام أمانة الى السيدة "أم نداء".

يستغرب هذا الغياب. نظر الى ساعته فقد بلغت الثالثة بعد الظهر. اتجه عندها الى بيت نسيبه في العامرية منهكاً من كثر التفكير، وعدم القدرة على حل اللغز الخاص بالمؤامرة. وهو في طريق العودة، بانت له هيئات وأشكال متباينة ومتعددة، لمسار المؤامرة الآتي في الذاكرة المهمومة، والغارقة في الغموض حد الاعياء. هم بتناول الغداء، لكن القلب الموجوع لم يعطه الوقت الكافي لتناول وجبة السمك المسكوف. ها هي آلام الصدر تفتح عليه نافذة من جديد، والجلطة التي حذره الطبيب الألماني من احتمالات حصولها، في حال عدم الابتعاد عن مصادر الاثارة النفسية، قد حصلت بالفعل. علامات لها باتت معروفة من قبله إثر التجريب. لم يكن أمامه من بد سوى الطلب، من سديد احضار السيارة، ونقله الى أقرب مستشفى، فالأصابة بالجلطة القلبية ثانية باتت واضحة. وحل اللغز اشبه بالمستحيل، نهايات له تشعبت مثل أذرع اخطبوط بحر الصين.

يتذكر المستشفى الالماني، وتلك الاجهزة التي استولت على جسده في الجلطة الاولى، قارنها بهذه الموجودة في مستشفى اليرموك التعليمي، فشعر بغصة في أعلى الحلق، طلب على إثرها من سديد، الاتصال بالعميد زهير ليستحصل الموافقة على نقله، الى مستشفى الرشيد العسكري، التي تصنف الاولى بالأجهزة والمعدات، ووفرة الاختصاصيين بين باقي المستشفيات العراقية.

حل الصباح عادياً، ومع حلوله ظهر في باب الغرفة الخاصة بالعناية المركزة، نسيبه الآخر سنان، رفع من على فمه كمامة الاوكسجين، كلمه بصوت خافت، يكاد لا يسمع الا من قريب. سأل عن سديد وأسباب عدم حضوره، وأسباب تأخره منذ عصر الأمس.

لم يحدث شيء، قال سنان مرتبكاً بعض الشيء، وأضاف إنها مجرد آلام في الرأس الزمته الفراش، وقد طمأن الطبيب في تشخيص آلامه، نوبات شقيقة تعاوده بين الحين والآخر.

كانت اجاباته تحوي محاولات هروب، من موقف لا يريد الافصاح عنه. وبعد أن أتم سنان محاولة الهروب بنجاح، سأل عن صحته هو، التي اقلقت أهل البيت. أما هو فقد سأل من جانبه، عن موضوع نقله الى مستشفى الرشيد، فتلقى الإجابة واضحة، من أن الأمر يتعلق بما يقرره الأطباء المختصين.

ثلاثة أطباء يحيطون الجسد الممدود على السرير، بوصلات أسلاك ربطت بالأجهزة الخاصة بمتابعة القلب، يجرون فحوصاً مستعجلة، يفهم من كلمات يتبادلونها باللغة الإنجليزية أنهم يعطون موافقتهم على النقل بسيارة اسعاف خاصة، لتعب واضح على القلب.

***

فندق الكونكورد وسط باريس، العاصمة الممتدة واسعة على ضفتي نهر السين، يتربع على شارع يؤمه العرب صيفاً، يتخيله الماشي على أرصفته، شارعاً عربياً يتجول بين محاله سائحون فرنسيون وأجانب. حجز فيه حليم الغرفة المهورة بالرقم (302) بصالة لها، وحجز حامد مع عائلته الغرفتين المجاورتين.

كان صيف باريس جميلاً، هواءه منعش فيه قدر من الرطوبة، زخات مطر عبرت بسرعة، زادت من شدة رطوبته، وأعطته نكهة خاصة. نزل حليم بعد أخذه استراحة بسيطة الى الكافتيريا الموجودة

في الطابق الأرضي للفندق، باطلالتها الفسيحة على الشارع الجانبي، جاء من بعده حامد. جلسا ينتظران معاً مجيء العميد عامر مفوضاً من قبلهم، باختيار المكان الذي اليه سيذهبون، يقضون السهرة في ليلتهم الأخيرة، قبل التوجه الى بغداد، تنفيذا لأمر الاستدعاء.

لقد اختار المكان مطعماً في أعلى برج إيفل على نهر السين، قال أن رواده من الميسورين والسواح، فيه أماكن يستطيع الجالس حول طاولاته الانيقة، أن يتمتع بخصوصية غير موجودة، في المطاعم الأخرى. خيارٌ وافق عليه الضيفان بسرعة، لأنهما يريدان مكاناً يستطيعون في فضاءاته، التكلم بحرية بعيداً عن الأنظار. لكن حليم المعروف ببعض مداخلاته الساخرة، علق على الاقتراح بالقول، لكننا لسنا من الميسورين، وأضاف وهو يهم بالجلوس، حول الطاولة المحجوزة في الركن الغربي من المطعم، لا بأس دعونا نتخيل أنفسنا ميسورين.

يعودون الى الحديث عن موضوع الساعة، فيعود حامد في تصدره النقاش، ويعود أيضاً الى موقفه السابق، بعدم الاتفاق مع الشكوك التي أثارها حليم، حول عملية تنازل الرئيس البكر لنائبه صدام، مؤكداً في كلامه، أني أثق بالسيد النائب، كما أني أعرف الرئيس البكر عن قرب، لقد عملت معه مرافقاً، لفترة من الزمن كافية لتقديم الرأي، والتأكيد على إنه حريص جداً، وعصبي جداً وقد تكون هاتان الصفتان قد دفعتاه الى وضع صحي ألزمه التنازل بالفعل، الانسان كما تعلمون، معرض للمرض، والبكر انسان قبل أن يكون رئيس، ومادام مرض فالتنازل عن الرئاسة أمر وارد.

لكننا حزب يؤمن بالديمقراطية، وبالانتخاب وسيلة لشغل المناصب الحزبية الشاغرة، والتنازل أسلوب طارئ على الحزب، يثير كثير من علامات الاستفهام، رأي عبر عنه حليم، قبل استعراض الأسماء التي وردت في الاعلام، للقادة والوزراء، كمشاركين في المؤامرة، وأكمل رايه، سأترك لكم كل شيء، سوف لن أثير شكوكاً عن محمد عايش كبير المتآمرين كما يقولون، فهو جريء ولا يقبل التجاوز على النظام الداخلي للحزب. لنفترض أنه سعى الى التآمر بقصد التصحيح، لكن الذي لا أستطيع تصديقه مطلقاً اتهام عدنان الحمداني، وعبد الخالق السامرائي بالتآمر.

فالأول صديق الرئيس، مقرب منه عائلياً، والرئيس معجب بكفاءته في التخطيط، يفترض أن يجعله رئيس وزرائه، فور استلامه رئاسة الجمهورية.

والثاني مسجون في زنزانة سجناً انفرادياً منذ سنوات، بقيّ وحيداً، منعت عنه المواجهة طوال فترة سجنه، كيف دخل له المتآمرون؟.

كيف انفرد بأحدهم ليناقشوا سبل التآمر ووسائله؟.

السامرائي كما هو معروف عنه فيلسوف الحزب، يجادل حتى اثبات الرأي، لا يقتنع الا بدليل منطقي.

كان عامر بطبعه حذراً، تعليقاته قليلة، الا ما يتعلق بعمله الدبلوماسي العسكري في الساحة الفرنسية، قدم بعض الإيضاحات عن استدعاءه الى وزارة الدفاع الفرنسية هذا اليوم، وعن الحاح الوزير تقديم تفصيلات عن المؤامرة.

يجلب حامد الانتباه اليه بتناول قدح النبيذ الأحمر، عندما أفرغه مرة واحده في جوف كان يحتاج المزيد، ولما أعاد وضعه على الطاولة،

لاملائه من قبل النادل، قال بصوت فيه حشرجة واضحة، الله يكون في العون، ثم أشار الى ضرورة التهيؤ الى المغادرة، فالساعة قد بلغت الثانية عشر ليلاً بتوقيت باريس، وقد ترك العائلة وحدها في الفندق.

كانت السهرة جميلة، ومع هذا أضافت هموماً، على الهموم التي كانت موجودة من قبل، وفتحت كذلك منافذ قلق جديدة يصعب غلقها، أراد عامر بلباقته التخفيف من وقعها، اذ وبعد إيصالهم الى الفندق، نزل معهم حتى المصعد، ختم توديعه لهم بالقول.

لا تعيرون للأمر أي إهتمام، فالجماعة هنا يتمنون للعراق الاستقرار، والتمتع بالثروة وهم في تمنيهم صادقون.

سأنتظركم هنا في باريس عند العودة، وسنقضي سهرة أجمل في مكان آخر، فيه عروض مسرحية تستحق المشاهدة.

ابرقوا لي قبل المجيء، ليتسنى لي انتظاركم في المطار.

تحياتي الى كافة الاخوان في بغداد.

رد حليم على توديعه بالقول، هذا إذا ما بقيّ منهم أحد في مكانه صامداً بوجه الريح.

***

تتقدم الطائرة ببطء لتأخذ مكاناً لها على أرض المطار. تحركَ الركاب في أماكنهم وقوفاً، لتناول حقائب يد، حشروها في الرفوف العلوية للطائرة، لم يمتثلوا الى نداء طالبهم قبل لحظات، بضرورة البقاء فيها حتى توقف الطائرة نهائيا، وإطفاء محاركها الاربعة.

حمداً لله على السلامة، قالها حامد لصديقه حليم، وكذلك لزوجته التي تجلس الى جانبه، فردا على تحميله السلامة بمثلها، ثم

خص حليم بالقول، نلتقي غداً في الوزارة، بحدود الساعة الثامنة صباحاً.

لم يعطِ المضيّف الأقدم إشارة النزول الى ركاب الدرجة الأولى التي تعطى في المعتاد، كمن ينتظر شيئا غير مألوفاً. لكن غير المألوف، هو الدخول المفاجئ لشخص بلباس مدني أنيق، من باب الطائرة الذي أنفتح تواً، يتبعه شخصان، يظهر سلاحهما الخاص من فتحة السترة عند المشي. اتجه مباشرة الى حليم، وكأنه يعرف الشكل جيداً، طلب مصاحبته، ثم التفت صوب حامد قائلاً وأنت أيضاً. رد حامد منزعجاً، لماذا تكلمني هكذا وأنا سفير؟. فطلب منه أمام ركاب الدرجة الأولى، وعائلته أن يحترم نفسه، يأتي معه دون التكلم، ولو بكلمة واحدة، ثم زمجر قائلا، أنت لم تعد سفيراً من هذه اللحظة.

نظر حامد الى زوجته باستحياء، كمن تعمد مسح الإهانة، التي وجهت اليه في موقف بات فيه ضعيفاً، أو أراد القول همساً بالنظرات، التي شعر بعدم امتلاكه سواها، من أنه لا يقبل الإهانة في هذه اللحظة، التي أدرك بحسه الأمني، أنها تمثل نهايته المحتومة... لحظة حرجة، تجمعت خلال أجزاء منها، في خلايا العقل المشحون بالغضب، عشرات الرغبات والأفكار، بينها ضربهما أمام الزوجة التي شعرت بالانكسار، لكن الشابان المسلحان، اللذان يتبعانه أفسد قربهما منه فكرة الضرب، التي استبدلت لا إرادياً بالذهول المغموس بالامتعاض، وإقناع الذات الممزقة أن صاحبها قد أحتج على التصرفات الرعناء، لهذا الانسان غير المؤدب أمام الزوجة، وباقي الركاب الذين وقفوا يسمعون ما يجري، وكأنهم يحيطون خشبة

مسرح يمثل عليها شاب متغطرس بلباس السلطة الممنوحة من الدولة الجديدة، وسفير فقد صفته الدبلوماسية تواً، وتحول الى متهم مطلوب تسليمه الى هذه السلطة الجديدة، ومطلوب إثبات وقائع جرمه المشاركة بهذه المؤامرة. ومع هذا فإن القلق الذي هاجمه سريعاً، بات يشده، لم يعطه فرصة لأن يفعل شيئا سوى الاستسلام.

حاولت زوجته، وهي في الطريق حاملة ويلات الخيبة، التقدم خطوة من أجل التهدئة، فحصلت على إشارة حازمة بالجلوس، واصطحاب الأولاد الى البيت، وعدم التكلم عن الموضوع مع أي أحد، فاستسلمت مكسورة، كأنها لا تقف على مادة صلبة، وكأن الارض قد هربت من تحت قدميها الراجفتان، قواها الخائرة في داخلها، أعادتها الى مكانها متوسدة الكرسي ذاته.

يخرج السفيران المعتقلان من باب الطائرة، وسط رتل مسير، في مقدمته ذلك الشاب الخشن، وخلفه المسلحان بمسدسات براوننك، يتجه الى سيارة تشبه سيارات الإسعاف، تقف عند سلمها المتحرك، يدُفعون الى داخلها دفعاً، صوب هاوية، كأنها تحت جوف الأرض، وقد أنسدت فيها مسامات الحياة. غلقوا أبوابها بزعيق مسموع من ركاب الطائرة، المستمرين بمتابعة المشهد الغريب، ثم أنطلقوا بسرعة وطريقة، تشبه تلك التي تحصل عادة، في عمليات الخطف، أو في أفلام هوليود متقنة الاخراج.

أخي قال حامد، موجهاً كلامه الى الشاب صاحب البدلة الزرقاء، ممكن أعرف لِمَ هذا الاجراء، ونحن سفيران حضرا الى بغداد بناءً على استدعاء الخارجية. فرد عليه بعنف أخرق، أي واحد منكم يحاول الكلام، كلمة واحدة فقط، سيتلقى ضربة على فمه العفن،

قال الشاب الجالس بمواجهة حامد، وقد أستثار انفعالاً بما يكفي لبدء جولة ضرب فعلية، بدأها بعقب مسدس استله سريعاً من بين حزامه، ألقاه بقوة على رأس حامد، فتح به جرحاً عميقاً، تدفق من بين أوردته الممزقة دماً قاتماً، ممزوجاً بمركبات حنق أسود، انساب سريعاً على وجهه المتحفز، ثم نزل كذلك سريعاً الى البدلة الرصاصية، التي اصطبغت باللون الأحمر، أحس بسببه ألماً، لم يحسه طوال حياته، وشعوراً بالمقت لم يشعره من قبل.

يعم الصمت بعد أول جولة ترويع، أصابتهما معاً، كادت تعطل في داخلهما سير التفكير، لكن حامد المعروف بجرأته وجسارته، لم يخضع الى أساليب الترويع هذه بسهولة، كما يعتقد الضابط الشباب، فحاول مداراة قلقه، وبؤسه الناتج عن هذا الموقف المفاجئ، فلم يجد سوى عبارة قالها، والشك يملئ مخارج حروف، لم تعد تخرج من الفم المليء بالدم بالشكل المعتاد:

هل تذهبون بنا الى المخابرات؟. وهل للسيد أبو محمد علم بما يجري؟.

أسئلة غير مترابطة، كأنه أراد من توجيهها، تذكير هذا الشاب الذي خمن أنه ضابط في جهاز المخابرات، بأصوله الحزبية، وبقربه من المسؤولين، وفي حقيقة الأمر، كانت محاولة لا ارادية لتذكير النفس بالماضي، أملاً في تخفيف القلق البائن على قسمات الوجه الحنطي... محاولة لم تجدي نفعاً مع ضابط مخول باستخدام القسوة بداية المشوار، فكانت ردة فعله صفعة على الوجه، أوقعت نظاراته الطبية بين ارجله المتهالكة، وأسكتته في الحال، وكأن صخرة هوت على رأسه الحاسر، وعززت في داخله الرأي بأنهما يتوجهان الى مصير مجهول.

تستمر السيارة في انطلاقها مسرعة على شارع المطار، أعطى الشاب إشارة الى مساعديه لعصب عينيهما، بقطعتي قماش أسود مخصصة لهذا الغرض، عندها أدركا كل على انفراد أن تصورهم عن الاستدعاء كان خطأ، والخوف من الغدر، كان هو الصحيح، فاستسلما لأفكار أخرى، تتعلق بالتهمة التي تنتظرهم.

حاول حليم استجماع قواه لاستيضاح الموضوع من داخله، بعد أن يأس من الحصول، ولو على إشارات بسيطة من الضابط الشرس. لكنه وبعد جولة سريعة في الماضي، واستذكار خدمته العسكرية في الحرس الجمهوري قريباً من البكر، وقيادته لواء مدرع في حرب تشرين، ووجود تيار عسكري يريد ازاحته من الساحة، تيقن بعدم الحاجة الى التأمل أو التفكير، وآمن بوضوح الصورة التي تتمثل بحشره، وبعض الزملاء في الصف المعادي للحزب والثورة، قال عنها في داخله الموجوع، انها النهاية التي لم أكن أتوقعها، عندما انتظمت في صفوف الحزب عام 1957، وانقطعت عنه، ومن ثم عدت الى صفوفه بعد عام 1968، والى حد استلامي منصب سفير قبل حوالي سنة من الآن.

أي نهاية تعيسة هذه يا الهي على يد الرفاق؟.

قطعت السيارة المسافة من المطار الى المبنى التابع للحاكمية الخاصة بالمخابرات في أقل من ساعة، مرت وكأنها عام طويل من الحزن، حتى لم يحس حامد بركلة تلقاها، مع دفعه الى الزنزانة الانفرادية التي أعدت على عجل. وقف وسطها متفحصاً ذلك الحائط الكونكريتي المدهون باللون الأحمر.

أتم الفحص، جلس متكئاً على حافته الرطبة، وجهه الحنطي بقيّ

مكفهراً أصبح لونه داكناً كلون الرمل الآتي من شواطئ دجلة. تذكر تاريخه الطويل، حاول الندم، فمنعتهُ فكرة جاءت من أعماق الذاكرة، تحوم حول ورود الحشر وهماً، أو نكاية من أحد المغرضين، إذ لم يعرف حقاً أي شيء عن الموضوع، حصل عندها على ومضة راحة، كأنها نسمة هواء بارد ظهر يوم قائظ، لم تدم طويلا، فهواء الغرفة الساخن، نقله الى موجة حزن أخرى، باتت تعصره حد الهذيان.

***

إنها ليست غرفة إنعاش خاصة، ولا ردهة علاج عامة، هي قاعة تشبه تلك القاعات القديمة، لثكنات عسكرية شيدها البريطانيون، اثر دخول جيوشهم العراق بعد الحرب العالمية الأولى. شبابيكها الثلاث، تغلفها من الخارج قضبان حديد سميكة، تتوزع على أرضها المكسية بطبقة من الإسمنت، أربعة أسرة من الحديد مبعثرة بغير انتظام. هيأة الجنديان اللذان يتواجدان داخلها، بأسلحتهم الآلية وقيافتهم القتالية تثير الدهشة. تجهم المدنيان بينهما يعزز هذه الدهشة.

حضر الطبيب لإتمام إجراءات الفحص واستلام المريض، إجراء روتيني عند الانتقال من مستشفى، الى آخر داخل البلد الواحد، بل ومن ردهة الى أخرى داخل المستشفى الواحد.

سأل أولا عن اسم المريض؟.

حاول طارق من جانبه الإجابة، سبقه المدني القريب من السرير، معطياً اسماً ثلاثياً مغايراً، ومعلومات وافية، في محاولة منه، يعتقدها ضرورية لسد الثغرات الامنية، إذا ما تم الاستمرار في الكلام:

انه محمد حسن عبد الرحمن، عمره أربعون سنة، عمله موظف مدني في وزارة الدفاع.

نعم؟... سأل طارق ثم سكت، وكذلك الآخرين، فأكمل الطبيب اجراءات الاستلام، واضعاً اسمه النقيب الطبيب خالد حسين، وتوقيعه البسيط على الصحيفة الطبية. غادر بعدها القاعة دون التفوه بكلمة واحدة.

ينتصب شعره فزعاً، كان لحضتها كمن يتقدم الخطوة الأخيرة، باتجاه تنفيذ حكم الاعدام، لم يعد يقوى على التفسير، لا وقت لديه للتفسير، كل شيء حاصل هنا، في هذا اليوم غريب.

الجنود المسلحون.

المدنيون الواقفون.

الردهة الطبية السجن، وحراسها المتأهبون.

وما حصل في الأمس كذلك غريب.

الترحاب المفرط بالأشواق، من قبل علي حسن المجيد.

السلام الحار، ودعوة الغداء التي تقدم بها برزان رئيس جهاز المخابرات العتيد.

والأغرب منهما معاً، هذا الاسم الذي سُجل به محمد في الصحيفة الطبية... غرابة دفعته الى التوجه بالكلام صوب المدني، الذي منحه الاسم قبل قليل، مستفسراً عن حاله، وفيما إذا كان موقوفاً، فحصل على ما يكفي لاتمام التفسير.

نعم توقيف احترازي على ذمة المؤامرة.

عندها شعر بالدوار، وكأن مظلته لم تنفتح أثناء القفز، من طائرة على أرتفاع قليل. نزع الكمامة التي وضعت على الفم،

لتعويض نقص الاوكسجين في الدم، طالباً الخروج من المستشفى، والتوجه على الفور الى غرف التحقيق قائلا، لا علاقة لي بالمؤامرة.

أنا بعيد عن الخيانة، وعن أي مؤامرة.

ثقتي بنفسي عالية، وكذلك بالرفاق في القيادة، وعلى رأسهم السيد رئيس الدولة.

لكنك مصاب بالجلطة، والأوامر التي بحوزتي، الحفاظ على حياتك حتى تتعافى، ومن بعده اصطحابك الى التحقيق، لماذا الاستعجال؟. قالها الشخص المدني الواقف في المواجهة. وقال هو كلاماً يفهم منه القدرة على تحمل المسؤولية، مثلما تحملها في ألمانيا قبل أربعة أيام. كلامٌ أتمه بلهاثٍ، يكاد يُخرج القلب من قفصه الصدري. الأمر الذي دفع المدني طلب الهدوء، والبقاء في المكان، بغية الاتصال بالهاتف، والحصول على اذن الخروج.

كان وقع الدقائق التي مرت، أنتظاراً لإذن الخروج ثقيل على القلب، وكان الألم يعتصره من الداخل، بدرجة زيدت من الوجع وغشاوة العينين، وأكبرت من حوله غرابة الموقف، هذا اللغز الخاص بالمؤامرة، وضاعفت تعقيدات التفسير.

تحسس بكلتا يديه الجانب الأيسر من الصدر، كأنه يريد التأكد من قدرة القلب على مواجهة الموقف الجديد، فشعر لحظتها تمركز الألم وسطه، قلباً لم يتعافى بعد، ورغبة في داخله ابعاد هذا الألم، أو تأجيله حتى اثبات براءاته من المشاركة في المؤامرة، التي لا يعرف لها جذور.

سأله الشخص المدني، بعد تأمينه الاتصال بمراجعه في الجهاز، فيما إذا كان قادراً على المشي، فحصل على اجابة سريعة تؤشر اصراراً على المشي، من دون الحاجة الى معاونة أحد.

السيارة الفولكس واكن تقف في الشارع الفرعي المحاذي للقاعة، جلس هو أو أجبر على الجلوس في الحوض الخلفي، وبجانبه الشاب المدني الثاني، المنتسب هو الآخر الى المخابرات. وبعد اتمام جلوسه من دون اجهاد على القلب، سأل عن الوجهة فيما إذا كانت الى المخابرات، أو الى رئيسها الرفيق أبو محمد، الذي كان عنده ضيفاً في الأمس... كلام عابر للترويح عن مشاعر الاحساس بالابتئاس، أو لاثبات الذات الحزبي، حصاده طلب السكوت والامتناع عن الكلام، ووعد بالتعرف قريباً على المكان، وامتلاك الوقت الكافي للدفاع عن النفس، الأمارة بسوء المشاركة في المؤامرة.

لكنه يريد أن يتكلم مدفوع باحباطات الخيبة، والضياع التي لَفَتْ ثنايا عقله. وعندما واجه الأمر الحازم بالسكوت، وغياب فرص النفاذ لما يريده من كلام، قال مع نفسه، يا الهي هل يمكن أن ينتهي الانسان هكذا في لحظة، من دون أن يتكلم!.

نعم ماذا قلت؟... وعندما رد بالنفي، وانه يتكلم مع نفسه، طلب منه أن يصمت، فالأوامر التي لديه تحتم أن يصمت.

وهل مناجاة الصمت ممنوعة؟.

سأل كمن يريد أن يستمر في الكلام عن أي شيء، ليثبت أنه واعٍ أو انه مازال موجوداً، بعد الشك الذي تسرب الى نفسه من انه يحلم. فجاءه الرد، إصمت والا ستتلقى ما لا تتوقعه، ونحن في الشارع سائرون نحو المصير المحتوم.

***

اعتاد اللواء الركن وليد محمود سيرت، قائد الفيلق الأول، الموجود معسكره في كركوك، مدينة الذهب الأسود. التمرن على الرمي المباشر، بالمسدس في ميدان خاص أعد لهذا الغرض، قريباً من المقر، نهجاً أسبوعياً، ورياضةً عدّها لازمة لإدامة اللياقة العقلية، وإبقاء التركيز دقيقاً، وسعياً لتسجيل رقم قياسي، بدقة الرمي للضباط القادة، من دون اسقاط من الحسابات الخاصة، قراءة كتاب يزيد من سعة الاطلاع، يطور قابليات الحوار، يحسن أساليب الكتابة، وينمي القدرات المعرفية.

يجاوره في خط الرمي، أمين سر الفرع العسكري للحزب السيد فنر شاهر، في محاولة منه تقليد هذا القائد المعروف، بانضباطه وغزارة معلوماته العامة، فضلاً عن العسكرية التي يتقن فنونها بجدارة. لكنه لم يكمل الرمي بحسب المنهج، الذي سار عليه القائد، بعد أن طَلبَ منه سعيد مدير مكتبه، العودة المستعجلة الى المقر، للرد على مكالمة هاتفية من القيادة القطرية. فوجه كلامه الى القائد وليد، مستأذناً السماح بالعودة الى المكتب لأمر هام، واعداً تناول العشاء معاً في المساء.

رد عليه باشارة القبول والعودة الى مقره، بعد آخر اطلاقة سيرميها في الهدف، خلال الدقائق الثلاث القادمة. هكذا هو، دقيق في التعامل مع وقت، يريد استثمار جله من أجل التسلح بالمعرفة، والخبرة التي لا تتوقف عند حدود معينة، بحسب رأي طالما كرره أمام الضباط الذين يعملون بامرته.

لم يتوقف الهاتف الأحمر، الموصول مباشرة بأمانة سر القطر عن الرنين، يحاول المتكلم في معاودته الاتصال كل دقيقة، التأكد جاهداً من عودة عضو القيادة الى مكتبه، وكأن أمراً قد حدث هاماً في بغداد.

مسك سماعة الهاتف بيده اليسرى، أصغى جيداً الى التوجيهات الآتية من الرفيق عضو القيادة القطرية، وزير الدفاع شخصياً، سجل الكلمات بحجم كبير على ورقة، كانت موجودة على سطح مكتبه، وبخط غير واضح، كأن أصابع يده غير مسيطرة على القلم، حتى بات يكرر كلمة نعم، بعد كل كلمتين يسجلها، لغرض إعادة تكرار الأمر المطلوب، فامتلأت الورقة بكلمات قليلة متفرقة، أزاحها جانباً، وتناول أخرى بارتباك واضح، دفع سعيد أن يحملق فيها، بعينين فارغتين من كل معنى، سوى الرغبة في الاطلاع على ما يثير الفضول، وان كان وقوفه الى الخلف بمسافة تقترب من المتر.

تمنعَ عن القراءة خوفاً، عندما فهم مادتها، فحاول إدارة رأسه باتجاه الشباك الجانبي. لكنه عاودها بدوافع الفضول ذاتها، فتأكد أن المكتوب "التوجه فوراً، بصحبة اثنين من أعضاء الفروع، ومدير المخابرات الشمالية، الى مقر الخائن وليد. يتم القاء القبض عليه. يجلب حياً الى بغداد على الفور. لا يسمح له الاتصال بأي شخص كان. هناك ضابط من جهاز المخابرات، سيصل المكتب في الوقت القريب، لديه كل التفاصيل. يجري التنسيق معه لما يتعلق بالتنفيذ".

نعم سيتم إجراء اللازم بمجرد وصول الضابط، قال فنر، ثم وضع السماعة في مكانها، ليأخذه العقل غصباً الى بعيد، كأنه هرب من مكان يتحصن فيه الى آخر مكشوف في البعيد.

فكر في المفاجئة غير المحسوبة التي قد تحدث، وفي كيفية تنفيذ الأمر، وفيما يقوله عند المواجهة المباشرة مع اللواء وليد، وهو العارف به، ضابط صعب وشجاع؟. جلس في مكانه ينتظر ضابط المخابرات، يخطط لما سيقول، وما يتخذ من إجراءات تنفيذ المهمة

العسيرة، لضمان نجاحها بلا إثارة وردود أفعال. بينما وقف وليد في مكتبه بعد عودته من الرمي مباشرة، يتابع تأشيرات الخريطة، مع ضابط ركن الاستخبارات.

قصر قامته النسبي أضاف له مسحة وجاهة، على العكس مما هو معهود. أشرَ بيد يسرى أعتاد استخدامها، بدلاً من اليمنى التي أصيبت بإطلاقة قناص في القتال. سأل عن علامات مميزة، وعوارض جبلية، واشجار متفرقة، ومنابع مياه، كأنه مكتشف يحاول تثبيت، وقائع أدرك وجودها للمرة الأولى، في الطبيعة الكونية الواسعة.

دعونا نشرع، قال فنر الى مجموعته، بعد اكتمال طاقمها، بوصول ضابط المخابرات، في نصف الساعة التي أعقبت استلامه أمر القبض، عن طريق الهاتف. وقبل أن يدخلوا على القائد المعرّف خائناً منذ لحظات، عرجّوا على رئيس أركانه، أوحوا له قرب وصول زائر مهم من بغداد بطائرة سمتية، زادوا من سعة الايحاء بتقريب صورته من الرئيس، فهو الأهم، والأوحد، ومن يريد الاطمئنان على سير العمل في هذا المقر المهم. طلبوا بصريح العبارة، ضرورة إخلاء المقر، من جميع الحمايات الخاصة بالقائد، ورجال الانضباط، كإجراء أمني يهم الرئيس.

نفذ رئيس الأركان من جانبه من دون الحاجة لاشعار القائد، فأخلى المقر من رجال الحمايات والانضباط، وأوقف ضباط المقر في صف عريض، حسب القدم العسكري، إيذانا باستقبال الرئيس. عندها دخل الطاقم على القائد وهو على حاله، واقف أمام الخرائط التي تبين، مواقع قوات فيلقه في عموم القاطع.

أوقف القائد متابعته، أذِنَ لضابط الاستخبارات الموجود معه بالانصراف، ابتسم مرحباً بالرفيق فنر، ومن معه من أعضاء التنظيم الذين يعرفهم باعتباره واحد منهم. أشار لهم بالجلوس:

تفضلوا، أهلا بكم في قيادة الفيلق، الآن سيحين موعد الفطور الصباحي، يشرفنا مشاركتكم ضباط المقر فطورهم.

لم نأتِ الى هنا من أجل الجلوس، قالها فنر بلغة فضة، دفعت وليد القائد المعتد بنفسه الاستفسار بغرابة عن أسباب المجيء، وبلغة مؤدبة فيها قدر من الصرامة. فأجاب فنر، الذي حاول أمام جماعته الظهور بمظهر قوي، من أين يأتي الخير والخونة مندسين بيننا؟.

لا تطيل الكلام، أنت موقوف بأمر من الحزب، تفضل معنا.

رمق وليد مسؤوله عضو القيادة بنظرة تعجّب، لها معان كثيرة. لم يعلق على الكلام الذي ملء الغرفة، استعراضاً قلقاً أبداه الحضور، جميعهم من دون استثناء... اشادة بالقائد الضرورة، وبالحزب العظيم، وبمواقف الاخلاص للثورة والوطن، وكلمات أخرى، ذات معان فارغة المحتوى، كأنها جوفاء، يريد اصحابها تبادل اثبات الولاء فيما بينهم، وان كان مغلفاً بالخوف، وإن كانوا هم في المراكز العليا من حكم البلاد.

مد يده بثبات الى غطاء الرأس "البيريه"، لتكتمل قيافته العسكرية كما هي عادته، ومن بعدها قدم كلتا يديه، بثبات أيضاً، الى الرفيق الذي كان يشاركه الرمي قبل نصف ساعة من الآن، إشارة لوضع الأغلال، معلناً جهوزيته. وهو هكذا، وقبل أن يخطو خطوته الأولى معتقلاً على يد الرفاق، قال بصوت أقل حدة، لقد أستعجل كثيراً.

ماذا تقول؟... لا لم أقل شيئا، أتكلم عن دوران العجلة.
ماذا تقصد؟.
أمور لا يمكن أن تفهمها. قد تفهمها مستقبلاً، إذا لم يطالك غبارها.

صف الضباط الواقف على جنب، في الممر الطويل، بدعوى الترحيب بالزائر المهم، يتصدع نفسياً، حال المشاهدة الأولية لمنظر السائرين، أمامهم في هذه الساعة الصباحية من النهار.

أمين سر الفرع في الأمام، مزهواً بإلقاء القبض على قائدهم، بطريقة لم تحدث من قبل، و لم يقرأوا عنها في تاريخ الأمم والجيوش، ساسة البلاد يأكلون قادة جيوشهم، كأنهم أعداء.

يعقبه هو في المشي، قائد عرف بالجرأة، مكبل اليدين، رافعاً الرأس، وإن وُصفَ من آسريه بالخائن قبل قليل، لا يعترف بتوصيف الخيانة الآتية منهم، رفاق يحسبهم بائسين، و لم يحسبها خيانة بأي حال من الأحوال، هي من وجهة نظره، ومنذ اللحظة الاولى، تصفية حسابات، ومساعي سيطرة على الحكم، وبسط نفوذ مخطط له.

يطوقه في المشي ثلاثة هم أعضاء الفرع، ومدير المخابرات الشمالية.

يدفعه ضابط المخابرات القادم من بغداد، ببندقيته نصف أخمص، كلما تباطء في السير، كمن يريد حرمانه من استعراض، طمأنة جمهور يحبه، أو تفويت الفرصة عليه... فرصة ارادها سانحة لإلقاء تبعة الخيانة على آسريه.

لم يؤدوا التحية التي اعتادوا تأديتها.
لا يمكنهم تأدية التحية.

التحية لا تؤدى لموصوف بالخيانة، بحضور واصفيه.

ولا لمن نزعت رتبته العسكرية، وسيق مكبل اليدين، مطعونا من رفاقه الجلادين.

صوبَّ نظره إليهم، واقفين بلا حراك، مثل تماثيل حجرية، كأنه يريد القول شيئاً لم يفهمه أحد منهم، وإن قرأه البعض وداعاً أخيراً. وقبل أن يبتعد عنهم، دققوا في ابتسامته الشامتة بآسريه، فأخذوا جرعة علاج، لقلق في نفوسهم من التبعات.

لقد تركوه هكذا آسفين، وتركهم هو في وضع، كأن الحزن قد تجمد في قلوبهم حائرين، وبات الخوف دفقات تسري متواصلة، في عروقهم المتيبسة.

موقف صعب، بل أكثر من صعب، أخذ وسطه الرائد الركن فؤاد حسين علي، صديقه الرائد حاتم عبد الأمير الفيحان جانباً. سأله عن الكيفية التي هوى فيها هذا القائد الفذ، مثل سعف نخيل عراقي، سقط بعد يباس.

لم يفهم حاتم قصده، أو لم يريد أن يفهم، وبدلاً من أن يفهم، طلب التستر على القول والمشي جانباً، مردداً العبارة الشائعة في العراق، من أن للجدران آذان.

حاول فؤاد الإبتعاد عن الجدران، والتحسس من سماعها للكلام، بالخروج معاً الى الباحة المجاورة، بحجة انقطاع النفس، وقرب الشعور بالاختناق، وأجاب عن السؤال الذي وجهه قبل قليل قائلا:

لقد هوى هذا الضابط العظيم، بسبب تاريخه العسكري الفريد، إنه الأول في تخرجه على دورته في الكلية العسكرية البريطانية "سانت هيرست" وكذلك الأول على كلية الأركان العراقية. أجاد اللغة

الإنجليزية بطلاقة، فهم العربية بحرفية عالية. ألف في العلوم العسكرية كتباً، وكراسات عدة بعد تخرجه مباشرة. ألمَّ بصنوف الجيش وتعاليمها أكثر من أصحابها. عشق مهنته، بات فيها معلماً من الطراز الأول. أحب عائلته وأخلص لها. قدَّر أصدقائه القليلين. آراءه عن التوازن والردع، وعن الطبيعة، والتاريخ، وعلوم النفس، والاجتماع تبهر سامعيه، تثير احترام العارفين، وعداء الجهلة الوصوليين والانتهازيين. ثم عاود طرح السؤال:

هل عرفت، لَمَ هوى هذا النجم اللامع، وسط الظلام؟. فأجابه:

أن هذا الكلام خطير، يأمل عدم تكراره أمام أحد سواي قال حاتم، ومع هذا قد يكون ما حصل نتيجة اشتباه، وقد يعود قريباً الى مقره، خاصة وان القيادة لا تفرط منطقياً، بقائد كبير مثل اللواء وليد.

لم يؤيده في هذا الرأي، أكد وهماً يتلبسه في هذا الجانب على وجه الخصوص. ولتعزيز وجهة نظره الخاصة بالوهم، قص عليه ما سمعه من خاله اسماعيل حنتوش، الذي ولد في الكرخ عام 1900، وعاش معهم عازباً في البيت القديم بسوق حمادة، من أن صناعياً من أهل الكرخ، كان ماهراً في صنعته. عكف على صنع بندقية تشبه بندقية البرنو الألمانية الشهيرة. أهداها الى الملك فيصل الأول الذي كرمه على صنعها.

سأل حاتم، وما شكل العلاقة بين الموضوعين؟... فطلب فؤاد التريث، وعدم الاستعجال حتى أنتهاء القصة. وأكمل، ان الصنائعي الماهر، مات في السجن بعد تكريم الملك بشهور، بتهمة التجسس للألمان. ومن ذاك اليوم، لم نسمع أحداً في العراق صنع بندقية، أو

حتى إبرة لها، وسوف لن نسمع من الآن فصاعداً، عن قائد متميز وعالم كبير. منهياً كلامه، بالتأكيد على عدم عودة القائد، لأن وجودهُ عالماً، وضابطاً جيداً أصبح عائقاً أمام تسلق الأقل منه قدماً، ومنزلة من باقي الضباط.

فؤاد، أنت تهذي، ماذا تقول؟.

دعنا ننتظر الأيام وسنسمع العجب.

القائد سيقدم حياته ثمناً لقدرات عالية، وسط صفوف من الجهلة، وصائدي فرص انتهازيين.

ما زلت تهذي.

رد وعيونه كادت تدمع حزناً على قائد، وبلد بعبارة قصيرة "وما فائدة الهذيان سوى الترويح عن النفس، التي خارت قواها من وقع الصدمة".

***

الحاكمية

يهجر الأصحاب معبدهم، أو في واقع الحال يجبرون على هجره عام 1964، يرى أهل المقامات العليا عدم الحاجة الى المعابد في دولتهم الاشتراكية الرشيدة، وحسماً لأمر التهجير تم التلويح باستخدام القوة، ناعمة في مناقشة جرت مع أولئك الأصحاب قبل سنين، اتهموا فيها بامتداد ديانتهم الى بؤر الاعداء، وعدم انسجامها مع التوجه القومي للبلاد، فهجروه صمتاً قبل طلوع الفجر.

يأمر النائب في الدولة الجديدة وبعد عشر سنين من التهجير بمصادرة المعبد والاستيلاء عليه ليلاً، يتفاجئ السكان القريبين أن البناء التاريخي قد تحول الى مقر تعج فيه الحركة، تدخله سيارات، تحمل أشخاص معصوبي العيون، لا يخرجون منه أبداً... بناءٌ باتت حيطانه القديمة وحدها، شاهداً على أمنيات التفاهم بين الأديان.

قال رجل المخابرات، نسيب الرفيق جمال في الجلسة التي سره فيها عن التحقيق مع السيد محيي المشهدي، أنه وفي اليوم السابق لحفل قاعة الخلد، شهد المعبد ترميماً، وحركة بناء سريع لغرف بمقاسات فيها العرض ثمانون سنتمتراً، والطول متراً واحداً، لم يحصِ عددها، مكتفياً بالقول أنها كانت كثيرة، تسع الواحدة منها شخصاً واحداً، تشبه سراديب الدفن المصرية القديمة، لكنها أضيق بكثير.

قال جمال، وهو مازال يمتلك بعض الوعي، إن صاحبنا يعشق الحاضر بمقدار كرهه للتاريخ.

لماذا قال، قوله هذا وهو حزبي كبير؟.

لعل السيطرة على المعبد التابع الى البهائيين، وتحويله، قسماً تابعاً لحاكمية المخابرات هو السبب.

ومع هذا ورغم بعض الآراء المتباينة للثلاثة، الساعين الى النوم في الربع الأخير من الليل، جاءت متفقة أن المكان هذا سيكون محطة، لمن يراد تسفيره الى العالم الآخر من المتهمين بالمؤامرة بلا ذكريات.

الذكريات ستُطمَرُ بين جدران تلك الغرف المشيدة، مثل القبور التي لا يرى أصحابها النور.

المذنبون بالفعل وأولئك المرشحون لأن يكونوا مذنبين، جميعهم يسفرون منه، بناءً يتبع حاكمية، باتت وحدها قادرة على اكتشاف الذنب، وايقاع فعل التسفير، وهي وحدها مخولة من النائب، الذي أصبح رئيساً، بصياغة التهم التي ترفع أصحابها لمراتب الذنب. كثير من الذنوب جاهزة، عبئت في أوعية مدفونة في قعر الذاكرة الخاصة به، قبل عدة سنوات من امتطائه صهوة الرئاسة، حتى وجدت لها منفذاً للخروج، في أول يوم جلس فيه على كرسيها الساحر، بل ذكر السيد حمزة الذي غادر الطاقم الخاص بالضيافة الرئاسية، أن بداية خروجها كانت في اللحظة التي جلس فيها الرئيس الجديد على ذاك الكرسي المسحور، وأضاف على قوله قولاً، من أن الرئيس كان مقتنع تماماً بتثبيت الذنوب، سبيلاً لإعادة تشكيل السلوك الخاص بالعراقيين وحدهم.

سلوكٌ يريده خال من الذنوب.

ليس كل الذنوب.

فقط تلك التي يراها هو من جانبه ذنوب.

وأكد أن هذا كان واضحاً في آرائه التي كان يطرحها، على الرئيس البكر عند اللقاء به، حتى سمعه مرة عند تقديم القهوة لهما سوية باقتراح، انزال درجة وزير الى مدير عام لتماهله في ترقية موظف طلب هو ترقيته، وسمعه مرة أخرى يطلب إعدام عبد الخالق السامرائي، وعندما رفض البكر طلبه هذا، متحججاً بالقيادة القومية وقبوله رجائها، تخفيض العقوبة الى السجن المؤبد، أكد له بعصبية، أن السامرائي رأس الأفعى في جسم الحزب، ستبقى تتحرك في داخله تآمراً، يشمله شخصياً كرمز للثورة وأب قائد للعراق، لكن البكر لم يلين أمام الضغوط الآتية من رفيقه النائب، على غير عادته هذه المرة، حتى أجابه، ما الضير من وجود عبد الخالق حياً يشم الهواء، سجين انفرادي، معزول عن العالم، لا أحد يتصل به ولا يتصل بأحد. عاتباً عدم الموافقة على مواجهته من الوالدة التي يعرفها قادة الحزب جميعهم، وكذلك هو شخصياً. يرى في الموقف السياسي المحلي والاقليمي عاملاً لا يسمح بالاعدام، طالباً تركه على حاله، يشيخ في سجنه أو يموت كمداً في القريب، ويتخلص الحزب من عبء وجوده على قيد الحياة.

يكمل الرفيق جمال حديثه المنقول عن السيد حمزة، بالإشارة الى امتعاض النائب آنذاك وتركه مكتب الرئيس، دون احتساء فنجان قهوته، وأضاف، عندما ناداه البكر أن يعدل عن زعل في داخله، لم يجبه، واستمر خارجاً بخطوات سريعة، كأنه يفكر بشيء ما.

***

تحقق الحاكمية وحدها في موضوع المؤامرة بأمر من الرئيس. شخوصها الآتين من قاعة الخلد، والمطار والدوائر الحكومية، ومساكن مسجلة عناوينها بدقة في سجل المخابرات، مذنبين أو مرشحين لأن يكونوا هكذا. توزعوا على الزنازين التي بنيت حديثاً على شكل قبور، وضعت لها أرقاماً إزاء كل واحد منهم رقم خاص.

محمد عايش، المذنب رقم واحد في الزنزانة الرقم (1)، يأتي من بعده أعضاء القيادة والكادر المتقدم للحزب، مدنيين وعسكريين. لا أحد منهم يعلم فيما إذا كان مذنباً حقاً، أم هو مرشح لأن يكون ممثل لهذا الدور، بعد أن كون المجيء الى الحاكمية، وأسلوب التحقيق، وكثر الاهانات، وشدة التعذيب صدمة أفقدتهم أصحاب مقامات، القدرة على إدراك الواقع. ثم إن الهيئة الخاصة بالتحقيق لا توجه التهم، لا تعطي الأمل في إثبات البراءة، هي من تقرر الذنب بالتأسيس على ما مكتوب، في القصاصات الاتية من صاحب المقام الأعلى السيد الرئيس، عبر رئيس الجهاز الذي أعاد تشكيل الحاكمية، وعزز كادرها بقضاة، ومحققين، شباب من الجيل المفعم بالحيوية الانفعالية، يؤازرونه كل الوقت. أبقى معهم القليل من الجيل القديم، المحسوبين في الأصل على خط النائب الذي أصبح الرئيس. هم المعنيون بتثبيت الذنوب، لمن يفد إليهم من اتجاهات متعددة. أسئلتهم محددة لا تتعدى الكيف ولماذا؟.

تصل سيارة "البيجو" الى الحاكمية، في وجبة تعد الأخيرة في حسابات الوقت، حيث المطلوب اتمام المحاكمة، واعلان الأحكام مساء هذا اليوم السابع من من آب.

دفع أحدهم العقيد الركن سرمد عبد اللطيف، عضو الفرع العسكري، آمر الكلية العسكرية، الى الزنزانة المعرفة بالرقم عشرة،

بعد وصفه بالخائن إبن الخائن. أكد له أن هذا المكان هو الـــذي أراد معرفته طوال الطريق، طلب منه الانتظار حتى يأتي دوره، ويتم تقرير مصيره الذي سيكون جهنم بعون الله.

لكني بريء. أريد عرضي على الهيأة التحقيقية الآن، قال سرمد. فأجابه مستغرباً هذا الاستعجال، وان أمره سينتهي في القريب، حيث لا مجال للتأخير، خاتماً اجابته بسؤال،

لماذا الاستعجال؟.

ساعة كانت هي الوقت الذي يفصله عن المثول أمـــام المحقـــق الشاب، ضرب فيها الأخماس بالأسداس. تذكر أيامه عنـــدما كـــان مديراً للشعبة الثالثة في الاستخبارت العسكرية، وتذكر كيف كـــان غالبية القادة، يتواجدون عنده، يفدون اليه، يتكلمون عن أحلامهـــم في المستقبل المضمون، لبناء أمة تعيد مجدها من جديد. وكيف كانوا متلازمين، تربطهم علاقات أقوى من هذه الموجودة الآن.

سأل نفسه، لماذا تآمر محمد عايش؟.

لماذا جيء به الى التحقيق، وهو بعيد عن هذا التآمر؟.

استغرب تسارع الأحداث، وكيفية حصـــول الاتهـــام، وهـــو موجود بالأمس، يدير ندوة حزبية عن التآمر والمتآمرين.

عاد بذكريات الاستغراب الى العلاقة مع رئيس الجهاز الجديد، وجد أنها طبيعية، اذ كان له عوناً في تقديم الـــدعم المهـــني، عنـــدما مُنح رتبة ملازم، وعين آمراً لفصيل حماية المجلـــس الـــوطني، الـــذي يتخذه النائب مقراً له قبل سنوات قليلة من الآن، ويتذكر بالتفصـــيل التنسيق معه، لما يتعلق بتنفيذ العديد من طلبـــات النائـــب الامنيـــة آنذاك.

يستمر بالتفسير والتأويل، وعندما أقترب من الوصول الى نهاية تتعلق باحتمالات حصول اشتباه، فتح باب الزنزانة اثنان من أصحاب الأجسام الممتلئة، صحباه الى التحقيق.

***

غادر الزنزانة غارقاً في بحر متلاطم من الحيرة، كأنه فقد الاتجاه، وسط صحراء التيه، بات يجر جسده، يخفق صدره، لا يشم الهواء. قليل من الهواء يصل الرئتين فيحدث صوتاً يقترب من صوت الشخير، أحسه خطاف مسك مجرى التنفس، سيخنقه في الطريق.

يجلس المحقق خلف طاولة معدنية، سطحها خالٍ الا من مجموعة أوراق بيضاء، وقلم حبر أسود، ومصباح بوهج قوي مصوب الى عينيه، مذنب لا مجال لاثبات براءته.

سأل المحقق أولا، عن الاسم كاملا.

لهث قبل أن ينطق اسمه، سرمد عبد اللطيف.

استفسر بسؤواله الثاني عن دوره في المؤامرة، فلاذ بالصمت المطبق. حاول استعادة ولو قليل من توازنه بغية الرد على هذا السؤال، الذي لا يعرف له إجابة. كل ما يريده الآن وفي هذه اللحظة، أن يتسلل هذا السؤال في غفلة عما يجري من حوله، ليمر في قنوات التفكير التخاطري لهؤلاء الشباب، وربما باقي أعضاء القيادة غير المدرجين في القوائم التي أعدت للمذنبين، علهم يسألون عن الذي جرى ولماذا يجري. وأمام لحظة من عمره هي الحد الفاصل بين الحياة، والموت أجاب بأن لا دور له في المؤامرة، و لم يعرف عنها شيء يذكر.

لكنك ألتقيت المجرم، وليد سيرت في مقرك بالكلية العسكرية يوم 1979/4/3، فهل هذا صحيح؟.

تأخر في إجابته قليلاً، جمع دفعات من الهواء الذي وصل الرئتين، من محاولات تنفس متعددة، بغية الحصول على قدرة تكفي للنطق بالإجابة، التي يراها سليمة، فجاءت الاجابة بنعم، مع تعليق للتوضيح ذا صلة بزيارة عديد من القادة الى الكلية العسكرية، أثناء اجازاتهم أو في حالات تواجدهم في بغداد، الجميع ينظرون اليها مفخرة، لابد من دعمها لتبقى هكذا مفخرة للجيش العراقي.

توقف ليأخذ نفساً، يستجمع منه مزيد من الهواء، وأكمل قوله، لو تشاء الذاكرة لسطرت على الورق كل الزيارات، وستكتشفون بتسطيرها أن جميع الرفاق من أعضاء القيادة قد زاروها مرة أو أكثر، بضمنهم السيد الرئيس.

لم أطلب منك التبرير. عليك الاجابة فقط على قدر السؤال، لا داعي للاسهاب، لا وقت لدينا لسماع كلام لا علاقة له بالموضوع. هذا ما أراده المحقق الشاب رداً على التعليق.

تزداد ضربات القلب، فتسارع معها التنفس، عندها حاول التشبث بحافة الكرسي الذي وقف خلفه. وخشية السقوط رجى الجلوس على هذا الكرسي الملاصق للطاولة الحديدية، لشعور بالتعب من ارهاق قد أصابه. طلب المحقق في سؤال جديد ما دار في اللقاء الذي تم مع المجرم وليد.

لا أتذكر ما دار في لقاء حصل قبل ثلاث شهور من الآن، لكن الغالب منه كان عابراً يتعلق بالتدريب ونظرياته وإعداد الضباط، مسائل يهتم بها اللواء وليد.

فتح بإجابته هذه مساراً لأسئلة أعتقدها المحقق مناسبة، لسحبه الى نقطة يريدها اعترافاً، مكتوباً بالمشاركة في المؤامرة. هكذا هي التوجيهات، فسأل عن طبيعة المسائل التي جمعتهم سوياً، اثنان من المتآمرين أعترف الأول بجريمته النكراء. فأجاب أنها تتعلق بالتدريب والتأهيل، لا غير.

لكن المعلومات التي زودنا بها المجرم وليد حول اللقاء المذكور، تتعلق بمفاتحته لك الاشتراك في المؤامرة، ووعدك عند نجاحها بمنصب وزير الدفاع، تعليقٌ من قبل المحقق، أجاب عليه:

لم أتكلم يوماً عن مؤامرة، ثم أني لا أقبل في الأصل مثل هذا الكلام، لأني كادر متقدم في الحزب لثلاثة عقود ونصف، ولأني كذلك، ولأني ملتزم بالمبادئ، فلا يمكن أن أسمح بهكذا ترهات مطلقاً. عسى أن يواجهني من يقول غير هذا لاثبات صحة ما أقول. عندها فاجئه المحقق بحتمية ذكر الأسباب التي حالت دون إخباره القيادة شيئاً عن المؤامرة، وما دار حولها من كلام. فرد بعصبية واضحة، قلت لم يدور بيننا مثل هذا الكلام، ولا يمكن أن أسمح به.

لم يدقق المحقق الشاب بالإجابة، أوحى بعدم الاقتناع. حاول فقط اثبات دقة استنتاجاته بواسطة تذكيره بشهود يثبتون صحة ما دار بينهم اثنان من المتآمرين. ومع هذا قفز من هذا الموضوع الذي أبقاه من دون إثبات، الى آخر بطريقة تبين، وكأنه يريد قضاء الوقت، أو يعمل بدوافع تؤكد لهم مثبتة في الأصل، معلناً عن آخر سؤال. أنتهي عند إجابته الصحيحة هذا التحقيق. سؤال تعلق بالوجهة التي قصدها بعد مغادرة الخائن وليد بناية الكلية العسكرية. فأجابه كانت مقر الفرع العسكري، التقيت هناك الرفيق زهير الذي

كان قادما من مقره في منصورية الجبل، لالقاء محاضرة عن الـــدروع في المعارك الحديثة.

يفتعل المحقق أنفعالاً غاضباً، طلب توضيحاً عن غايـــة اللقـــاء بزهير، وهو أحد المشاركين الرئيسيين في المؤامرة بمهمة قوامها تحريك فرقته العسكرية بأسلحتها المدرعة الى بغداد ساعة الصفر.

هنا أدرك سرمد، كون التنويه المفصل للحقيقة لا ينفـــع في هـــذه الحاكمية البلهاء، فبدأ الدق على وتيرة الإخلاص وخدمة الحزب، مؤكداً أن زهير صديق عمل معه فترة طوية، والتقاه صـــدفة. وأدرك أيضـــاً أن المحقق، وربما الأعلى منه في الجهاز لا يفتشان عن الحقيقة، فأعاد الإصرار على افادته، بعدم معرفة أي شيء عن المؤامرة، وعن المشاركين فيها.

وهو كذلك مستمر في الكلام عن الثورة والإخلاص، قوطـــع بضربة على مؤخرة الرأس أسقطته فاقداً القدرة على النطق، وعنـــدما أفاق وَضعَ توقيعه على الافادة المعدّة مسبقاً، إذ لم يتردد لحظة واحدة في وضع توقيعه في المكان المطلوب، وأكثر من هذا كان مستعداً بعد تلك الضربة أن يعترف، أمام حشد من الناس في شارع عـــام أنـــه متآمر، وإنه قد تلقى مالاً من الجهة التي يحددونها له.

هكذا هي لعبة الاعتراف بالذنوب المكتوبة، على قصاصات من الورق.

حاول سرمد، بعد أن وضع توقيعه على الاعتـــراف المكتـــوب مسبقاً، التخفيف من وقع الرغبة في الاستجابة للاعتراف، وســـرعة وضع التوقيع في المكان المطلوب، بالتكلم مع النفس:

لو كانت أية جهة غير الحزب طلبت مني هذا، لما وقعت هـــذا الاعتراف وبهذه السرعة.

نعم ماذا تقول؟... لا شيء. أحمد الله أن المؤامرة قد أُكتشفت، وحمى الله الحزب وقيادته والسيد الرئيس.

الاجابة الحقيقية لا تنفع، والمحقق لا يود ذكر ما يتعلق منها بطبيعة الزيارة، ودوافعها الحقيقية.

أكتفى بما تحقق.

أعاد قلمه الى مكانه على الطاولة، إيذانا بانتهاء التحقيق، وقفل المحضر بتثبيت عبارة "علم بالمؤامرة و لم يبلغ عنها".

أما هو فقد أخذته الذاكرة الى أيام السجن، الرقم واحد عام 1964، والغرفة التي قضى فيها شهوراً، جوار الغرفة التي سجن فيها كريم الشيخلي والرئيس، وصديقه القريب طارق حسين، والى ما كان يقوله صدام آنذاك من أننا، وحال حصولنا على حكم العراق، سنوقف الظلم، سنهدم السجون، سوف لن نبقي سجيناً سياسياً في الدولة التي اليها نسعى. عند هذا المقطع من مادة الذكرى أحس لسعة في خلايا عقله، مثل تيار كهربائي قد سرى في ثناياها، ختمها بسؤال لنفسه، كيف كنت غشيما أصدق كل ما يقال؟.

أقتنع تماماً أن الافادات، تكتب بضوء الذنوب المثبتة على قصاصات كانت ترد تباعاً، وقد لا تكتب أحياناً لضيق الوقت، فالنتيجة واحدة قوامها، مرور محتوم من دهاليز التحقيق الى قاعة المحكمة، عبر نفق تفوح منه رائحة الموت.

***

المحكمة

هناك في نهاية النفق غرفة كبيرة، أو بالأحرى قاعة صغيرة، وضعت فيها عدة طاولات متلاصقة مع بعضها بعضاً. جلس خلفها رئيس المحكمة التي شكلت بقرار لمجلس قيادة الثورة، السيد نعيم حداد عضو القيادتين القطرية والقومية، والى يمينه السيدان حسن العامري وتايه عبد الكريم، عضوا القيادة القطرية، وسعدون شاكر الرئيس السابق لجهاز المخابرات، وشماله يجلسان على التوالي السيدان حكمت العزاوي، وعبد الله فاضل عضوا القيادة، وسعدون غيدان وزير المواصلات، وهناك في الزاوية القريبة للقاعة وُضع كرسي مميز، اتخذه برزان رئيس الجهاز محطة استراحة، للجلوس عليه عندما يشعر بالتعب من التجوال بين غرف التحقيق، والهمس في آذان الأعضاء المنسبين الى هيئة المحكمة، ومراقبة التصرفات بقوة تتطلب استنزاف جل الطاقة.

سيدي الرئيس، لقد أكتمل التحقيق، كان آخر الافادات التي تم ضبطها للخائنين طارق حسين، وسرمد عبد اللطيف، اللذان اعترفا بعلمهما بالمؤامرة وعدم الاخبار عنها، هذا ما قاله رئيس الجهاز لرئيس جمهوريته عبر الهاتف المباشر بينهما. وقبل أن ينهي الرئيس كلامه، بارك جهوده والآخرين في إتمام ما مطلوب على أكمل وجه، وأردف قائلاً:

ان الشعب العراقي العظيم تواق لأن يسمع عن المؤامرة والخونة، والمصير المحتوم هذا اليوم، وإنه ينتظر تمام الخبر، في مكتبه الذي لن يغادره، إلا بعد اتمامه كما يجب أن يكون.

***

تعقد المحكمة الخاصة جلستها الأولى في الساعة الثامنة مساء اليوم السابع من آب، وهي كذلك الأخيرة، بعد اكتمال التحقيق مع الأشخاص المسجلة أسمائهم، في القصاصات المكتوبة بالحبر الأحمر، وتثبيت الذنوب كما وردت مكتوبة أيضا بالحبر الأحمر:

اشتراك فعلي في المؤامرة.

التستر على المؤامؤة.

التعاطف مع المشاركين في المؤامرة.

بعدها وُضع المذنبون، وغير المذنبين في طابور، وكأنهم يسيرون في رهط عسكري، يتقدمهم عبد الخالق السامرائي، ومن بعده مباشرة محمد عايش.

لقد تحولوا في هذا الطابور اللعين، من رفاق في الحزب وسادة في مناصب الدولة الرفيعة، الى أخوة في المصير المجهول... لعل روابط المجهول في السير على طريقه، أقوى أثراً من رفقة السياسة، وأمنياتها الساذجة، في تحقيق الغد الأفضل لكل أبناء الأمة، قالها السيد عبد الخالق حال الوقوف.

التفت اليه محمد عايش من دون تردد قائلاً، أي أمة هذه تقدم مناضليها، قرابين لمقدم رئيس مزور.

يقفُ كل واحد منهم، أو يُوقف أمام الشباك الفاصل بين ممر يسير فيه الطابور، وبين هيئة المحكمة بكامل أعضائها السبعة، يتلقى سؤالاً واحداً فقط من رئيس المحكمة حصريا، هل لديك شيئاً تضيفه، الى ما قيل في التحقيق؟.

يصل دور التحاكم من خلف الشباك الى، السفير جعفر الذهب، المعروف بهدوئه المعهود، وترفعه على صغائر الأمور. كرر رئيس المحكمة السؤال نفسه فأجاب أن أحداً لم يحقق معي حتى هذه اللحظة.

أستغرب رئيس المحكمة، وباقي الأعضاء من هذا الادعاء، تصوروه كاذباً، فنهره على كذب جاء مغايراً لنتيجة التحقيق المعروض أمامهم، إعترافاً بذنب وصف بأنه عدم التبليغ عن المؤامرة، والتعاطف مع المشاركين فيها.

ومع هذا أعاد دعواه ثانية.

سيدي الرئيس، أقسم بالعقيدة التي آمنت بها طوال حياتي، لم يقترب مني أحد، لم يسألني أحد، لم يقابلني أحد، منذ القبض عليَّ بعد نزول الطائرة في مطار بغداد.

حاول رئيس المحكمة التأكد، أو بالحقيقة الخروج من المأزق، الذي وُضعت المحكمة فيه، فالتفت الى باقي الأعضاء، كأنه أراد تجاوز هذا الحرج، الذي لم يكن في الحسبان. ينقذه رئيس الجهاز من هذا الحرج، بملاحظة أبداها سريعاً بالقول، لقد فقد المجرم جعفر عقله، من جسامة الاثم الذي ارتكبه، حتى لم يعد يتذكر، ولا يميز بين الواقع والخيال. المحقق الذي حقق معه، وثبت أقواله موجود، يمكن أن يدلي بشهادته أمام المحكمة اذا ما طلبتم ذلك.

انفرجت أسارير رئيس المحكمة، والأعضاء وكأن حملاً قد أزيح من على صدورهم، كان جاثماً على أنفاسهم، فاستجاب لملاحظة رئيس الجهاز على الفور، بتأكيد فقدان العقل في كثير من الأحيان، وعدم الحاجة الى شهادة المحقق، ومن بعده طلب من الحرس سحبه، ليقف منتظراً النطق بالحكم مع من سبقه في الطابور.

يمر طارق من بعده مباشرة، أوقفه الحرس عند حافة الشباك، سأله رئيس المحكمة فيما إذا كان لديه ما يضيفه الى ما قيل في التحقيق:

نعم.

يتدخل السيد العامري عضو المحكمة، سأل وقبل سماع ما يريد طارق اضافته، ممكن تبين للمحكمة، دوافع الدعوة التي أقامها لك محمد عايش، وحضرها المجرم وليد في نادي الخارجية، قبل ثلاثة شهور من الآن؟.

شعر عندها بالحنق من هذا السؤال الذي أحسه ساذجاً، جاء لمجرد تثبيت الذنوب، فكلمه بقدر من الانفعال الغاضب، مذكراً إياه أنهما قد التقيا على العشاء في بيته بعد عشاء محمد عايش بأيام، ولو تصادف أنه قد ظهر متآمراً، فهل يعني أن من شاركه العشاء ذاك اليوم يكون متآمراً بالضرورة؟.

ابتئس العامري، أكد اختلاف المسألة، استعرض ماضيه ومواقفه المختلفة، عن محمد عايش، المتآمر الذي خان الحزب والثورة، وجعل نفسه ذيلاً الى حافظ الأسد، وبقيّ هو مخلصلاً للرئيس.

يتدخل رئيس المحكمة، محاولاً تهدئة الحال، رافضاً أي أنفعال، وذلك بالقول، ان المحكمة تنظر بالتهم الموجودة وبنتائج التحقيق، لا

صلة لها بالعلاقات الشخصية، مكرراً السؤال ذاته للمرة الثانية، هل لديك شيئاً تضيفه الى ما قيل في التحقيق؟.

لا، ليس لديّ أي شيء.

عندها أشار على الحراس بزجه مع الذين سبقوه بانتظار القرار. فدخل معهم في صف ينتظر المصير المحتوم... صف من كبار رجالات الحزب تم ترتيبه حسب التدرج الحزبي، ومقادير الحكم المذكور في القصاصات.

خمسة وخمسون شخصاً قيادياً.

تقدمهم في الصف الاول عبد الخالق السامرائي عضو القيادتين القومية والقطرية. المفكر، الملقب بالملا، كما كان يحلو لبعض الرفاق تسميته، لكثر التزامه بالمثل العليا. ومن بعده أعضاء القيادة القطرية غانم عبد الجليل ومحمد محجوب، ثم محمد عايش ومحيي عبد الحسين، وعدنان حسين.

يأتي هو في الصف الثاني وبجانبه مرتضى سعيد عبد الباقي والسفير عزام على جهة اليمين والعقيد سرمد على جهة الشمال. ومن بعده في الصف الثالث صديقاه السفيران حامد وحليم وجعفر، وآخرين من أصدقائه لم يتوقع وجودهم في هذا الصف المرصوص.

لم يأبه محمد عايش لما حصل، وكذلك الحال بالنسبة الى الملا عبد الخالق، الذي جيء به من الزنزانة الانفرادية مذنباً، كلاهما وغالبية المذنبين باتوا يعرفون النتيجة. ينتظرون نهاية النطق بالحكم كأنه أمر محتوم، لم يكن يتوقعوه جميعاً، حكماً بالاعدام.

يأخذ رئيس المحكمة ورقة، من بين أوراق تكدست على طاولته، كأنها وضعت تماشياً مع الطقوس اللازمة للمحاكم التقليدية.

بات يتلو الاحكام تباعاً.

لم ينتبه أي من المذنبين الا على اسمه.

عجز جهاز السمع لجميعهم أن يسمع غير اسمه، حتى لم يعد يتذكر من هم المحكومون وماهي طبيعة الأحكام.

نطق رئيس المحكمة باسم عبد الخالق السامرائي، ومن بعده محيي عبد الحسين المشهدي حكما بالاعدام، فسمعه فاضل العبيدي، الواقف الى جواره في صف المذنبين يقول" هذه كلمة الشرف التي أعطيتموني اياها" وسكت.

لقد استمر رئيس المحكمة في تلاوة قائمة المحكومين بالاعدام مستعجلا، كمن يريد التخلص من عبئ قراءتها، اثنان وعشرون مذنباً، أولها الملا وآخرها غانم عبد الجليل.

يحمد غير المحكومين بالإعدام خالقهم، على عدم ورود أسمائهم حتى هذه اللحظة، التي توقف فيها رئيس المحكمة عن تلاوة الأسماء. لكنهم غير مطمئنين لما بعد من أحكام ستاتي بها المفاجئات.

تنتهي قائمة المحكومين بالإعدام، يُسحبون من القاعة الى زنازينهم، مثل أضاحي العيد. في الطريق اليها، وقبل اتمام الخروج من هذه القاعة المحكمة، ابتسم الملا عبد الخالق ابتسامة باهتة، نظر في وجه أعضائها الجالسين في أماكنهم بثقة من يتحداهم، سمعه أحد الحراس يقول، لمن كان بعده في رتل المسير، فتركه عمداً يقول، لقد تمنيت هذا اليوم منذ اللحظة التي اتهموني فيها خائناً بمؤامرة ناظم كزار قبل ست سنوات، مؤامراتهم جاهزة، لازاحة من يريدون ازاحته عن طريقهم، وسيبقون هكذا يتآمرون، ويتهمون الغير بالتآمر، لينهوا الحزب وبنهايته سينتهون، موتنا هو البداية، لقد فتحوا

بفعلتهم هذه أبواب الموت، ستبقى مفتوحة، وسيدخلون منها واحداً، تلو الآخر.

فكر الحارس لحضتها بضربه، أو التبليغ عن قوله، لكن وخزاً من الضمير في داخله أسكته، وأحل محل فكرة التبليغ هذه، فكرة أخرى أو مخاطبة النفس بجملة واحدة، ما فائدة التبليغ والرجل سائر الى حتفه في القريب، ولما سلمه البدلة البرتقالي، التي تميز المحكومين بالاعدام عن غيرهم، قال له، لقد سمعت ما قلته أثناء الخروج من قاعة المحكمة، فأجابه، ياليت أُسمعُ أقوالي الى كل العراقيين، ولو سمعوها كما أقولها، لم حصل الذي حصل... خذ بالك من نفسك، ومن الوحوش الذين يحيطون بك، فبوابة الموت قد فتحت مصاريعها.

***

يخيم الصمت على قاعة المحكمة، وكل الموجودين في داخلها من أعضاء، وحراس، وضباط مخابرات، وباقي المذنبين، صمتٌ مخيف، يشبه ذاك الحاصل قبل الفجر في وادٍ تملأه القبور.

صمتٌ تبدد بإشارة من رئيس المحكمة، وبتلاوة أحكام بالسجن أعلاها خمسة عشر عاما للسادة مرتضى الحديثي، وحسن محمود وطاهر حبيب، ومن بعدهم غسان مرهون اثنا عشر عاماً، وهكذا توالت الاحكام لتشمل السفير جعفر، سجنا لعشر سنوات، وإن لم يتم التحقيق معه، أو ضبط افادته في الأصل.

توقف عند السيد طارق حسين، كأنه لا يريد النطق.

استدرك حاله.

أكمل تلاوة الحكم سبع سنوات. ومن ثم استمر الى آخر القائمة سنة سجن للسيد كامل محمد.

يتنفس المذنبون المحكومون بمدد مختلفة الصعداء، وان احتجوا في داخلهم على الاشتراك في مؤامرة هم ليسوا طرفاً فيها، وتيقنوا الآن بعد تلاوة الحكم أنها غير موجودة.

عند هذا الحد توقف رئيس المحكمة قليلاً، كأنه يمهد الى الفصل الثالث من السيناريو المعد مسبقاً، ثم أكمل مقطعاً كان مكتوباً على ورقة منفصلة" الحزب لا يظلم أحداً من رفاقه أو من غيرهم. العدل أساس الملك. لقد أوصانا السيد الرئيس حفظه الله ورعاه، أن نلتزم العدل سيفاً حاداً. الباقون الذين سأتلو أسمائهم أبرياء، لعدم كفاية الأدلة".

- الرفيق حاكم حافظ.
- نعم.
- براءة.
- يحيا السيد الرئيس العادل.
- اللواء رافد الفنداوي.

لا أحد يجيب، كأن السيد اللواء غير موجود، أو موجود في عالم آخر، الأمر الذي دفع رئيس المحكمة الى تكرار ترديد الاسم ثانية، لكنه لم يحصل على الاجابة أيضا. فتقدم شخص كان وقوفه قريباً من بقايا الصف المرصوص، بعد تلقيه إشارة من رئيس الجهاز. سأله فيما إذا كان هو اللواء رافد. أجاب بنعم، أعقبها بكلمة سيدي، وان لم يميزه ضابطاً كان، أو مدنياً، وان كان عمره لا يتعدى الثلاثين عاماً، ورتبته حتى لو كان ضابطا، لا تتعدى الرائد بحسابات الزمن، والتسلسل الرتبي في الجيش، والأجهزة الأمنية.

لماذا لم تجب السيد رئيس المحكمة عند ذكر اسمك؟، هل أنت أطرش؟... فرد بعد الاستفاقة، بلغة فيها قدر من الخنوع، سيدي والله العظيم، لم أسمع، كنت أفكر بعظمة عطف السيد الرئيس، ورعايته الحزب والرفاق، أقسم بشرفي لم اسمع، سامحني سيدي لأني لم أسمع.

كان السيد رافد مصاب بالذهول عند سماعه البراءة، لما تبق من المتهمين، فجاءته صفعة من كف الشاب على وجهه، الذي كثرت فيه أخاديد الشيخوخة، جعلته يندفع بتكرار كلمة نعم سيدي عدة مرات.

أنهى رئيس المحكمة تلاوة أسماء المشمولين بالبراءة، على وفق السيناريو المكتوب، فتقدم السيد الحمداوي خطوة، خرج فيها عن الصف، أثار أنتباه الحراس المتأهبون، وكذلك رئيس الجهاز، هتف بحياة الرئيس، ملأ القاعة صراخاً، بعضه غير مفهوم، عَدَّدَ مآثر الرئيس، لم ينس فضائل الحزب عليه والعراق. كلام مشوش، وكأن صاحبه أصيب بصعقة، حتى لم يعد يسيطر على مخارج الفاظه، ولا على حركاته التي زادت بشكل عشوائي، بسبب نبضات قلبه المتسارعة، التي أفلتت من سيطرته، و لم يتمكن كذلك من إيقاف التداعي المستمر للكلمات.

حرس أجلبوا له قدحاً من الماء، علّهُ يهدأ، هذا ما قاله رئيس المحكمة، قبل النهوض من على كرسيه، متوجهاً صوب رئيس الجهاز بقصد توديعه، أو في حقيقة الأمر ليعبر رسالة عن طريقه الى الرئيس، تفيد بأنه قد أكمل المهمة كما يجب، بعد أن بات مقتنعاً بعد وقائع المؤامرة، والمحكمة والقصاصات المكتوبة بالحبر الأحمر، أن أرواح الرفاق في حزب قضى جل حياته بين صفوفه، مرهون بقائها على قيد الحياة، برضا الرئيس. وقبل خروجه القى نظرة على رتل المحكومين بالسجن، وهم سائرون الى زنازينهم، كأنه يريد الاعتذار صمتاً،

يستمر الرتل في سيره، وسطه طارق وسرمد وحليم وحامد وعـــزام، حصلوا جميعهم على سبع سنوات سجن. ساروا الى قدرهم، كـــل منهم يفكر بشيء خاص، وإن اجتمعوا عند غرابة المؤامرة.

يقف طارق معهم في الدور، أخذ طريقه سيراً كئيبـــاً، خلـــف المذنب عزام. وصل قريباً من رئيس الجهاز، الذي ينظر الى السائرين، في وضعية قائد يستعرض أسراه.

هم جميعاً باتوا أسراه.

توقف قليلاً ليعتب بكلمات، تكاد لا تخرج من بـــين شـــفتيه المتيبستين:

أبو محمد لم هذا الاتهام، وانتم تعرفوني جيداً، وتعرفون علاقـــتي المتميزة بالسيد الرئيس؟.

رد عليه باجابة جاءت دون تأخير، نعم نعرفك جيداً، ونقـــدر صداقتك بالسيد الرئيس، ونحن متأكدون من عـــدم مشـــاركتك في المؤامرة، لكني والسيد الرئيس واثقان بما لا يقبل الشك، أن المتآمرين لو كانوا قد فاتحوك بالانضمام اليهم، لما بلّغت القيادة أبـــداً. هـــل فهمت؟. عد الى مكانك في الرهط، إحمد الله على عدالة محكمـــة لم تقطع رأسك العفن، واكتفت بعقابك سبع سنين.

تأوه مكتوماً.

لم يظهر ابتئاسه أمام السلطان الجديد.

عاد الى مكانه في الرهط المتجه الى الزنازين، فكر بما جرى وما سيجري. ومع هذا اتجه لأن يقنع نفسه أن هناك اشتباه، وإن الرئيس لن يتخلى عنه، وسيخرجه عن قريب بعفو خاص.

***

فُتحت أبوب الزنزانة ضيقة، لا تسع سرمد المحكوم سبع سنوات، ولا تستوعب أفكاراً ملأت عقل تعب كثيراً لبناءه، كان صائماً، وأستمر على وعده بأن يعود الى البيت صائماً، سأل نفسه، هل سيبقى هكذا صائماً، طوال السبع سنوات؟.

أجاب بالايجاب، سأبقى هكذا صائماً، حتى لو مدوا فترة السجن، ايغالا بالحقد سبع أخرى.

جلس في مكانه.

لضيق فسحة الجلوس، بات يتحرك جالساً في مكانه.

قضى ليلته يتحرك في المكان، بالزنزانة المعلمة بالرقم عشرة، متجولاً في التفكير بين ثنايا الماضي وحاضره، والعائلة التي تركها، قبل أن تكمل أحتفالها بعيد ميلاد الأبنة التي يحب، ومن دون أن يسلمها الهدية التي حرص على تسليمها في هذا اليوم العزيز على نفسه، وقبل أن يقبلها، قبلة وداع من سفر طويل، غير مضمون العودة.

لم يعرف ساعات الليل التي إنتهت عند السادسة صباحاً، فليل الزنزانة معزول عن عالم آخر الا من مصباح يفقع وهجه العين، وصوت مفرغة للهواء يشبه طنين الدبابير.

ليل طويل لا يمكن فصله عن النهار.

عرف بداية النهار من صوت المؤذن الآتي من مسجد قريب.

ذكرّهُ بالعائلة التي تركها تلملم حوائج عيد الميلاد، وبنت قالت في وقتها، سوف لن أحتفل مرة أخرى بعيد ميلاد آخر، حتى تعود أبي من سفرك المجهول، وتضمني الى صدرك الحنون، تطبع قبلة على رأسي، كما تعودت في كل عيد ميلاد.

***

الموت قتلاً بالرصاص

أمضى القادمون من جميع المحافظات العراقية الى بغداد، ممثلين عن قيادات فروع حزبهم، ليلتهم في فنادق خصصت لهم، حسب الدرجات الحزبية، بينها فندقي بغداد وأطلس. آخر تبليغ لهم قبل النوم، هو التجمع في بهو الفندق الذي هم فيه بالساعة الخامسة والنصف صباحاً، وفي تمام السادسة، يكونون أمام بناية القيادة القطرية للحزب.

كان يوم يوم الثامن من آب، حاراً منذ الساعات الأولى لحلوله، حضر الرفاق في الموعد المحدد، لا يعلمون لماذا حظروا في هذا الوقت المبكر بالذات، يسأل بعضهم الآخر، لماذا حضروا، وما هو المطلوب منهم.

بعضهم كان قلقاً، لأن رفاق لهم حضروا الى قاعة الخلد قبل أيام، و لم يعودوا منها، فأصيبوا بوباء القلق الذي لا يشفى.

أطل على حسن المجيد، بسيارة رئاسية سوداء نوع "مرسيدس"، أقترب من جمهور المتجمعين، أعطى أوامره الصارمة بضرورة الصعود الى السيارات، المخصصة لنقلهم الى مكان محدد.

لم يذكر اسم المكان المحدد، تدخل في تفاصيل توزيع الرفاق مجاميع من عشرة أشخاص، على كل سيارة.

لدى السائق تعليمات بالمكان الذي اليه تذهبون.

المهمة التي تؤدوها اليوم تاريخية، ستبقى ماثلة في سجل الحزب، خدمة جليلة.

تحرك رتل السيارات بقيادة المجيد، وصل المثابة المطلوبة، ساحة الرمي الخاصة بالفوج الثاني لواء الحرس الجمهوري.

ألتفت الرفاق بعضهم الى بعض، لا يعرفون الخطوة الآتية حتى الآن.

نصف ساعة مضت وهم ما زالوا يقفون في أماكنهم، ينتظرون في هذه الساحة، التي شهدت الرمي على آلاف الأهداف الوهمية، الا هذه المرة فالأهداف ليست وهمية، انها من بين قادتهم، كانوا حتى وقت قريب مسجلين كبار الدولة، وكادر حزبها الوحيد والأوحد.

يمر الوقت ببطء شديد، وعند انتهاء النصف الأول من ساعة الانتظار، أمتلأت الساحة بأعقاب السكائر. وصلت في الدقيقة الثالثة من النصف الثاني لها سيارتان رئاسيتان. ترجل من الأولى رئيس الجهاز، ومن الثانية ولدا الرئيس.

كان وصولهم، إيذانا بالشروع في إكمال المهمة.

***

اثنان وعشرون شخصاً وقفوا في رهط عريض من صف واحد، عُصبت أعينهم، وكممت أفواههم، وقيدت أيديهم الى الخلف.

رفاق، هؤلاء الواقفين أمامكم خانوا الحزب، تآمروا عليه، حُكُموا بالإعدام من قبل المحكمة التي شكلتها قيادتكم الحكيمة، يستحقون الموت، ويستحقون أن تكون أماتتهم على أيديكم رفاق

مخلصين، ليبقى الحزب أكبر من الجميع، هذا ما قاله المجيد قبل بدأ التنفيذ المطلوب للمهمة.

وزعت البنادق على الرفاق الذين شكلوا صفاً من نصف دائرة، ابتعد الأول من اليسار، ومثله الآخر من اليمين عن الرهط المطلوب، إماتة أصحابه رمياً بالرصاص بحدود العشرون متراً.

هناك على يمينهم، والى الخلف منهم، رهط آخر من الحمايات الخاصة، أيديهم على الزناد.

حسب المجيد ورئيس الجهاز كل الاحتمالات.

أنا لديّ بندقيتي الخاصة، ولا أريد بندقيتكم، قالها عدي الابن البكر للرئيس بصيغة أمر، أصدره الى الضابط الذي أخذ على عاتقه، توزيع البنادق على الحزبيين القائمين بالتنفيذ.

نعم سيدي، أمرك سيدي، قال الضابط في رده على أوامر إبن الرئيس.

أشر عدي الى سائقه، بأن يجلب بندقية الصيد خاصته، وكذلك بندقية شقيقه قصي، وأضاف موجهاً حديثه الى عمه رئيس الجهاز، طالباً أن تكون حصته محمد عايش، فأعقبه شقيقه الأصغر على الفور، بأن تكون حصته عبد الخالق.

حاول اللواء وليد قول شيء ما، لكن الشريط اللاصق على فمه، حال دون خروج الصوت، في محاولة جلبت بوضوح أنظار الجميع، منهم علي حسن المجيد، الذي ألتفت الى رئيس الجهاز، سائلاً عن أمر المجرم هذا وليد، قد يكون لديه قولاً يهم الحزب، في صحوة ما قبل الموت.

لا أعتقد هذا، أجاب رئيس الجهاز، وأكمل القول من أن وليداً معروف بوقاحته، وإن مجرد رفع الشريط عن فمه، سيسمعنا كلام لا

يصح سماعه أمام هذا الجمع من الرفاق. ثم أن لديّ توجيه من قبل السيد الرئيس بسد الأفواه، لكي لا ينطقوا الشهادة، ويموتوا كفرة لخيانتهم الحزب والثورة.

تقدم منه الضابط المعني بتوزيع البنادق معلناً، إكتمال التوزيع لجميع الحضور، ووضع اطلاقة واحدة في كل بندقية، باستثناء الرفيقات. سأل عن مدى شمولهن بالتوزيع، والمشاركة في التنفيذ، فأجابه، لا حاجة لمشاركة الرفيقات في الرمي، هذا ما يراه الحزب، خاصة وانهن لم يحصلن على التدريب الكافي للرمي حتى الآن، فوجه بوجوب بقائهن على جنب، والاكتفاء بالمشاركة عن طريق المشاهدة فقط.

***

تقدم الابن البكر، واقفاً في مواجهة الرهط المعرف بالخونة المذنبين، كمن يفتتح إحتفالا من نوع خاص. يحمل بندقية الصيد الانجليزية "بوردي" التي يفتخر باستلامها من المصنع مباشرة منذ شهرين، ويفتخر بأنها بندقية غالية الثمن، تصنع حسب الطلب. التفت صوب عمه رئيس الجهاز الواقف بالقرب، طالباً الشروع باطلاق الرصاص، فأجابه العم مشجعاً بقوله، هذا يومها، الصيد ثمين، يستحق هذه البندقية الثمينة.

سدد أولا على الساق اليمنى للضحية محمد عايش، فتطاير الدم على الواقفين بجانبه. وقبل أن يتلوى، ويسقط من شدة الألم وتهشم العظام، سدد على ساقه اليسرى.

كتم الضحية أنينه، كأنه يتحدى الرامي، الذي لا يعرف أنه إبن الرئيس، وإنه يتمتع بصيده، وببندقيته الغالية الثمن.

عاود التسديد قبل سقوط الصيد، على هـذه الأرض المتربـة، فوجه الثالثة الى بطنه.

كان الضحية في طريقه الى السقوط، متماسكاً وإن أسلم الروح في الغالب. جاء تماسكه بتأثير جهاز عصبـي، ما زال يمتثل الى أوامر التحدي، رغم انتهاء قدرة العقل على إصدارها. وقبـل أن يصـل الأرض تلقى الرابعة في رأسه، فتطاير المخ، من بين فتحات جمجمـة أحدثتها رصاصات البندقية المشهورة.

يتعالى الهتاف من قبل الرماة المتأهبين للهتاف بحيـاة الـرئيس، وبالموت للخونة أعداء الحزب والثورة.

تقدم من بعده الشقيق الأصغر، حاول تقليد شـقيقه الأكـبر، وإنهاء مهمته بعدة اطلاقات، وزعها على جسد الملا عبـد الخـالق السامرائي، من بندقية قنص أمريكية الصنع، هي غالية الثمن أيضاً.

عاود الهتافون، هتافهم بحياة الرئيس وعظمته، بصـوت أعلـى يسمع من بعيد، وكأنه حشد من آلاف المشاركين في تظاهرة شعبية، لنصرة القضية الفلسطينية، التي تعودوا الهتاف لهـا بصـوت عـال وبحماس شديد.

وقف الباقون من الرماة المشاركون بالتنفيذ، ماسكين بنـادقهم المحشوة، برصاصة واحدة، ينتظرون الشروع بالرمي، حسب إيعـاز يأتيهم من المشرف على العملية، علي حسن المجيد.

ترتجف يدا عضو فرع الشمال فهمي الحمداني، وهو ماسـك بندقيته الروسية، يصوب على صديقه غانم عبد الجليل، الذي تصادف ان يكون أمامه مباشرة، حاول حرفها باتجاه آخر، يبتعد فيه عن هذا الصديق الذي نشأ معه طالباً، ورفيقـاً في دروب الحـزب الملتويـة

لعشرين عاماً، خاف من ملاحظة الرامي في جواره وافشاء سره، وخاف من المجيد ورئيس الجهاز، ومن صف الحماية المتأهبين من جانبهم، وبعد أن أحس أنه وباقي الرهط المكلف بالتنفيذ موضوعون جميعاً تحت اختبار حزبي من نوع خاص. أدرك حراجة الموقف، وبات بسببها وشدة الخطورة، يكلم نفسه كلاماً غير مسموع:

غانم سيموت حتماً.

ستوجه الى قلبه في هذه اللحظة عدة رصاصات، من عدة رماة موجودون هنا في هذا الصف المتأهب للقتل، فما فائدة أن لا أوجه رصاصتي اليه.

سأوجهها الى قلبه المفعم بالرحمة، لأجنبه وجع الاصابة في أماكن أخرى.

سوف يسلم روحه الى خالقها قبل أن يسمع رصاصتي، وقبل ان يميزها دون الرصاصات الأخرى.

لا، سأنتظر لحظة انطلاق الرصاص، وأطلق رصاصتي الى قلب صديقي العزيز. عساها تصل بعد رصاصات أخرى من غيري، ولا تحسب روحه الطاهرة أني من قتلها.

آه يا إلهي ما هذه الشدة.

لعنة الله على اليوم الذي انتميت فيه الى حزب، يدفعني الى هذا الموقف الصعب.

ردد البسملة، وبدأ قراءة الفاتحة على روح صديقه، التي ستُزهق بعد لحظات، وقبل ان يكمل الآية الأخيرة من سورة الفاتحة، سمع صوت الرصاص قد دوى من كل اتجاه، فأطلق هو رصاصته الوحيدة باتجاه الصديق العزيز، مقتنعاً أن هذا الصديق، قد أسلم الروح قبل

وصول رصاصته. وابعد من هذا، كاد أن يكون متأكداً أن رصاصته، لم تطال هدفها أصلاً، لأنه خر صريعاً مع لحظة انطلاق الرصاص.

اتجه مع غيره بعد اتمام المهمة لتسليم بنادقهم، كتم دمعة كادت تخرج من مقلتيه، دعا الله أن تكون الرصاصة التي انطلقت من بندقيته قد أخطأته.

توقف بعدها عن مناجات النفس.

أعاد قراءة الفاتحة على روح الصديق مع أمنية في أن لا يكـــون قد أسهم في قتله.

* * *

ليلة أولى سجن

يُحشر سرمد في سيارة خاصة، تشبه صندوق مقفل لنقل الخضروات، جاء جلوسه بالصدفة الى جانب عزام والحديثي مرتضى وطارق وحامد يقابله في الجانب الثاني حليم وجعفر وشوكت، وأخيه محمد، مستسلمين لقدرهم، يشعرون جميعاً، كأنهم وقعوا في فخ لا مهرب منه، لا يعرفون وجهتهم.

يسأل بعضهم بعضاً عن مديات الحكم التي ثُبتت عليهم.

أكد مرتضى بدبلوماسيته المعروفة، أن الرفاق سوف لن يَقسوّنَ على رفاقهم. أيام وسنجد أنفسنا قد عدنا الى بيوتنا. إنها أشبه بالتحرز، مسألة ترد في كل الأنظمة الانتقالية في هذا العالم الثالث، منذ النشأة الأولى حتى اليوم.

حاول في عباراته التي أختارها بعناية، التخفيف من شدة الاكتئاب الذي سيطر على هؤلاء المحشورين في صندوق الخضرة، الناقل الى المجهول، وأكمل حديثة متيقناً أن الذين حُكموا بالإعدام سوف لن يموتوا، فالحزب لا يأكل أبناءه، وأضاف بقدر من الدعابة من أجل التخفيف عن الشد النفسي، الذي يعيشونه داخل هذه الآلة، التي تشع سهاماً موجعة من الحرارة تثير الاشمئزاز، لو يقبلوا أن تحولوا جميعكم سنوات حكمكم، على الخمسة عشر عاماً، التي حُكمت بها

لوافقت أن أتحملها، وتعودوا أنتم الى عوائلكم سالمين، يبدو إني كنت من بين الكبار المستهدفين.

وكرد فعل ساذج على الاقتراح غير المعقول، حاول بعضهم الابتسام بمرارة، لكن جميعهم لم يتمكنوا حتى من تحريك شفاههم من شدة الاكتئاب، مستسلمين الى وهج الحرارة، كمن يقف على فوهة تنور في عز الصيف، وفي ظهيرة أصبح الجو فيها أصفر محمر، والرياح قوية مثقلة بالغبار، وأضحى فيها المارة، يتعثرون بهموم الوضع الجديد... رئيس يتنحى وآخر يُنصبُ، ونفوس يَهدّها الخوف، من غدٍ لم يطمئنوا اليه. وسطهم تنهب السيارة الناقلة شوارع بغداد مسرعةً، لا يعير سائقها الاهتمام، الى غبار العشرة الأولى من شهر آب، وحرارته، وذرات رماله الصفراء، التي أثقلت تنفس المحشورين في هذا القفص، جعلته صعباً، وكأن أفواه أصحابه مُلئت ببرادة حديد... غبارٌ، وفي الوقت الذي أضفى عليهم، مسحة من الإحساس بالاختناق، بات يغمر مساحة الرؤية، من أمام السائق المزهو، بسيطرته على المقود، في هذه السرعة الفائقة، تنفيذاً لأمر إيصالهم الى المكان المطلوب، قبل نهاية الدوام الرسمي.

يقترب الصندوق الناقل، من المكان المطلوب في الوقت المحدد، التفت سرمد صوب المكان من فسحة ضيقة بين السائق، وزميله طارق الجالس الى جانبه، أرادَ أن يسأل فتعثر السؤال في حنجرته. بحث عن صوته بصعوبة، كأن الدهشة وسط الغبار ابتلعته، وجاء أخيراً مصحوب بحشرجة، أفضت الى سؤال عن المكان الذي هم فيه؟.

ألم تر، أنها الباب النظامي لسجن أبو غريب، قالها طارق، وأكمل قوله حامداً الله شاكراً نعمته بالتوجه الى أبو غريب.

لماذا الحمد ونحن متجهون، الى سجن سنقضي ما تبقى من عمرنا في دهاليزه المظلمة؟... فأجابه بنفس نبرة الصوت الخافتة، لأن جهة الطريق، وأسلوب السياقة دفعاني الى الاعتقاد أنهم متجهون بنا الى الصحراء، لاتمام فعل الاعدام، والدفن في قبور لا يعرف لها معلماً... من يلفق تهمة باطلة يفعل كل شيء.

كانت الدقائق منفرة، حين لاحت له تلك الباب الحديدية، الكبيرة لهذا السجن الكبير بأبنيته الاسمنتية داكنة اللون.

أحس وكأنه يجتاز نفقاً مخيفاً، يفضي الى عالم آخر ليس عالمه المعهود، إنه عالم الأموات. عندها أنتبه الى نغزةٍ بمرفق طارق في خاصرته، وإشارة من عينيه باتجاه الرئيس الجديد، يحمل على كتفيه العريضة رتبة مهيب، ينتصب في جدارية، ترتفع عن مستوى الباب عدة أمتار، وأنتبه ايضاً، الى كلمات جاءت من فم بات يلامس إذنيه، سمع منها فقط متى شيدتم هذه الجدارية يا أولاد...

***

توقفت السيارة بحمولتها من المذنبين، أمام قاطع من السجن تميزه نوافذ ضيقة. تعلوها فتحات صممت، لدخول الهواء بتقتير، لا يتجاوز الحد الأدنى، من الحاجة البشرية الى الاوكسجين، لا تساعد على الرؤيا، وتوقفت بعدها مباشرة، سيارتان أخريان، تنقلان باقي المذنبين ثلاثة وثلاثون، حزبياً محكوماً بالسجن، مطلوب أن يدفعوا ثمن ذنوب، قيل إنهم ارتكبوها بحق قائدهم الجديد.

نزل من أولاها شخص مربوع، بعضلات تعطي انطباعاً، أنه قوي البنية. حُفر التجاعيد في وجهه العابس، أشرت في داخله خوفاً،

من الغد الذي كونته تهم، تكدست على رفوف الحاكمية، في نفوس المعنيين بانتزاع الاعترافات، التي أخذها منهم قسراً، وبعضهم أبرياء.

أعطى نزوله من السيارة الأولى، قبل غيره مؤشراً لدى المذنبين، كونه الضابط المسؤول عن مجموعتهم، في هذا السجن الكبير.

أمرهم بصوته الأجش، أن يترجلوا ويتجمعوا في الباحة، يقفوا صفاً واحداً حسب الطول. وقفوا كذلك حسب الطول، كأنهم جنود مستجدين، نفذوا الأمر بسرعة الخائف من المجهول. جميعهم واقفين بوهن باين على الوجوه، من شدة الصدمة التي لم تُستوعب بعد.

أحس طارق لحظتها، وكأن روحه قد سلبت منه، أو أنه واقف بلا روح، وأحس أيضاً بدوار حاد في رأسه، ممزوج بخوف يصل حد الهلع، وتباطأ النبض الضعيف للقلب، قريباً من حافات التوقف تماماً، فأتكأ على سرمد الواقف الى جانبه خشية السقوط.

عدل من وقفته، مشى مع الرهط باتجاه القاطع، المخصص لهم بحتمية المرور من خلال القاطع المجاور، فشهد وشهدوا معه المنظر الدامي لسجناء سبقوهم جالسين القرفصاء. هياكل كائنات عاشت قبل التاريخ.

شعور رؤوسهم امتدت طويلة، لتغطي عوراتهم عوضاً عن ملابس باتت أسمالاً لا تستر شيء.

بقايا دماء جافة على ظهورهم المقوسة، وعلى أقفاص صدور برزت منها العظام، حتى لكأنها توشك أن تخرج من مكامنها، المتمثلة بطبقة جلد رفيعة من كثر السقم، وذباب أخذ من محاجرها، أوكاراً لأسرابه المتنقلة بينهم بحرية طائر الحمام في ساحات المدن الاوربية.

كل واحد هنا له رقم.
انكم في الحقيقة مجموعة أرقام.
من الآن فصاعداً تكون المناداة، ويكون الرد عليها بالأرقام.
انسوا أسمائكم، وتاريخكم ورتبكم ودرجاتكم، وتذكروا الأرقام.

قالها الشخص المربوع، واستمر بقوله، أن القاطع الذي ستكونون فيه، مقسم الى غرف بعضها صغير وآخر كبير، ستتوزعون عليها، لكل واحد منكم فراشه. ثم التفت صوب زميله الذي رافقه حارساً، طلب توزيع ثياب النوم "بجامات ودشاديش"، واستلام الملابس التي جاءوا بها. حرقها على الفور لأن رائحة الخيانة تفوح منها بامتياز.

يتوزعون على الغرف التي تقترب حرارتها، في هذه الظهيرة المغبرة، من حرارة أفران الصمون في عز الصيف، كما هو قول السيد حليم في أول تعليق له بعد الجلوس على فراشه، بجانب السيد حامد وطارق وعزام، والحديثي مرتضى، الذي جلس مثلهم على فراش أختاره قريب من الباب دون أن ينطق بكلمة واحدة.

هذا هو المكان الذي ستبقون فيه الآن، يمنع الكلام بصوت عال، ويمنع كذلك التعليق. النوم في تمام الساعة التاسعة مساءً، والنهوض في السابعة.

الطعام سيجلب اليكم بوقت، والخروج الى المرافق الصحية ثلاث مرات، والى الباحة مرة في الأسبوع.

كل شيء بنظام، تذكروا فقط أنكم مذنبون تقضون عقوبة لمحو الذنوب، التي ارتكبتموها بحق الحزب والثورة.

هذه هي الأوامر التي أصدرها، الرجل المسؤول مفتول العضلات، الذي تبين فيما بعد أنه المفوض جاسب السماوي، الذي أنتدب من شرطة مكافحة الإجرام الى جهاز المخابرات، خصيصاً لإجبار المتهمين على الاعتراف تعذيباً... جاسب الذي يفتخر دوماً أن عتات المتهمين، لا يصمدون أمام أساليبه ربع ساعة، وإنه يتبرع من عنده للمشاركة في استلاب الاعتراف، من أدهى المذنبين، ويفتخر أيضاً أنه وعندما أحسن مهنة التعذيب، وأخلص في تنفيذ بنودها، رقيَّ الى رتبة ضابط مخابرات.

***

كانت الليلة الأولى موحشة، قضى أغلبهم وطرها، بتبادل أحاديث الاستفهام بصوت لا يسمع من خارج القاعة.

سأل زهير صديقه طارق مالذي أتى به وهو صديق الرئيس؟. فرد عليه سائلاً عن أسباب الاتيان به، وهو قائد فرقة مدرعة في جيش أراده الحزب أن يكون عقائدياً؟.

بدأ زهير سرد روايته التي تثير القرف حسب تعبيره، مؤكداً أن مدير إدارة المكتب العسكري، قد اتصل به هاتفياً، وهو في مكتبه قائداً للفرقة المدرعة التاسعة.

لقد طلب حضوري اجتماع خاص يتم في المكتب العسكري، بالساعة الحادية عشر صباح اليوم الثاني، لمناقشة أمور عسكرية لفرقتي صلة بها. كل شيء كان طبيعياً في المقر، وفي الشعبة الحزبية حتى حلول الصباح، الذي إستقليت فيه السيارة العسكرية، وتوجهت الى المكتب العسكري، إذ وقبل دخولي، طلبت من مرافقي الملازم الأول

صلاح، الذهاب وأنتظاري في البيت بحي المنصور، في حدود الساعة الثالثة بعد الظهر، هكذا خمنت الوقت المناسب لإنهاء الاجتماع، وتناول الغداء مع الأهل، ثم العودة الى مقر الفرقة في منصورية الجبل.

سكت لحظات، وعاود الاستمرار في الكلام بانفعال أشد، مشيراً الى أن الإهانة الأولى، والأشد وقعاً على نفسه، طوال حياته، قد حصلت في استعلامات المكتب.

هنا سأل طارق عن فحوى الإهانة، فعاود الاسترسال في الكلام، كنت قبل هذا اليوم المشؤوم، أدخل على مدير الادارة، وعلى أي عضو في المكتب العسكري مباشرة، لا أتوقف في الاستعلامات، لقد أستوقفني هذا اليوم، شخص بلباس مدني، يبدو أنه قد نُسبَ للعمل خصيصاً لهذا اليوم، إذ وعندما تبين لي لهجته، الحادة غير المؤدبة، زجرته بالقول، كيف تكلمني هكذا، وأنا قائد فرقة مدرعة؟.

رد هو بعنف، أنت قائد فرقة مدرعة هناك، وليس هنا في المكتب العسكري.

قف في مكانك، سأتكلم في التلفون، هكذا هي الأوامر.

وقفت أرتعد، يكاد الحقد يتطاير شراراً من عينيَّ. في الوقت الذي أمسك هو سماعة الهاتف ببرود الشامت، طلب رقماً بات يكلمه بعبارات لم أسمع بداياتها. تحول بعدها في نظراته بإتجاه شخصين، كانا ينتظران في الممر المجاور، وهو يكرر عبارة نعم سيدي أكثر من مرة. ولما أعاد سماعة الهاتف الى مكانها، وعدل من وقفته، أشار الى ذلكم الشخصين بإشارة، كأنها كلمة سر لبداية هجوم عنيف، لمجموعة كلاب مسعورة، أدركت من الضربة الأولى، أني قد سُجلتُ اسماً في سجل المتآمرين.

كان الضرب من الشدة، حتى أصبح وقعه الزمني حبلاً مجدولاً، لا أول له ولا آخر. شعرت بعد الرفسة الخامسة أو السادسة، كأني وقعت في غور مظلم، سحيق لا تصله عيناي. عندها فقدت القدرة على عد الركلات، وكذلك الاحساس بكوني إنساناً، تمنيت الموت حقاً في هذا المكان، احتجاجاً على معنى النضال، وأخذت أقدم رأسي الى أحذيتهم المستمرة بالركل، متمنياً أن تأتي إحداها بقوة تمكنها من كسر الجمجمة، وإخراج مخي من مكانه، لكنه لم يخرج، ولم يكتب لي الموت، في تلك اللحظات التي تمنيتها راضياً بالمقسوم. لقد فقدت الوعي في حينها، وعندما أفقت بعد ساعات، وجدت نفسي في أحد زنزانات الحاكمية، عاتباً على الخالق تأجيله الموت... آه كم تمنيت الموت، وما زلت أتمناه في كل لحظة، ولو لم تكن لي عائلة أخشى على مصيرها، لهجمت على واحد من الحراس رغبة في الموت.

***

بداية الليل في هذا السجن المشؤوم، وفي يومه الأول، قبل التوزيع على الزنازين الانفرادية موحشة، مثل أول يوم يدفن فيها الانسان، استعدادا لحياة البرزخ، كما صورها الدعاة رعباً، أو بعضهم في أدبيات تخويف الانسان من آخرته.

كان كل ثلاثة أو أربعة منهم، يجلسون على بقعة من المكان، يقصون وقع القبض عليهم أو أستدراجهم عن طريق الاستدعاء.

بدأ طارق يقص حكايته في مستشفى اليرموك، وردهة السجن في مستشفى الرشيد، مؤكداً عدم تلقيه الضرب الا مرة واحدة كانت أثناء التحقيق في الحاكمية.

التفت الى جانبه الأيسر، حيث العقيد سرمد راقداً على فراشه يستمع أطراف الحديث، ينتظر موعد الافطار، فهو ما زال صائماً، مصمماً على البقاء صائماً، كما هو الوعد الذي التزم به، في أن لا ينهي صيامه الا في البيت، وإن فاتته بعض الكلمات التي لم يستطع سماعها بسبب خفوت الصوت.

سأله طارق، كيف كان مجيئك الى هذه الغمة "أبا زيد"؟.

بدأ سرمد حديثه ببطء شديد، وبصوت تقل حدته عن صوت العميد زهير، عرجَ على اجتماع شعبة الرشيد، الذي حضره جميع الاعضاء، وأداره هو كأمين سر الشعبة في اليوم الذي أعقب مجريات قاعة الخلد، كان هناك تسجيلاً، لما جرى من اعترافات محيي، والأسماء التي نطق بها، مشاركة في المؤامرة، وكان العديد من الرفاق يعلق على الخيانة، يطالب بالقصاص، كأنهم في سباق تُسجل فيه أرقام مميزة للقصاص.

لقد أنهيت الاجتماع الموسع، في حدود الساعة الخامسة، كنت مستعجلاً أحث الخطى بغية اللحاق في المشاركة بعيد ميلاد أبنتي، حرصت على تسليمها الهدية التي اشتريتها بنفسي، لكني وقبل تسليمها، وقبل حلول موعد الافطار بدقائق، دخل علينا ضابطين، أحدهما المقدم حمود من شعبة الاستخبارات العسكرية الثالثة، التي كنت مديراً لها عدة سنوات.

طلب الضابط وزميله، أن أرافقهما الى جهاز المخابرات على الفور. حاولت استخدام الهاتف، ومكالمة اللواء الركن نسيم معاون رئيس الجهاز، عساي استفهام الأمر، لكن الضابط قال بلهجة فيها قدر من الحزم، غير مسموح الاتصال. حاولت بعدها، راجياً

انتظاري اكمال عيد ميلاد أبنتي التي أحبها بجنون، لكنه رفض أيضا، متحجج هذه المرة، بان الأمر مستعجل. وأخيراً طلبت إتمام افطاري، لأني صائم.

سدوا الطريق من أمامي.

ألغوا كل الحجج الممكنة لحضور عيد الميلاد، وانتظار الإفطار.

وعندما سحبوني من بين زوجتي، وأطفالي المتجمعين لإتمام عيد الميلاد، قلت لها، اطمئني حبيبتي سأعود في القريب، سوف أفطر هنا معكم، ليس لديّ شيء بالضد من العراق، كنت واثقاً من أني سأعود في القريب، وسأفطر من الفطور ذاته، الذي أعد اليوم خصيصاً لعيد الميلاد.

خرجت من بعدي أم "زيد" مودعة، بذهول، لم تألف منظر الفجيعة هذه، و لم يخطر ببالها، زوجها الذي قضى نصف عمره، في خدمة الحزب وأمن الدولة، يسحب من بين أحضانها، بهذه الذلة. شاهدتها تبكي بحرقة، قبل أن تغيب عن ناظري، قد لا أراها ثانية، فالخروج من هذا الجب أشبه بالمستحيل.

لقد أوصلاني الى البناية التابعة الى حاكمية المخابرات، وقبل إدخالي الى الزنزانة تقدم مني المقدم حمود، متظاهراً دفعي اليها، قائلا، آسف سيدي.

لم يكن الخيار بيدي.

هكذا هي الأوامر.

سامحني... الله معك، وهو الأرحم بنا جميعا.

***

يدخل الحديثي مرتضى، من جانبه طريق التبادل الخاص بروايات الصدمة الأولى في القاء القبض، قائلاً، أنا كنت في مدريد، بمكتبي سفيراً يوم أتصل بي وزير الخارجية، سائلاً عن الوضع والعلاقة مع الاسبان، وتأثير ما نشر عن المؤامرة على العلاقات مع العراق. أتذكر جيداً إجابتي له أن الامور هنا عادية مع قليل من القلق يشوب الاوساط النافذة في وزارة الخارجية، وتأكيدي على ضرورة تزويدنا بالتفاصيل، التي تكفي لطمأنه الدولة على مستقبل أفضل للعلاقات، وتأييده الاقتراح مع انتظار التعليمات. واتذكر أيضا اتصاله في اليوم الثاني، وتأكيده على ضرورة الحضور الى بغداد فوراً لمقابلة الرئيس للموضوع نفسه.

لم تكن في ذاك اليوم رحلة للخطوط الجوية العراقية الى بغداد، مما اضطرني أخذ الطائرة التركية المتجهة الى اسطنبول، ومنها الى بغداد التي وصلتها فجر اليوم الذي يلي. فاتني أن أذكر وبعد أتصال الوزير بدقائق، وصلني تلكس من الرئيس السوفييتي بريجنيف شخصياً، بعبارات محددة، "لا تذهب الى بغداد، توجه الى موسكو، ضيفاً عزيزاً، الكي جي بي، لديها علم بالتصفيات التي ستجري في البلاد"، لم أعر الموضوع أهتماما، وإن أقلقني حقاً.

وما أن حل صباح الأول من آب، وأنا في بيتي ببغداد، أتصلت أولاً بعزة إبراهيم في محاولة مني، جمع بعض التفاصيل عن المؤامرة وما يحدث، ومن بعده تكلمت مع حامد الجبوري الذي حل محل الوزير مؤقتاً، لأستفهم عن الموقف السياسي قبل الذهاب الى الرئيس، لكني لم أفهم منهما شيئاً، وألح كلاهما على ضرورة الذهاب الى الرئيس، اليوم قبل الغد. عندها توجهت الى حامد الجالس في مكتب الوزير،

وقد أتصل على الفور بالرئيس، وأخبره حضوري. ومن بعد نصف ساعة كنت في مكتب الرئيس.

رحب بيَّ الرئيس بطريقة، في ظاهرها كثير من الحماس، طلب من سكرتيره ومرافقه الشخصي ترك المكتب، وابقائنا على انفراد. سأل أولا عن أجواء المؤامرة وصداها في اسبانيا، وباقي دول أوربا الغربية، وعندما أجبته بوجود قدر من القلق في أوساط الدولة، وكذلك بعض الغموض عند رئاسة الوزراء ووزارة الخارجية، فاجأني بسؤال فيه عتب عن دور السفارة. والقى موعظة عن أفتراض قيامها بحملة مكثفة، لإيضاح دور الخونة في هذه المؤامرة القذرة. حاولت الاجابة، ناديته بالرفيق أبو...، وقبل اكمال اسم ولده الاكبر، تلك الكنية التي اعتدنا مخاطبته بها يوم كان نائباً، قاطعني بالقول، مرتضى أنت الآن في مكتب الرئيس.

شعرت حينها، وكأنه ينظر اليَّ بعين الاحتقار، ومع هذا سايرته في الحديث، وقلت له سيادة الرئيس، لم تكن قد وصلتنا أية تعليمات من الوزارة، تُعِيننا على تقديم الايضاحات، وها أنذا اليوم جئت للحصول عليها مباشرة.

أما هو فقد استمر بنفس النظرة، وكأنه يضمر شيئاً مسبقاً، حيث أشار بلهجة المعلم القاسي، من أن السفير الجيد، لابد وأن يمتلك القدرة على المبادرة، في توضيح ما ينبغي توضيحه للعالم الآخر، من دون انتظار التعليمات.

لكني لم أيأس من الايضاح حسب قناعتي، فأجبته أن الموضوع حساس، وبحاجة الى تفاصيل تعين على تقديم الايضاحات، هكذا هي آلية العمل الدبلوماسي في العراق، أو في غيره.

أقول لكم أنه يضمر شيئاً لم أكن أتوقعه ساعتها، كان هذا واضح من سؤاله عن رأيي في المؤامرة، وماذا أقول عن مشاركة عبد الخالق فيها، وقيادة محمد عايش لها.

لقد أنفعل غاضباً عندما أجبته، أني محتار جداً بدوافع محمد عايش للتآمر على الحزب، ومحتار أكثر بكيفية اتصال المتآمرين بعبد الخالق، وهو في سجنه الانفرادي، إذ سألني عمن أخبرني أنه في سجن انفرادي، وأجاب هو من عنده، لابد وأن يكون الخونة المتآمرين هم من أخبروك بذلك، ولا بد وأن يكون لك أتصال معهم، حاولت أن أجيب، أوضح له الحقيقة، لكنه لم يعطيني فرصة. بعدها ضغط على زر الجرس الذي أمامه، وأمر المقدم رباح، وشخص آخر دخل معه بكلمة واحدة "خذوه"، فأصبحت بعد نصف ساعة مسجوناً في بناية لا أعرفها من قبل، قريباً من الجندي المجهول.

لا أعرف لماذا سجنت، وما هي الدوافع الحقيقية لسجني؟.

هل لكم أن تعينوني على التفسير.

لا يحتمل طارق موقف الجهل بالتفسير، وبدلاً من أن يفسر شيئا غير قابل للتفسير، طرح الأمر من زاوية استفهام أخرى، مشيراً الى صداقته بالرئيس منذ استلام الحزب السلطة أول مرة بداية الستينات قائلاً، لقد فتشت في دفاتري القديمة وفي خلايا عقلي، لم أجد ما يشوب هذه الصداقة أي تعكير، بل وعلى العكس من هذا، اذ أن مناقشة قد جرت بيني وبينه قبل أشهر، أثناء زيارتي بغداد، ومشاهدتي منضدة الرمل في وزارة الدفاع، التي تؤشر إنفتاح الجيش العراقي بفرقه المدرعة، اتجاه الحدود الايرانية، وسؤال وجهته الى عدنان وزير الدفاع، هل يمكن أن نحارب إيران؟. وأعدت توجيهه

الى الرئيس بعد أن أشار عليَّ الوزير أن أسأله باعتباره صديقي القريب.

لقد أجاب الرئيس في حينه، بطريقة تبين أن إيران اليوم تتمدد أفقياً، بلا رأس يضبط مقتضيات حاجتها الى البقاء قوية. وأجبته من أن الأمر معكوس، فان إيران تنمو عمودياً، وإن الخميني الذي أعرف أسلوبه منذ وجودي في فرنسا، وعملي ملحقاً عسكرياً فيها، هو أعلى الهرم، قوي جداً، والمسافة بينه، وبين أقرب المؤيدين والمناصرين، بعيدة بقدر أصبحت تدفعهم الى اللهاث خلفه، مؤيدين خطواته مستعدين الى التضحية من أجله وايران.

لقد قال في وقتها، "أبو نداء"، كيف؟. هذا كلام أسمعه لأول مرة في العراق.

شجعني قوله على الاسترسال بشرح، نظرية الامام الخميني في الحكم، والتأكيد على أننا نحن الذي نتمدد أفقياً، ونحن الذين نحتاج الى الرأس القوي، لبناء دولة الوحدة العربية القوية. وهو ومن فرط حماسه قال، ما حاجتك سفيراً في برلين؟. وما فائدتنا من وجودك هناك؟.

نحن رفيق "أبو نداء" نحتاجك هنا قريباً منا، لكي نناقش مثل هكذا أمور مهمة، كلما امتلكنا الوقت.

عند هذا الحد أنتهى الحديث، وتناولنا طعام الغداء سوية، ومن ثم أوصلني الى الباب.

هل أن علاقة من هذا النوع، تفضي الى توجيه أتهام لا أساس له من الصحة؟.

ومع هذا لم يتوقف عقلي عن التفكير، منذ اللحظات الأولى التي تأكدت فيها، إدراج إسمي في سجل المؤامرة، وكلام برزان بمعرفتهم

عدم اشتراكي فيها، وتجريمي افتراضاً بعدم الاخبار، لو إني قد أخبرت بذلك.

فكرت كثيراً في السبب، أنا أعرف مثلاً أنك... موجها الكلام الى السيد مرتضى كنت وزيراً للخارجية، ومن قبله وزيراً للعمل والشؤون الاجتماعية، وعضواً في القيادة القطرية، وقد زعل عليك الحزب ممثلاً، في البكر وصدام.

كما إن حامد محسوب على الصقور داخل الحزب، وهو لا يسكت على خطأ ما، والمرحلة من وجهة نظرهم، قد لا تحتاج الى أمثاله لكي تسير السفينة، وحليم عسكري متميز أراد البعض ازاحته جانباً وكذلك سرمد، لاحتكار المناصب العسكرية العليا. لكن المسألة بالنسبة لي غريبة، ومع هذا قد يقول أحدكم أن لأقرباء الرئيس ضلعاً في عملية الاقحام، لكن لي علاقات جيدة، بل ومتميزة معهم جميعاً.

فالشقيق الأصغر وطبان، المرشح القوي لمناصب عليا في القريب، أنا من قَبلهُ في دورة نواب المفوضين عام 1968 عندما كنت في لجنة قبول حزبية، وشقيقه الآخر، برزان رئيس الجهاز، يعي علاقتي بالرئيس ويحترمها، لكن لي موقف مع المجيد، قد يكون سبباً أو واحداً من بين الأسباب، لا أعلم، ومع هذا أود أن تعينوني على تفسيره. إذ وعندما كنت مسؤولاً عن، شعبة كركوك العسكرية عام 1973، تلقيت تقريراً من أحد الرفاق عضو قيادة فرقة، أكد فيه أن المجيد، رئيس العرفاء الآلي للوحدة "عضو قيادة الشعبة"، قد اشترى جميع السيارات العسكرية المصنفة درجة خامسة، أي التي لا تصلح للعمل العسكري للفرقة الثانية، وقام بإعادة تصليحها، وطلائها في

مفرزة الهندسة الالية الكهربائية للفرقة ذاتها. وبما أني ضابط ركن في الفرقة، والمسؤول الحزبي للتنظيم، وكذلك لقائد الفرقة شخصياً، أشرتُ على القائد، تشكيل مجلس تحقيقي بالموضوع، وفعلاً تم تشكيل المجلس، وكوني أنا المسؤول المباشر للمجيد أمرت بوضعه في الحجز، ولأني كنت في طريقي الى السفر ضمن وفد الى الاتحاد السوفيتي، بعثت على المجيد، وأكدت عليه بضرورة عدم النزول الى البيت، إذ قلت له بالحرف الواحد، أنك ابن عم السيد النائب، وإذا ما نزلت وكسرت أمر الحزب، فستنعكس على سيادته، وهذا ما لا نريده، خاصة وإن مدير الهندسة الآلية، يخاف منك شخصياً.

لقد وعدني بالامتثال الى أمر الحزب، مهما كانت النتائج. وقد وفى بوعده حسب علمي.

وماذا كانت النتائج، سأل عزام؟. فأكمل طارق ما بدأه:

لقد ذهبت الى موسكو، وبذهابي استلم الشعبة مؤقتاً الرفيق السامرائي، وطرح على المكتب العسكري موضوع المجيد بصياغة غير صحيحة، محاولاً التقرب من خلالها الى النائب، عندما صور تشكيل المجلس، افتراء على المجيد، طالباً ضرورة إنهاء حجز عضو قيادة شعبة، وعدَّ الحجز تجاوز على الصلاحيات، الممنوحة للرفيق أمين سر الشعبة أي أنا. لكن والحق يقال، وكما أخبرني الرفيق حميد عضو المكتب العسكري في حينه، مبيناً أن أمين سر المكتب العسكري، النائب آنذاك رد معقباً على كلام السامرائي بالقول، ان الرفيق طارق سيأتي من الوفد، بعد أيام وهو صاحب الشأن، وأنا أرى أنه كضابط ركن في الفرقة، يحق له حجز أحد ضباط صفها، وتصرفَ على وفق الصلاحيات، وما علينا سوى الانتظار، ومن بعده اتخاذ القرار.

لكني وعندما عدت من موسكو، وذهبت الى كركوك وجدت أن المجلس التحقيقي قد أُغلقَ، وإن الرفيق الذي رفع التقرير، سحبه معتذراً. عندها أمرت بإنهاء الحجز، وفي وقتها جاءني المجيد طالباً النقل الى أي مكان من العراق، بسبب المجلس وإن أنتهى بغلقه، فاقترحت نقله الى بغداد، والى شعبة الشرطة التي كنت مسؤولاً عنها أيضا. فرحب بالفكرة، وغادر كركوك متوجها الى بغداد خلال أيام.

خلاص، لقد بان الامر بالنسبة لك، كان المجيد هو المسؤول، عن وضعك في قائمة المذنبين، قال حليم، فطلب منه أن لا يستعجل فللحديث بقية؟.

أكمل سيدي، فالوقت مفتوح.

بعد شهر من النقل الى بغداد، طرح النائب في اجتماع المكتب تقريراً، يطلب فيه المجيد إحالته على التقاعد، لتعبه من الخدمة العسكرية، التي قضاها في الوحدات الفعالة، والغريب في الأمر أن النائب أشار في ذاك الاجتماع، الى أن علي المجيد صحيح ابن عمه، لكن العلاقات معه مقطوعة، حتى إنه لم يعرف من قبل، أنه منتمٍ أصلاً الى الحزب، وإنه عضو قيادة شعبة، لأنه كان منعزلا عن العائلة.

لقد وافقنا على إحالته على التقاعد، لكنه طرح من بعدها مطلباً آخراً، هو إضافة ستة أشهر لخدمته حتى تصل الى خمسة عشر سنة، المدة التي تكفي لصرف الراتب التقاعدي، ووافقنا ايضاً.

هل انتهينا من المجيد؟. قال حليم، فأجابه طارق، ان مسلسله الذي أخذ منا كثيراً من الوقت، لم ينتهي بعد، إذ أنه وفي الاجتماع اللاحق، طرح النائب موضوع المجيد أيضاً، وهذه المرة يتعلق بقلة راتبه التقاعدي، مقترحاً إعادته الى الخدمة، ومنحه رتبة مفوض،

وتنسيبه الى الامن العامة، حيث العمل في محيطها حزبياً. وقد أخذ رأيي بالموضوع، باعتباري مسؤوله الحزبي المباشر، فوافقت. على هذا لا يمكن الجزم، أنه المسؤول عن حشر اسمي مع المذنبين، لأنه لم يبدِ أي رد فعل سلبي على موضوع حجزه والتحقيق معه، وعلى العكس، فقد شكرني كثيراً يوم وافقت على منحه رتبة مفوض أمن.

دقيقة، طارق قبل أن تكمل ما يساعدنا على الاستنتاج، وددت أن أسألك، هل ان المجيد اشترى السيارات العسكرية المصنفة فعلاً؟. وهل قام بطلائها في مفرزة التصليح العائدة للفرقة الثانية وباعها لحسابه؟. أريد قناعتك أنت، سأل حليم بعد أن أستهواه الموضوع، فأجابه، نعم لقد قام بهذا، وأني مقتنع بحصول التجاوز والمخالفة، ومقتنع أيضا بحجزه الذي لم يكون انتقاماً، بل لحماية الحزب من الانحراف، ولحماية النائب أيضاً من كلام، قد يطاله بسبب سلوك سلبي لشخص محسوب عليه. لقد تصرفت بمهنية حزبية، إلا أني وبعد سحب عضو الفرقة لتقريره، واتخاذ المجلس قراره بغلق التحقيق، لم يعد لي من بد سوى الرضوخ الى النتيجة التي جاءت بحسب تقديري بضغوط من جهات خفية، لا أعلمها، و لم أرغب بالتدقيق في أصولها آنذاك.

لا تعلمها، أم لا تريد أن تفصح عنها؟، قال حليم وطلب أن يسأل سؤالا آخراً، فأجاب طارق أنه عارف بأسئلته التي سوف لن تنتهِ، وعارف بطبع له يدفع صاحبه الى حفر البئر بإبرة، حتى وصول الطين الحري، كما يقول المثل العراقي. فسأل عن مصير عضو قيادة الفرقة، الذي رفع التقرير، فأجابه، حسبما أتذكر أنه الملازم الأول جواد، آمر المفرزة التي ينتسب اليها المجيد، عندما كان ضابط صف،

سمعت أنه قُتلَ في بيته بالحي الجمهوري، في كركوك على يد مجهولين، بعد سنتين من حادثة التقرير.

خلاص، كِملت، رد حليم.

سأله طارق مستفسراً عن مقصد قوله هذا؟. فحاول التملص من الاجابة، بالتأكيد على أنها معلومة أرادها لنفسه، لكنه وتحت الحاح طارق لمعرفة القصد، قال حليم أن هذه العائلة لا تنسى ثأراً لها مهما طال الزمن.

لكن طارق لم يتفق معه في هذا الاستنتاج، فأكد قائلاً:

من غير المعقول أن يكون المجيد هو السبب، خاصة وإني من رشحه ليكون، عضو فرع، يستلم مسؤولية قيادة شعبة الشرطة، بعد أن وجدت نفسي غير قادر على الايفاء بمسؤولية إدارتها، مع شعبتين اخريين في آن معاً، وقد أيدني النائب آنذاك في الترشيح. ومن بعد هذا أستمرت علاقتي به أكثر من جيدة، إذ صار بيننا ود ولقاءات خاصة، ودعوات متبادلة، وقد صحبني من وزارة الخارجية الى المخابرات قبل يوم من اعتقالي، كما أننا قد التقينا برزان معاً، وتكلمنا عن المؤامرة معاً. لو كان يضمر شيئاً في داخله، لما تجرأ وسايرني الى أن تركت المخابرات، باحثاً عن تفسير مقنع للمؤامرة، وَتَركها هو متجهاً صوب المكتب العسكري، الذي أصبح عضواً فيه بعد استلام الرئيس مسؤولية القيادة القطرية، بعد أيام من الاعلان عن المؤامرة.

رد حليم على اجمالي القصة قائلاً، تبقى غشيماً، وسأبقى أقول أن هذه العائلة لا تنسى ثأراً، ويكمل قوله لكل منا قصة أو موقف أو حتى وضع، دفع لأن يكون سبباً الى حشره في دهاليز هذه المؤامرة، أو الأصح اقتراح تسجيله في قوائم العقاب.

فحامد مثلاً وقاحته، آسف شجاعته المفرطة، وتمرده على الواقع قدمته قرباناً للعائلة، ومرتضى مهنيته الحزبية الزائدة عن الحدود الطبيعية، ومسؤوليته في صياغة تأميم النفط، قدمته قرباناً، لأن السلطان لا يريد تسجيل أي مكسب إلا باسمه، فجاء سقوط "أبو محمد" ليبقى هو وحيداً في ساحة المكاسب، يجول ويصول.

أما أنا فكنت قرباناً قدمني وزير الدفاع، إذ ومنذ أن عدت من حرب تشرين، وبدأ تسليط الضوء على حالتي، أخذ بعض الضباط من جيلي، بينهم الوزير وآخرين يتحسسون من حالتي، وبصددها قال لي سعدون غيدان، في جلسة خاصة جمعتنا سوية، في بيته عام 1976، ان الجماعة يدفعون بعدنان ليكون رئيس أركان الجيش، لكنهم يتحسبون لمشكلة وجود ثلاثة ضباط، معروفين بعلمهم العسكري، وإمكاناتهم القيادية، بينهم اللواء وليد وأنت، ورفض ذكر الاسم الثالث، مؤكداً ان جلسة تقييم حزبي ورد فيها اسمي، قال فيها عدنان آنذاك أني نظري، ولم أكن مُجرب عملياً، كذلك عصبي أستثار بسرعة. من هذا أستنتجُ أن عدنان وضعني في عقله من تلك الأيام، ولا أعرف ماذا قال أو دس في عقل الرئيس، من معلومات لتكوين صورة سلبية، هي من قدمتني اسما في قوائم العقاب.

توقف حليم عند هذا الحد، كانه أكتفى بما عنده هذه الليلة، أو أنه أراد أن يسمع من غيره، ففي السجن عادة ما يميل المسجونين، الى سماع قصص غيرهم، يقارنوها مع قصصهم وعلى أساس المقارنة، يشعرون بالتوتر أو الارتياح.

لم يبق من هذه المجموعة، من لم يعرض خبرته، أو مأساته غير عزام، لم يتكلم عن جل الموضوع، ولم يتطرق الى تفاصيل حاله

طوال الجلسة مكتفيا بالاستماع، فالتفت اليه حليم، قائلا، والآن جاء دورك سعادة السفير. فقال عزام، وكانه كان مستعجلاً القول، بالنسبة لي، كنت مثل غشيم تلدغه الأفعى ذاتها، من المكان ذاته مرتين، إذ حضرت الحفل الرئاسي، في قاعة الخلد، وسجلت ذاكرتي القوية، كل تفاصيل ما جرى في تلك القاعة اللعينة، وخرجت منها الى الوزارة، اشبه بالمصروع، قدمت ايجازا الى السيد حامد الجبوري الذي حل محل الدكتور سعدون لسفره بما جرى، عدت بعدها الى مكتبي متيقن جداً أن في الأمر شيء غير طبيعي، وفيه أسرار، واحتمال ان يكون ملفق بنسبة عالية. بقيت بعد العودة من الحفل سالماً في الوزارة، داخل مكتبي الى ما قبل الافطار، لم أشأ الاتصال مع أحد، وبدلاً من الذهاب الى البيت، قصدت صديق تربطني به علاقة قوية، وددت أن ينورني في خطوتي القادمة، ويهوّن علي خوفي من حزبي، ودائرتي، ومن نفسي، فحصلت منه على تهدئة مؤقتة لقلقي، أعادتني الى البيت قبل السحور.

في الطريق الى البيت، مرت على خاطري كثير من الأفكار، بينها الاختباء مؤقتاً، أو السفر الى خارج العراق هروباً، لكن ترشيحي الى سفير في واشنطن، وموافقة الجانب الأمريكي على الاعتماد، وانتظار موافقة الرئيس على موعد السفر، أعاقت كل مشاريعي، قيدت قدرتي على المجازفة، وجعلتني مثل اسفنجة تمتص فقط ما يأتي من صدمات.

بقيت عدة أيام أتابع الموقف من بعيد، أدقق في قوائم الاستدعاء الخاصة بالسفراء، أراجع فكرياً أصول المتهمين، أنتظر موافقة الرئيس على الالتحاق بوظيفتي الجديدة، سبيلا لهروبي بعيداً عن المحرقة، التي بات سعيرها يتسع، ولهيبها يقترب من أن يكوي الجميع.

لكنهم لم يتركونا نهدئ، فالسيناريو معد، والتنفيذ على مراحل.

أنا واثق من أن إسمي من بين أسماء، كانت موجودة منذ اليوم الذي حصل فيه الحفل بالقاعة البائسة، لكن السيناريو الذي أعدوه، يتطلب إخراجه لأن يكون التنفيذ على مراحل متتابعة. وقد بدأت المرحلة الخاصة بيّ، بالساعة السادسة من يوم 31 تموز، تلفون جاء من شخص، قال أنه خفر الوزارة، طلب مني تغيير ملابسي، والتوجه على الفور الى مقر الوزارة، لمقابلة السيد الوزير في أمر هام، هو بالانتظار، والسيارة التي ستقلك موجودة أمام الدار. أرعبني التلفون، وطريقة إملاء الأمر بالحضور، هزتني من الداخل. بدأت أثناء تغيير ملابسي أضرب أخماس بأسداس، عاودتني فكرة الهروب، لكنها فكرة مجنونة، الهروب في هذه الأيام، كمن يرمي الهارب نفسه في حوض مليء بحامض الأسيد "التيزاب".

غيرت ملابسي، تسللت من البيت، لم أشأ اقلاق أحد يزيد من قلقي، لم أودع زوجتي التي أنجبت لنا ولداً قبل أسبوع، خرجت الى الشارع، فوجدت السيارة كما حددها الخفير، سارت بيّ بغير الطريق الذي تعودت سلوكه يومياً الى الوزارة، سالت السائق الذي لم أره في الوزارة من قبل، فطلب مني السكوت، ولما شاهدني أتحرك في مكاني، أعتقد أن لي نية ما، فأشار عليّ بضرورة الهدوء والامتثال الى الأوامر، ونوه عن سيارة أخرى تتبعنا من نفس النوع فيها ثلاثة شباب.

أوصلوني أولاً الى البناية الرئيسية لجهاز المخابرات، وضعوني في غرفة خاصة بجنب الاستعلامات، ومنها نقلت الى البناية التي جمعتنا في يوم المحاكمة، وما تبقى أنتم جميعا تعرفون تفاصيله المشتركة.

أجلوا يا سادة أحاديثكم الى وقت آخر، الفجر قارب على البزوغ، وعلينا النهوض في السابعة، هل نسيتم التعليمات، قالها مرتضى، إيذانا بالاستسلام الى نوم الليلة الأولى، في سجن ابو غريب، فأغمض عينيه على ألم الخيانة، وسلم نفسه طوعاً الى سلطان النوم.

أما طارق، وقبل الاستسلام لهذا السلطان العظيم، قد جلت هذه الليلة، في هذا السجن عقله، فأزالت من خلاياه ما يخص الحزب ومبادئه، كأنها كشفت عن غشاوة غطت بصره، وبصيرته طوال تلك السنوات، فأخذ على نفسه عهداً، إن خرج منه على قيد الحياة، سوف لن يتردد دقيقة واحدة في مغادرة العراق، وعائلته ما بقيَّ الحزب حاكماً.

ومن جانبه أمضى السفير شكري، ليلته هذه كأنها عمر طويل، إذ لم يشعر منذ أن وطئت قدماه أرض السجن هذا اليوم، وكذلك في الزمن الذي سبقه ابان حكم عبد السلام عارف بليلة أطول منها. فكر كثيراً، لام نفسه كثيراً على عدم الأخذ بنصيحة صديقه الدبلوماسي في وزارة الخارجية المجرية، وعاد الى العراق رغم التحذير الذي جاء على لسانه بشكل صريح.

بعد أن أخذ الجميع أمكنتهم على الأسرة، قال حامد من مكانه على السرير من دون اعارة الاهتمام، الى تعليمات الالتزام بالصمت، بعد حلول موعد النوم.

لقد حل هنا في هذه الزنزانة اللعينة الزمن المستحيل... الزمن الذي انكفأ فيه الحزب على رفاقه المخلصين.

لم يعد ثمة معيار للنضال.

كأن القادة ينؤون عن قواعدهم، منشغلين بأعباء التمسك المطلق بالسلطة، وأدوات بسط السيطرة والنفوذ، بقوة القهر والتعذيب.

تصبحون على خير، فالمشوار طويل.

***

يقترب الشهر الأول من نهايته. بدأت لهجة الحراس وضباط الخفر بالتبدل، ظهر جاسب في الصورة وقد تحجرت في عينيه نظرة مخيفة. أطلق صافرة بنفس طويل، كمن يُحَكّمُ بين فريقين يلعبان كرة الركبي بانفعال شديد، لوحَ بعصاه الغليظة وقال، تجمعوا أولاد الزنا، هنا أمامي في الحال.

نعتهم هكذا بعبارة أشرت، بداية عهد من السباب المقذع.

نحن لسنا أولاد زنا، قالها الدليمي حامد، بلغة اليائس من الحياة، فأقترب منه جاسب. سأله، من أنت؟. فأجابه أنا حامد الدليمي.

اخرس، أنت الرقم "12" سجين قذر، هل نسيت أنك هنا مجرد رقم؟. ثم التفت صوب الآخرين، ذكرهم ثانية بأنهم مجرد أرقام، وحذرهم بالقول، أن من يجيب عند مناداته بغير الرقم، سيرى جهنم في هذه الدنيا قبل الآخرة.

كان هذا الرد ايذانا بلحظة، لم ير فيها حامد سوى السيقان التي انهالت عليه ركلاً، وقد سدت رؤيا الابصار بالأسود الغامق. شعر بعينيه قد وقعتا في عتمة، لا نهاية لها، وإن انفتحتا على وسعهما مقتاً، وأحس عقله متجه دون سيطرة منه، الى الاستجارة بمن ينقذه من وَبال هذا الهم القاتل، وعبث اللا معقول.

صار كرة تتقاذفها الأرجل بفضاضة، حتى سقط يتلوى، وكأنه ألقيَّ من على سطح بناء يرتفع ثلاثة طوابق.

حرك ذراعه اليمنى بصعوبة واضحة.

حاول فتح عينيه من دون جدوى، كأن شيئاً أخاط جفونها التي تهدلت الى أسفل. كانت العصا الأخيرة للضابط جاسب، قد دقت سيخاً حديدياً، أخترقه من فوق هامته، محدثاً نزفاً شديداً صاحبه ألم ضاغط، مثل ظل لا يفارقه، مد سمومه من أعلى رأسه، الى أسفل البطن، امتدادا شبيهاً بتمدد الحرباء في الجو الخانق. هكذا استمر الى قاع القدمين، بوقع بات مضاعفاً عند أطراف الأصابع، فأقعده في مكانه، لم يعد قادراً على القيام منه، ولا المشي بعيداً عنه، فتأرجح جسده في لجة الألم المتواصل، والشلل الذي أحدثه الضرب المتوالي. وعندما فشل في محاولة التحرك، نادى جاسب على الرقم "20"، أن يسحبه من هذا المكان، وأن يلقي به في باب المرحاض، ليكون عتبةً يعبر من فوقها، الذاهبون الى قضاء حاجياتهم يوماً كاملاً.

حاول حليم سحبه، لكنه فشل في إتمام المهمة، فللسيد حامد جسم خشن، ووزن يزيد عن الثمانين كيلوغراماً، وإن نقص أكثر من ثلاثين خلال شهر واحد، فطلب راجياً السماح لأحد أن يساعده، فنادى جاسب على الرقم "17" لتقديم المساعده في سحل من اسماه إبن الزنا.

بدأت عملية السحل من اليدين لجسم هامد لا حركة فيه، وساقان يتأرجحان يميناً وشمالاً، دون سيطرة من صاحبهما، حتى المكان المحدد.

لاحقَ سرمد بعينين مثل الجمر، بدن حامد الممزق ركلاً، عند سحله الى المكان المحدد، وكيف يرمى بهذه القسوة. تبادل النظرات

السريعة مع زملائه، سكان هذه القاعة، الذين رُصوا وإياه واقفين في ركنها الأيمن، لا يجرؤ أحدهم على التنفس، بينهم طارق الذي فَهِمَ نية سرمد للتدخل بالكلام، فشده من وسطه، إشارة الى الاكتفاء بتبادل النظرات.

هكذا يبقى الرقم "12" اللعين، إبن الحرام الى يوم الغد في نفس المكان، ليتربى من جديد. هذا درسه الأول، بل درسكم جميعاً إن كنتم تفهمون، قالها جاسب موجهاً كلامه لعموم النزلاء سكنة هذا القاطع، الذين غطوا في سبات من السكون، مستفيدين من درس أول، لا يمكن محو آثاره المرعبة، من الذاكرة المهشمة.

عاد أو أعيد حامد الى زنزانته، بعد أنتهاء عقوبته، عتبةً للصعود الى الحمامات. صعبت عليه الحركة، جسمه موجوع، وعندما يكون الجسم موجوعاً حتى التصلب، تصبح كل حركة من أعضائه صعبة، بل وشاقة.

حاول الجلوس متكئاً، بظهره الممهور بعشرات الكدمات على الحائط، ساقه اليسرى لا تتحرك، لا يحس بها، التصقت بالأرض، كأنها مثبتة اليها بأوتاد من حديد. سعى في محاولته ثانية، على تخليصها ببطئ، رفعها الى الأعلى، فشل بعد تكرار المحاولة عدة مرات، فاستسلم لأمرها، قضية مستحيلة.

ركز جل وعيه على هذه الساق المشلولة، لم يفكر إلا بها طوال الليل، وكأن كيانه أصبح موجوداً فيها، أو أنها أصبحت، هي الكيان الأكمل للجسم.

شعر كأنه ساق متسمرة على أرض الزنزانة، لابد أن تتحرك، حاولت أن تتحرك، لتساعده على نسيان وقع الألم، في باقي أنحاء

الجسم، حرك رأسه ليدنو قليلاً من الساق، فتصاعد الألم وخزاً من كل مكان، أعاده الى وضعه السابق متكئاً على الحائط.

حاول هكذا ساعات عديدة، فلم يجنِ سوى الفشل.

غيّرَ من توجهه بالاستناد على الساق الأخرى للنهوض، فشعر بالوهن وبتصبب العرق، وبالاستسلام لقدر مكتوب، نظر الى من حوله شاكياً، أو متأملاً المساعدة، فوجد جاسب واقفاً أمام الزنزانة، ملوحاً بعصاه لمن يحاول تقديم المساعدة. عندها شعر، وكأن الزمن فقد وقعه، يراه ثقيلاً بشدة، ويرى شاغله الوحيد أن يحرك ساقه، لكي يذهب الى الحمام.

ضغط على نفسه مرة أخرى محاولاً تحريكها، فتأسف على حاله كمن أصبح مشلولاً، وقبل حلول السابعة موعد النهوض بقليل، أحس بعينيه وقد أغرورقتا بالدموع، وأحس بعض منها سال على خديه.

***

التعري

ينتهي الشهر، ونعيم التمتع بهدوء يخلو من الضرب المنظم والشتم المقصود، حسب قياسات أبي غريب، السجن المركزي للدولة. فاق بعده الحراس من غفوتهم إيذانا ببعثرة الهدوء، وكذلك الضباط الخفر الآتين من الجهاز، وقد حملوا معهم توجيهات الشروع بتنفيذ برنامج قصاص، ينهي مرحلة الهدوء. تلك المرحلةُ التي شبهها حليم، في تعليقه الساخر بعد فض التجمع المفاجئ، شهر عسل لعروس غير محظوظة أنتهى بالطلاق، وشبهها طارق هدنة حرب، نكثها الطرف القوي.

وقف جاسب بعصاه أمام الصف المرصوف، ووقفوا جميعهم مثل جنود مستجدين، مطلوب تعليمهم الضبط والطاعة العمياء بالقوة. ألقى محاضرة عن مآثر الانتماء الى الوطن، كَحَلها بقليل من السباب، أعاد توزيعهم على زنازين تم الانتهاء من تهيئتها في الأمس، كل ثلاثة أشخاص في واحدة، ووقف على جنب ضابط أمن الجهاز المقدم لامع في وضع المراقبة ومتابعة حسن التنفيذ.

كان لامع رجلاً مغلفاً، في داخله أكثر من شخصية، يتوارى في كل واحدة منها خلف جدار، من الالغاز والاسرار.

الزنزانة الرقم (5) في الطابق العلوي يسكنها مرتضى الوزير السابق، وطارق السفير السابق، وزهير قائد الفرقة السابق. قريبا

منها الرقم (2) تجمع حليم وحامد وعزام، سفراء سابقين. هذه الزنازين بحلتها الجديدة أقرب الى حفر منها الى غرف نظامية، ضيقة، رطبة، طولها ثلاثة أمتار وعرضها مترين. الخروج منها الى الحمامات مرة واحدة في الصباح. وبعد الانتهاء من عملية التوزيع، أعطاهم الحارس دوارق ماء بلاستيكية مكرمة من السيد لامع، بعد توجيه منه الى ضابط الخفر جاسب في أن يكون لكل خائن دورق، له الحق أن يملئه ماءً في الصباح، ولا بأس من استخدامه استخدامات أخرى. تلغى الأرقام، تستبدل بأسماء. تقدم لامع لتلاوة بعض الاسماء بنفسه:

الرقم (16)... نعم سيدي.

أنت أبو صماخ... من أنت؟. يرد طارق بسرعة، أبو صماخ سيدي.

الرقم (20)... نعم سيدي.

أنت فصوع... من أنت، يرد حليم، فصوع.

تعال الى هنا، قال لامع واصفاً حليم بابن الكلب، واستمر في القول، يبدو أنك ما زالت تعتقد نفسك ضابطاً أو سفيراً، لم تتعلم بعد. تقدم إليه حليم، وقد دبَّ في قلبه رعب كبير. هجم عليه ضرباً بكفيه، وأعطى الاشارة الى جاسب، وثلاثة من الحراس، لضربه بأدواتهم الجاهزة بسادية مفرطة، أدرك وهو مازال تحت رحمة الهراوات التي انهالت عليه، كم كان مخطئاً في انتمائه لهذا الحزب، شتم الحزب في سره، شعر بوسع الخديعة التي عاشها من عمره حزبياً، وبصغر الذات التي في داخله، وخداعها قبل الآخرين لما يتعلق بالرسالة الخالدة، التي كان يكررها هدفاً في الاجتماعات الحزبية.

توقف الضرب بإشارة من لامع. تركوا حليم في موقعه جسماً يختض، دون سيطرة من تلك الذات المخدوعة، كمن وقع في نوبة صرع.

حاول استعادة توازنه، لم يعينه الفراغ الذي من حوله، ولا سيقانه المهشمة. لسانه من بقيّ سليماً بدليل استمراره بتكرار عبارة نعم سيدي. وبعد التوقف عن الضرب سَلمَّ جاسب ورقة مكتوبة فيها الكنى الجديدة إزاء كل واحد منهم. جميعها ذات دلالة، "النذل" كان من حصة شكري، و"الأصكع" مرتضى الحديثي، و"المكطن" حامد الدليمي، و"جليب" عزام ومن ثم "الغبي، الأثول، الرفش، الحبيني"[1]، وهكذا امتدت القائمة لتشمل ثلاث وثلاثين سجيناً هم القابعين في هذا القاطع من السجن. بعدها اتجه النزلاء الى زنازينهم، معلنين بهذه الواقعة انتهاء اليوم الأول من البرنامج الجديد.

جاء اليوم الثاني بحلته بائساً، دخل الحارس بخيزرانه الى الزنزانه الرقم (5)، ضرب مرتضى بكل ما جمعه من حقد، طوال حياته المليئة بالاحباط، وخرج من دون أن ينطق بكلمة، وهكذا فعل في اليوم الثالث والرابع، لنزلاء في زنازين أخرى، ليصبح الضرب بهذه الطريقة موزعاً عليهم بالعدل المطلق، مصحوب بشتائم رخيصة، حتى أعتاد الجميع توقع الحصول على ضربة من أحد الحراس، قبل التوجه الى الحمامات صباحاً، أو فيما بعدها بعض الأحيان.

---

(1) تبدو تلك الألقاب مفردات شعبية دارجة باللهجة العراقية، قد أختيرت بعدائية يريد من أطلقها في الأصل، الحط من أصحابها، فأبو صماخ يقصد به صاحب الرأس الكبير، والأثول تعني الأحمق بطيء الاستجابة، والرفش نوع من السلحفاة كبير الحجم، وهكذا.

عشوائية الضرب العادل مصحوب بالشتم، تتحول بعد الأسبوع الثالث، الى سياقات تقترب من الثابتة، يجلد الجميع يومياً بالخيزران المنقوع بالماء المالح، بعد التعداد الصباحي مباشرة. يختيار أحدهم لنوبة تعذيب قاسٍ بعد الظهر، حتى يتقيأ الصمونة التي أكلها وحيدة، بعد أن شمل التغير كذلك نوع الأكل، الذي أصبح وجبة واحدة عبارة عن صمونة، تقدم في الصباح، ومكرمة حرية تقسيمها ثلاث وجبات، أو أكثر حسبما يريد. قال حليم، لقد أنتهى عهد الرز والخضرة المسلوقة، بلا لحوم مع انتهاء أيام الهدنة. وقال رمزي سوف لن أشرب الماء، إلا مرة قبل الخروج الصباحي، لكي لا أضطر الى استخدام الدورق مبولة، وأضاف، أحمدُ الله أن غذائنا صمونة في اليوم الواحد لا يدفعنا الى التغوط إلا مرة كل يومين، كذلك في الصباح.

وإذا ما أصبت بإسهال، رد عليه طارق بأسلوب لا يخلو من التهكم، فأجابه لكل حادث حديث. ومع هذا استمر بمناكفته متوقعاً التغوط في هذا الدورق، والتبول فيه مع الاستمرار باستخدامه للشرب، لانهم يريدون هذا، وعلى هذا الاساس وزعوا الدوارق البائسة.

***

تسهم الدوارق في يباس الجلود.

زفرة ماء القعر الآسن من كثر استخدامها مبولة، تسببت في ظهور بقع في الجلود.

نَقصَ الوزن بشكل ملحوظ، بعد اقتصار الأكل على صمونة واحدة في اليوم، حتى برزت الاوردة في أماكنها، وبات سير الدم فيها

يرى بوضوح. مع هذا فإن استخدامها مرحاضاً للتغوط في الحالات الخاصة أمر وارد، وكان أول المستخدمين هو رمزي في الليلة التي داهمته فيها نوبة مغص معوي شديد.

جلب دورقه في الصباح التالي خجلاً.

وقف قريباً من طارق في الدور الى الحمام، ورائحة البراز تزكم الأنوف.

ألم اقل لك أننا سنستخدمه حتماً قال طارق، فأجابه على الفور، لقد تمنيت الموت عند استخدامه ليلة أمس وبوجود زميلاي، محمد وجعفر. لقد حاولت التحكم بالعضلات لساعات، صارعت خلالها الألم كثيراً، وفي نهاية المطاف فقدت السيطرة عليها، أقنعت نفسي، أن صاحبيّ غاطين في نومهم، لا يشعرون بما يجري في فضاء زنزانتهم، فساعداني على تسهيل الأمر بتمثيل الدور... يا له من قرف.

لِمَ الخجل يا صديقي، رد طارق، جميعنا على ذات الطريق، لا أخفيك سراً، نحن الثلاثة في الزنزانة قد استخدمناه مبولةً، صحيح في المرة الأولى كان الاستخدام صعباً، لكننا تعودنا استخدامه بشكل طبيعي، وأزيدك علماً أن الواحد منا يستخدمه الآن، وهو يضحك سفاهة. تقدم يا صاحبي وخذ مكاني في الدور، اغسل دورقك جيداً، واملأه بالماء، دون أن تنسى تهيئته لاستخدام آخر لنفس الغرض، فالطريق أمامنا طويل.

شكره رمزي على تسهيل مهمته في المرور أولاً، معتقداً أن لا أحد من زملائه أدرك فعلته، فبدا بعد ايام أنه كان واهماً، وإن الجميع قد استخدمه بالطريقة ذاتها.

بموازاة هذا الاستخدام، وبتعاقب الأيام زاد عـــدد الجلـــدات، وكذلك نوبات التعذيب، لا سيما في الأوقات التي يأتي فيها جاسب أو ياسين مخمورين، وباتت مشاهد الدماء، والأنين تصيبهم بالغثيان، لتكشف عورات المبادئ الخاصة بالحزب.

في أحدى الأمسيات أشتد الضرب، حتى أغميَّ على خمسة من المجموعة بينهم حليم وصالح ومحمد الحديثي في نوبة حضرها ضـــابط الأمن لامع، أعطى فيها تعليمات جديدة أصدرها الى جاسب قائلا، يتم التوزيع على زنزانات انفرادية، يعزل فيها الواحد عن الآخر.

يقضون حاجاتهم داخلها، على الأرض.

ألهى مانع بتعليماته الصارمة، خدمات الدوارق، عدَّ استخدامها مراحيض متحركة نوع من الرفاه غير المبرر، استبدلها بعلب معدنيـــة صغيرة من تلك التي يستخدمها معمل كـــربلاء لتعليـــب معجـــون الطماطم، لا يمكن الاستفادة منها مرحاضاً، لصغر حجمها، وسرعة امتلائها، طلب أن يكون فتح الزنازين، ساعة واحدة، لمرة واحدة في الأسبوع، اعتقدها كافية لأغراض التهوية وجمع النفايات، وتنظيـــف الارضيات بسعف النخيل، والمغادرة لتمرير الجســـم علـــى أشـــعة الشمس، بما لا يزيد عن الخمس دقائق، للحصول على فيتـــامين (D) بات نقصه الشديد، يزيد من هزال الأجسام النحيلة، وقـــد يميـــت البعض قبل الوقت المحدد لموتهم، أو قبل أخذ كفايتهم مـــن العـــذاب الدنيوي، المحدد على وفق البرنامج المكتوب.

في وحشة هذه الزنزانة الانفرادية بطول لا يزيـــد عـــن المتـــر ونصف، وأقل منه للعرض، تمنى طارق لو لم يكن موجوداً بهذه الدنيا في الأصل، تذكر ولعه بفكر الحزب وشعاراته، وانبـــهاره بالســـيرة

النضالية لرفاق صنعوا أقدارهم. نَدِمَ على هذا الولع، ونـــدم علـــى تصنيفه، أو وضعه شخص الرئيس يوماً، مع الذين أنبهر بهم وآمـــن بهم، شباب قادرين على تقديم الحلول، بدلاً مـــن الشـــيوخ الـــذين أتهمهم، صانعين ماهرين للأحلام الخرافية.

في هذه الليلة الموحشة بات يكلم نفسه، سألها كيف وثق بـــه، سنين وهو قريب منه، معتقداً معرفته بطباعه عن قرب؟. وأجابهـــا، يبدو أنني لم ولن أعرف طباعه، وأفكاره.

يا لها من سذاجة، يعتقد فيها الانسان معرفته بالشيء، وينتـــهي به المطاف لم يكن عارفاً أي شيء.

يا لي من ساذج، آمنت به قائداً قوياً للعراق.

وأخيراً وضع كلتا يديه تحت رأسه، نظر في وحشـــة الزنزانـــة المخيفة، وعندما لم يجد شيئا يلهو به، سأل نفسه ثانية، لِمَ القلق إذن، وبت عارفاً كل بواطن الأمور؟.

حاول لملمة أشلائه الموجوعة، تذكر زوجته الحبيبة، كيف حاولت من جانبها منعه من الاستمرار في الكلام، عندما كان راقداً في مستشفى "شاريتيه" ببرلين خوفاً على صحته المهلهلة، وكيف أصر على إتمام مـــا أراد قوله، من أن الرئيس صديقه بالفعل من عدة سنوات، وكيف كانـــا يخرجان معاً، يتناولان العشاء في النادي العسكري، وكيف عمل تحـــت مسؤوليته الحزبية المباشرة، لفترة ليست بالقصيرة، لم يكن يعرف ان هذا الصديق الذي جمعتهما الزنزانة الثالثة، في السجن رقم واحد في معسكر الرشيد، هو من أمرَ وحدد مدة سجنه سبع سنوات.

تذكر كيف كان الرئيس في ذلك السجن، ينتقـــد إجـــراءات التضييق على السجناء السياسيين، وقلة المرافـــق الصـــحية وتباعـــد

الزيارات، وقوله آنذاك، أننا وعندما نستلم الحكم، سنُشَرع قوانين تجعل السجون أماكن إصلاح وليس عقاب، سنمنع السجن السياسي لأنه تقييد فاضح للحريات. كيف نقيّد الحريات، وثاني مفردة في شعار حزبنا العظيم هي الحرية؟.

أين هي الحرية؟.

وأين مضى ذاك الكلام الممل عن السجون، وتقليصها أو الغائها؟.

وأين هي العهود التي قدمها أمامي وكريم الشيخلي، فيما إذا أستلم الحزب السلطة فانه سيدعو شخصياً الى أن يكون للعراق سجناً مركزياً واحداً، مأوىً للقتلة والمجرمين، لا مكان فيه للسياسيين، وان كانوا من الأعداء، وسيدعو الى احترام الجميع حتى الشيوعيين الذين هم من بين الأعداء.

كيف يحترم الأعداء، و لم يحترم رفاق له، سائرين وإياه على نفس الطريق؟.

كيف صدقته في ذلك الحين، عندما قال لقد أخطئنا في التعامل مع الشيوعيين عام 1963، ونريد محو أخطائنا، بمجرد استلامنا السلطة ثانية؟.

كم أنا ساذج لم اتنبه الى كلام حبيبتي، عندما قالت في المستشفى، لقد مضى الآن على وجودكم، في السلطة اثنا عشر عاماً، وما زالت السجون قائمة لم يهدم منها ركن واحد، وإن لم تقصد في قولها آنذاك، زيادة همي الفاجع.

والأكثر سذاجة اعتقادي أنها ستُهدم، وتفاؤلي بمجيء الرئيس الى الرئاسة، الذي سيهدمها بنفسه، لأنه كان من أكثر المتحمسين الى

هدمها، وسيبني إنسان يحترم ذاته ويعتز بوطنه العراق، لأنه يحب العراق والعراقيين، لا يقبل أن يضام أحد فيه، كما يتظاهر.

كم أنا ساذج عندما صدقت قوله، وهو الى جانبي في السجن، من إنه يحلم بحكم في العراق على الطراز الغربي، يأتي الرئيس فيه عن طريق الانتخاب، يحتكم فيه الجميع الى القانون، يتصدر مقاعد برلمانه خيرة أصحاب العقول المخلصين، يُدفع فيه العسكر الى ثكناتهم، لا يدخلون السياسة، ولا يتدخلون في شؤونها.

ما هذا الهراء، كنا نصدق أي شيء يقال، وكأن غمامة تحجب عنا الحقيقة، التي لم نعد نسمعها من أقرب الناس الى قلوبنا.

هنا وفي هذه اللحظة تذكر، كيف لم يتفق وزوجته، عندما ردت على موضوع عدم تدخل العسكر في السياسة بقولها، لكنكم عسكريون دخلتم السياسة، وتتدخلون بها من أوسع الأبواب، وتذكر كيف أجاب بانفعال، من أننا الحزب القائد، نحن من أعد للثورة ونفذها، والشرعية الثورية، تفرض علينا قيادة البلاد بعسكريين عقائديين، لا يتآمرون ولا يخونون، يتدربون للقتال في سبيل الأمة العربية، اذا ما أقتضى الأمر.

ندم على معاتبتها بالقول أنكِ بعيدة عن ما جرى، إذ ومنذ استلامنا السلطة عام 1968 لم تمر علينا سنة الا وحيكت ضدنا مؤامرة، وآخرها هذه المؤامرة التي حدثت في الأمس، من قبل الرفاق التي حيرتني بالفعل. وبعد أن أكمل تذكره قال مع نفسه، لم يعد التصديق سذاجةً، بل غباءً عندما تسد الغمامة منافذ الادراك، وعندما يحشر الواحد في ذنب لم يرتكبه، يا ترى كم عدد الأبرياء القابعين في السجون، التي ضاعفها الحزب، والرئيس خلال سني حكمه؟.

بعدها ردد وقبل الاستسلام الى النوم، ومازالت يداه تحت رأسه متشابكتان عبارة "كم أنا ساذج حقاً".

***

يقيم حليم في الزنزانة المجاورة، وقد أبتعد عنه النوم. حاول التغلب على هذا الابتعاد بالتحرك في الفسحة الخانقة ضيقاً، ولكي يحافظ على وعيه، في قهر الابتعاد الذي يمضي بطيئا، لجأ الى الذكريات، الى باريس واللقاء الأخير بالملحق العسكري عامر، ومحاولته الاستفسار عما كان يجري في بغداد بطريقة دبلوماسية، وكيف تحول سريعاً، باتجاه الاستغراب من سلوك الفرنسيين، عندما وجد في عينيّه وحامد، علامات استفهام، وكأنهم يسألون نفس السؤال.

قال في نفسه، بات يحاورها، بطريقة يريد منها إطالة الحوار، عامر عسكري بارع شرح باقتدار، تلبيته طلب وزير الدفاع الفرنسي للمقابلة المستعجلة، حيث لم يكن قد تسرب أي خبر عن المؤامرة، ورده على السؤال الآتي من الوزير، عما يجري في بغداد، واجابته الذكية بعدم المعرفة، حيث لم تقدم الوزارة الى ملحقياتها أي شيء عن الموضوع، وتعجبه من ضحك الوزير الماكر، وخجله من الضحك، عندما نوه الى التغيير الجذري الذي سيحصل في العراق، وتقدم الشباب الى تحمل المسؤولية، وما سيعقبه من تغييرات ستمتد آثارها الى خارج العراق، والختام بتمنيات فرنسا، والرئيس فاليري جيسكار ديستان للعراق، أن يكون بلداً مستقراً يتمتع شعبه، بثرواتهم التي لا تنضب.

لقد تذكر السؤال الذي وجهه الى عامر، في مطعم البرج عن علاقة ما يحصل في بغداد، بالثروات وتمني التمتع بها، وكذلك إجابة عامر من أن كلام الوزير، فيه تلميح الى النفط، الثروة التي أممها الحزب، والى نذر الشؤم التي تنتظر البلاد.

استمر في التكلم مع نفسه بطريقة، وكأنه يهذي في السر فسألها، هل يعقل أن يكون للثروة النفطية، علاقة بما جرى وسيجري؟. وأجاب بنفس السياق، كل شيء وارد... هل نسينا الطريقة التي تم فيها التأميم، وذاك الانذار الذي وجهته، الشركات النفطية مبطناً؟.

وهل غاب عن بالنا قدراتها الفائقة على التدخل، في الدول النامية منها على وجه الخصوص؟.

وهل سينسى الغربيون حادثة التأميم، التي صورناها صفعة موجعة لهم، وهم من اكتشف النفط، واستخرجه من بطون أرضنا الصحراوية؟.

ختم هذياناته المنبعثة في السر، بالعبارة ذاتها التي بدأ بها الاسترسال، في الكلام "كل شيء وارد". وأكمل استرساله في سيل الأفكار، التي تعودَّ التحكم بها في الوقت والمكان الذي يريد:

لم يعِ سياسيونا أن للشركات النفطية قدرات فائقة، في التأثير وخلق الأزمات. كيف يعون وقد اعمتهم الانفعالات الثورية؟.

حاول إنهاء هذا التداعي للأفكار، لكنه عاودها بعد أن وجد فيها، متعة التغلب على الوقت، الذي يمر ثقيلا في الوحشة، ووجد الصورة العقلية لكلام حامد، في ذلك المطعم تنتقل من خلايا ذاكرته البعيدة، الى سطح الذاكرة القريبة. بات وكأنه يسمعها، بصوت

حامد الذي يغط في نومه بنفس الزنزانة، عندما قال في حينه، حليم أنت تضخم الأمور كعادتك وتفلسفها، وأستمر في القول مؤكداً، أنه لا يتفق مع هذا الرأي، ويرى أنه من المرجح أن تكون أسئلة وزير الدفاع، وتمنياته مجرد تكهنات تتأسس على أفكار أرسلها، ملحق السفارة الفرنسية العسكري في بغداد، وأراد الوزير الاستفهام عنها.

صورة المطعم القابع أعلى ذاك البرج الذي أنشأه غوستاف إيفل عام 1889، وسمي باسمه، تظهر أمامه بهيأة خيال يقترب من الحقيقة، شجعته لأن يغمض عينيه، بغية التمتع بتفاصيل الطاولات، وأناقة السيدات الباريسيات الجالسات في القرب، وذاك الضياء الليزري باتجاهه، بعيداً من أعلى البرج مثل الوهج الساطع، نهاية كل ساعة.

فكر في إيقاظ حامد ليسأله، كيف لك ألا تتفق مع استنتاجاتي، عن خطورة الموقف في العراق؟.

آه لو كان قد سمعني حامد، عندما قلت له في ذاك المطعم، أن الوضع خطير، وإن نسيبي عبد الرحمن حذرني من المجيء الى بغداد، عندما اتصلت به، قبل الذهاب الى البرج بساعة واحدة.

كم تمنيت لو كنت قد سمعت كلام عبد الرحمن.

يا ليتهم أعانوني بوضع النقاط على الحروف، عندما قصصت عليهم وقائع ذهابي الى بغداد، في الشهر الماضي مع الرئيس السنغالي، الذي زارها بدعوة من الرئيس البكر.

سأل عزام الذي أدرك وجوده صاحياً، ما به في هذه الساعة من الليل؟. فقص عليه ما حدث مع الرئيس البكر، لمجرد الرغبة في الكلام قائلاً، لقد دخلت على البكر قبل دقائق من دخول الرئيس الضيف، فوجدته مجرد انسان، كأنه جسم قد تصلب من وقع الشد، واهن لا

يقوى على الحراك، لسانه هو الباقي بوضع سليم، أوقفاه اثنان من المرافقين قبل دخول الرئيس الضيف، وبعد المصافحة، لم يقوى على البقاء واقفاً، بانتظار الجلوس البروتوكولي للضيف.

أراد انهاء الزيارة بسرعة، اذ لم يتطرق الى أية تفاصيل، ولم يلتزم بجدولها الذي وضعته الوزارة، بالتنسيق مع دائرة المراسم، شكر الرئيس على زيارته وابدى، استعداد العراق للوقوف مع السنغال. كان كلام دبلوماسية عابر. لقد هرب من الوقت المخصص لتبادل الحديث بدهاء، عندما أشار الى الوزير الذي يرافق الضيف الدكتور رياض، بإعطاء فرصة له، من أجل الاطلاع على معالم بغداد.

كيف لي لم أدرك ما كان يعانيه البكر؟.

لماذا لم اسأله عما كان يعاني عندما اقتربت منه، في غرفة نومه الملاصقة لقاعة الاستقبال؟.

كم كنت بليداً ساعتها!.

كيف لم أشك في حال رئيس دولة، تعمد إنهاء اللقاء قبل الوقت المحدد؟.

لقد اتكأ في وقفته على حافة الكنبة، حتى غادر الضيف محاولاً تفادي السقوط.

لماذا لم استوضح منه، وقد مشيتُ معه الى غرفة النوم، وحملته بيدي والمرافق الاقدم، لوضعه على السرير كأنه شخص مخدر؟.

لماذا لم أبق معه عندما نظر الى عينيَّ قبل توديعه، وأصرَ من جانبه على البقاء عندما كلمني يائسا وقال، هذه نهاية لم أكن أتوقعها.

آه لو كنت قد انتظرت الى جانبه دقائق، لعرفت منه فيما إذا كان سيتنازل فعلاً، عن الرئاسة، وهل هناك ضغوط من نائبه، والشلة التي تحيط به، لإتمام هذا التنازل كما حصل؟.

توقف قليلاً عن الاسترسال في الكلام واستدعاء الصور العقلية، وبدل تداعياتها الى صيغة تساؤل، من قال أن البكر سيسرني بمعاناته والضغوط؟.

ومن يضمن أن المخابرات التي يشرف عليها النائب، قبل أن يكون رئيساً، لم تُدس له لاقطات لتسجيل أحاديثه في غرفة نومه؟.

أسئلة كثيرة وردت في الحال، يجيب عنها مخاطباً عزام بطريقته الخاصة، لا تأبه أخي العزيز، إنها مجرد افتراضات لا فائدة منها، لا تنفع في هذا الليل الموحش سوى، لقتل الوقت.

تصبح على خير، وان كنت متيقناً بعدم قدوم الخير.

***

تنتهي فترة السجن الانفرادي ثلاثة شهور متتالية، تَجمعَ النزلاء في قاعة واحدة، بتوجيه مباشر من الضابط لامع عند حضوره خصيصاً لهذا الأمر.

أنقضى يومهم الأول بلا نوم، اثنان يتعانقان ومثلهما مشغولان بحديث، لا يسمعه الآخرون، لقد تعلموا الكلام بصوت خافت، وتعلموا التفاهم وتعبير الرسائل، بتحريك الشفاه عندما تقتضي ضرورات الحذر.

أنتهى ألم الوحدة وَعدّ الارقام بالمعكوس، والصلاة عشر أوقات، جميعهم تعلموا الصلاة أكدوا حقيقة أن الانسان، وعندما يفقد الأمل

في حياته على الأرض، يتوجه الى السماء، بصلاة ينشد منها الخلاص، وكأن كل ليلة يصلي فيها هي ليلة قدر، يمكنها تحقيق أمنيات الخلاص، ما دام في داخله شعور بعدم فقدان الايمان بالله، وهو واقف بين يديه، لهذا تحولت الزنازين الضيقة في هذا القاطع الخاص، الى مساجد صغيرة، ترتفع منها الأدعية والتسبيحات، ممزوجة بآهات صامتة وخشوع مهيب، وتحولت المشاعر هذا اليوم، الى إحساس الالفة بالوجود معاً على سفينة، وان كان ابحارها صوب المجهول.

لا بأس من الابحار الى المجهول، مع آخرين يبحرون هم كذلك بنفس الاتجاه.

هكذا نوع من الابحار أرحم، من الرقود في زنزانة على انفراد، وتلقي الضرب بأنابيب مطاط، لا يسمع أنينها شريك يتحمل جزءً من ألم الروح.

تنبه طارق الى حاله، وقد ارتفعت حرارته بشدة، حاول مرتضى دعوة الحارس لإحضار الطبيب، أو حتى مضمد صحي، ولما لم يجد استجابة، توجه الى سرمد للمساعدة في نقله الى الزاوية الشمالية للقاعة، وإبقائه على بطانية عفنة كانت متروكة من أولئك النزلاء الذين أخلوها مساء أمس، قيل إنهم رحلوا، لا أحد يعرف وجهتهم، بعضهم قال إنَّ رحيلهم كان الى قاطع الاعدام، ينتظرون هناك مواعيد التنفيذ، وآخرين نفوا هذا، وحددوا جهة الرحيل صحاري الجزيرة، ليدفنون هناك أحياء. مرتضى لم يكن مهتما ساعتها بجهة الرحيل، مشغول بارتفاع حرارة صاحبه المفاجئة، وعدم الاستجابة لاستدعاء الطبيب، فاقتطع جزء من جلابيته "دشداشته"، خرقة متهرءة، أنقعها في الماء الباقي في علبته المعدنية، وضعها على هامته،

طريقة تقليدية لتخفيف الحرارة، لكنها لم تخف بهذه البساطة. لقد استمرت مرتفعة، وأستمر هذيان صاحبها، ببعض العبارات غير المفهومة. ومع هذا لم ييأس مرتضى، فطلب من سرمد، إحضار قدر من الماء، يجمعه من الآخرين، ما تبقى لديهم من ماء، فحال طارق لا تتحمل التأخير، ولابد من تخفيض حرارته.

عاود وضع خرقة القماش البالية في الماء، وكرر وضعها أعلى حاجبيه، هكذا استمر ساعات، غاب خلالها طارق في تيه من الهذيان، عادت به الى الماضي، الى أيام الدراسة الثانوية، والى قريته الجمجمة، وكيفية انتقاءه الى صفوف السياسة، عندما كان شاباً في بداية مشوار المراهقة، بعد الاعجاب الشديد بفكرة الوحدة العربية، التي تصور عالمها آنذاك، سلسلة مدن متلاصقة مع بعضها بعضاً، تبدأ عند حدود العراق الشرقية، لتنتهي في آخر نقطة على الساحل المغربي، المطل على المحيط الأطلسي. اعتقدها قوة ستعيد للعرب مجدهم، كما كانوا في أيام الدولة العباسية، وزمن هارون الرشيد، وعادت به أيضاً الى أيام سوريا، عندما وصلها هارباً وهو طالب في الصف الخامس الثانوي، يوم هاجم الأمن، وكراً للحزب في الحلة، وطارد جميع أعضاء الوكر هو واحد منهم.

لقد انفتحت ذاكرته واسعة بتأثير الحرارة المرتفعة، أعادت اليه بانفتاحها تفاصيل الهروب، وكأنها حدثت قبل أيام. استوقفته مساعدة محمد جواد الشاوردي أحد أقاربه العاملين في بغداد، ذلك الرجل المعروف بعلاقاته الواسعة، مع أصحاب السيارات الخاصة بالحمل، العاملة على نقل البضائع بين العراق وسوريا، وكيف اختار له أكثر السواق جرأة ودراية بفنون التهريب.

لم يكن ذلك السائق جشعاً، فالمبلغ الذي طلبه عشرة دنانير، يستلمها بعد الوصول الى دمشق. كان ذلك اليوم يوماً حاراً، من صيف عام 1956 عندما أيقظه محمد، من منامه على سطح البيت، الذي يسكنه في علاوي الحلة، طالباً التهيؤ لبدء الرحلة الى المجهول، فالسيارة بحمولتها من القطن، المُصدر الى سوريا تقف عند الباب، وسائقها الاسطة كاظم، يطلق إشارة التنبيه من مزمارها المميز، منادياً بصوته الخشن، لقد حان وقت الرحيل.

مر صوت المنبه في ذاكرته، كأنه يسمع نبرته في هذا الجو المعتم، ومرت صور نزوله من السطح، بسرواله الأسود وقميصه الأبيض، كأنه يراها أيضاً. أندفع في ذاكرته عميقاً، فتش عن شيء يشعره، بعافية الشباب يوم كان لا يعير اهتماماً للحرارة التي ترتفع، فجاء أولاً، صوت الأسطة كاظم، عند الاقتراب من سيارته يوم قال، دعك من هذا اللبس الصبياني، لن نذهب في سفرة مدرسية، الى جنائن بابل المعلقة... عد الى البيت غيّر لباسك كما هو لبس الصناع "دشداشة" وحزام على الوسط، لكي يبدو منظرك مساعداً لي، في طريق السفر الطويل.

لم ينس ذلك الترحيب القوي، من قبل الاسطة كاظم، بعد ارتداء "الدشداشة" عندما قال، نعم هذا تمام، من يشاهدك الآن يقول مساعد جيد، وان كنت نظيفاً أكثر من اللازم، لا بأس سيأخذ التعَرق، والغبار على الطريق من هندامك مأخذاً.

وتذكر أيضاً سؤال السائق، عن معرفة السياقة، وتلقينه بعض الإجابات الدارجة، مع قليل من المصطلحات الفنية، وكلمات عادةً ما يكررها المساعدون، في ردهم على اسطواتهم من السائقين، وجاء

في آخر سيل الذكريات شجاعة ذلك السائق، إذ لم يخشَ في طريقه حتى دوريات الشرطة العائدة للجمارك، المخولة بالتأكد من تصاريح التصدير ونوع البضاعة المصدرة، وثقته من أن لا أحد يدقق في الأوراق الثبوتية، في أثناء الطريق ما قبل نقطة الحدود.

لقد وجد في الاستذكار فرصة هروب، من هذيان الحرارة، فاستمر بها مروراً على سيارة الحمل، التي كانت تسير يومها بسرعة قصوى، لا تتجاوز الخمسين كيلومتراً في الساعة، وعلى توقفها عند انتصاف الليل، بمسافة خمسة كيلومترات عن نقطة الحدود العراقية السورية، ليعلن الاسطة كاظم اقترابهم منها، ولزوم النزول من قمرة السيارة، الى مكان الاختباء، الذي أعده ملائماً وسط بالات القطن، وان كان حاراً ومظلماً.

قارن بين ظلام المكان حول بالات القطن، وبين نور هذه الزنزانة الموحش، فوجد الأول نعمة نهار، يتمنى البقاء فيها ساعات بل أيام. لقد كان ذاك الظلام مسراً، فيه أمل الوصول الى المكان المطلوب، عكس هذا النور، الذي لا نهاية لوحشته القاتلة. كان ذاك الظلام عالماً تنفتح فيه الاسارير، عالم يمكن أن يمتلك المرء مفاتيحه، خاصة وإن مئات سبقوه بامتلاك المفاتيح، أما هذا العالم فهو عالم مغلق، لا يفضي سوى الى المجهول. حقاً لقد أبدع الأسطة كاظم، بترتيب هذا المكان وسط البالات، جيباً فارغاً بحدود المتر، يسمح بالتمدد المكور على بدن السيارة، ويسمح أيضا بالحركة، لتفادي سيخ الحديد، الذي عادة ما يغرسه شرطي الجمارك الحدودية، سبيلاً للتأكد من كامل الحمولة، قطناً كما هو مثبت في اذونات التصدير، كان مناسباً للتهرب من ذاك السيخ، الذي غرسه الشرطي، كأنه سهم أطلق من قريب.

تذكر كيف استطاع تفادي ذاك السهم بحركة الى اليمين، وأخرى الى الخلف، مثل مقاتل قديم أخذَ له مكاناً مميزاً، عند أحد مزاغل القلعة التي يدافع عنها، مع غيره من الجند باقتدار. عاش الرجفة ذاتها خشية أن يأتي السيخ على أحد عينيه التي مر من أمامها بمسافة لا تتعدى السنتمترين، لكن الجالسين من حوله يراقبون حالته، اعتقدوا حدوث هذه الرجفة، كنتيجة حتمية لانخفاض الحرارة، بعد ارتفاعها الشديد.

استمرت الذكريات متلاحقة، توقف الجسم عن الارتجاف، أكمل وقائع الاستذكار متتالية، كأنه يقرأ رواية مثيرة، لا يقوى على تركها قبل اكتشاف النهاية، والنهاية في قصته هذه التي حدثت من عقدين، ونصف من الزمان تتعلق بتوقف سيارة الحمل، بعد قليل من السير داخل الحدود السورية، ونزول الاسطة كاظم، لإزالة بالات القطن المرتبة جيداً، وخروجه غارقاً بهموم الظلمة والتعرق، يلهث حاجته الى الاوكسجين. قارنها بحالته الان، فوجدها نزهة تستحق الاحتفاظ بتفاصيلها، لانعاش الذاكرة، ووجد في كلام الأسطة كاظم "حمداً لله على سلامة العبور، وعدم فقدان الوعي داخل الجيب الفارغ"، والاشادة بالشجاعة، قوة دفع أعانته على الصبر، وتحمل ما آلت اليه الحال. لكنه وفي الوقت نفسه، ضحك على حاله، ضحكة لم تظهر، ولم يلاحظها القريبين المشغولين بارتفاع حرارته. تمنى لو أن الأمن في ذلك الوقت وتلك الرحلة، قد ألقى عليه القبض آنذاك، وأحتجزه لفترة زمنية لكان قد تبدل المستقبل، ولما وصل الى هذا السجن أبداً.

الساعات التي قضاها راقداً على بطانية، رائحتها تشبه رائحة الموت، تماثلت في مشاعره المبعثرة كالسنيين، وقف فوق رأسه

الجميع، بينهم الحديثي مرتضى، مَثلَ دور الطبيب المنقذ، ومثلَ استفساره عن الحال، وماهية الشعور عاملاً لقطع سيل الأفكار الملذ.

***

المتعة بالوجود معاً لن تدوم سوى أسبوع واحد، صدرت الأوامر المنقولة الى جاسب تواً، بالعودة الى الزنزانات السابقة، ثلاثة أفراد في واحدة، كما هو الحال من قبل، الملابس التي يرتدونها أو بقاياها تمزقت، لأنها لم تبدل طوال السنة الأولى التي انتهت منذ أيام، ولم يسمح بغسلها إلا مرة واحدة، جاءت قبل يوم من انتهاء نعمة التواجد معاً في قاعة واحدة، فاضطروا الى تركها في الحمام بعد اكتشاف تفسخها، عند مرور الماء عليها، بينهم طارق وسرمد وحليم وعزام، واكتفوا بما تبقى منها في شتاء حل قارصاً في برده، وحل معه في المكان، لامع الذي رقيَّ الى رتبة عقيد، حلول شؤم، شبهه سرمد عندما رآه، بطائر البوم، لأنه لا يحضر الا ومعه الجديد، في فن التعذيب، وجديده هذه المرة، سحب البطانية الوحيدة من كل سجين، وكذلك ما تبقى من الملابس التي تغطي قسم من الأجسام الهزيلة، صاح من مكانه القريب، لا داعي لفراش تستخدمونه غطاء.

الأمر صريح، لقد أتلفت أجسامكم العفنة، هذه البطاطين، وأصابتها بالجرب.

لقد مزقتم ملابسكم عمداً، لم تحافظوا عليها، كم أنتم مبذرين، أجمعهوها أسمال عفنة، لتُحرق في الحال، عودوا الى الطبيعة، مثلما جئتم من فروج أمهاتكم عراة.

أبقوا هكذا عراة.

تجولوا عراة.

قفوا في الطوابير وفي صفوف التعداد عراة.

ناموا على الأرض كذلك عراة.

أنتصب لامع، مزهواً بأوامره مثل ديك رومي يلاحق أنثاه. استمر في اصدارها، واثقاً من حسن التنفيذ، منبها الى ضرورة رش الأرضية بالماء، قبل الوقت المحدد للنوم، في الساعة التاسعة مساءً، على أن تغمر تماماً ليلتي الخميس والجمعة من كل أسبوع، ثم أعطى المجال الى جاسب ليكمل بالقول، هيا ليجلب كل واحد منكم أسماله الى المحرقة هنا، سنبدأ أحتفالاً خاصاً من دونها. أحتفالنا اليوم يتأسس على، التحرك بوضع العمى.

وبمجرد لفظ كلمة العمى، تحرك الحارس وجلب قطع أقمشة، عصب بها عيونهم، ومن بعدها شكل دائرة ترويض، يدخلها الواحد بعد الآخر رتلاً مفرداً، تهوى الهراوات على الداخل، مرة على الرؤوس وأخرى على الأكتاف، وثالثة على المؤخرات.

يتعالى الصراخ والانين وطلبات الرحمة من الخالق، وتختلط زفرات اليأس مع شتائم الجلادين وتهديداتهم، فتكّون الغريزة الانسانية للبقاء، دائرة لا يرى الواحد فيها زميله.

في هذه الدائرة المغلقة، يدخل الجميع في بعضهم بعضاً، يحاول الواحد ادخال رأسه في الآخر، فتتكدس الرؤوس وسط دائرة من الأجساد المكورة.

تَعثّرَ رمزي في حركته، فجاء رأسه، قريبا من رأس حامد، كانت عضلات وجهه الحنطي، متشنجة صلبة مثل خام الحديد، حاجباه منفرجتان، كونتا فسحة أكثر مما هي في الأصل، وكانت

شفتاه ترتجفان مثل صبي يختض داخله، عند سماعه قصة عذاب القبر أول مرة، صوته كان خشناً، بنبرات سمعها حامد وحده، عندما قال:

أنا خائف، أرتجف هلعاً، لا أكاد أسيطر على نفسي.

أتخيل أشياء سيعملوها بنا، في وضع التعري.

وماذا سيعملون، وهل بقيت نجاسة لم يعملوها، قال حامد.

أحس أنني طفل ألتمس من يحميني في هذه الساعة، أتمنى الموت قبل أن يفعلوا بنا، ما أتخيل سيفعلونه.

ظل متشنجاً، وكلامه يتدفق بصوت المرعوب، يكرر قوله، أنا خائف، فأجابه حامد، أنا مثلك خائف، أحس الارض من تحت قدميَّ مجبولة بالذعر، والهواء الذي استنشقه في هذه اللحظة، مبلل برائحة المكر، وأتلمس مزيداً من الشر آتٍ في الطريق. ومع هذا، آليت على نفسي، أن لا أنهزم أمامهم رعاع، مذعورون من رفاقهم، اطمئن "أبا أحمد"، علينا أن لا نخاف قدرنا المكتوب؟.

وفي المقابل، غط جاسب وياسين والحراس الآخرين، في نوبة ضحك سفيه، على منظر لا يثير في النفوس الا الأسى والاكتئاب.

ضحكٌ لم يخفف من وقع الضرب.

ها هم يضربون ويضحكون، ومن يحاول التخلص من هذا الضرب، يصطدم بصاحبه، يصيح ألماً، فيتلقى ضرباً أقسى بألم أشد، ومعه بصق في الوجه وشتم فاضح.

آخر مشهد لهذه النوبة من التعذيب بالتعري الأعمى لهذا اليوم، ظهر فيه الجلادون متعبين من الضحك والضرب، شبعوا شهوتهم من الضرب والضحك، وظهر استغلال المعاقبون بالضرب فسحة التعب

والشبع، للخلاص المسموح فراراً باتجاه الحمامات لاهثين، مثل خراف الأضاحي في طريق الذبح.

أما الجلادون فما زالوا يضحكون، حتى اتمام تناول وجبة طعام اضافية، سعياً للحصول على طاقة تكفي لاتمام نوبة تعذيب أخرى، في حال التعري قبل الذهاب الى النوم في الزنازين، التي جعل الغمر كل واحدة منها أشبه بحوض ماء راكد، يقترب من حدود الانجماد، وجعل نزلائها باقين في وضع الحركة، طوال الليل تفاديا للانجماد، وجعل الجلادين يمارسون، هكذا أنواع من التعذيب العاري المصحوب، بالشتم والضحك، طقساً من طقوسهم اليومية.

***

لقد استمر الحال هكذا طويل.

نسيَّ الجميع موضوع اللبس وأصوله.

غادروا عالم القيم الإنسانية، وضرورات التستر ومتعة الدفء، في الأجواء الباردة، وكأن الواحد يعيش في أدغال أفريقيا، ينتمي الى أحد قبائلها البدائية، تلك التي عاشت حياة عارية قبل آلاف السنين، أو الى عالم يقترب من العصر الحجري.

إن السجانون والحراس، والآتون من الجهاز مشرفين على مشروع الترويض، هم حقاً وحوش، لا يمتوا الى البشرية بصلة من قريب أو بعيد، لأنهم وبعد أن أكملوا البرنامج الخاص بالتعري، وعادوا لتنفيذ برامج أخرى، كانوا يرجعون اليه بين الحين والآخر تبعاً الى المزاج.

كانت آخر رجعة لهم في الشتاء الفائت، عندما حضر جاسب في أحد لياليه التي اقتربت الحرارة فيها من الصفر، يرافقه أبو حديدة

مخمورين، أيقظوا جميع النزلاء في هذا القاطع اللعين، كانت الساعة الثالثة صباحاً، طلبا خلع الملابس، والبقاء في وضع التعري داخل الممر عراة، لأمر هام كما كانوا يقولون.

الأمر الهام شهوة تعذيب، قفزت الى مخيلتهما بعد الانتشاء بقنينة ويسكي، جلبها لهم ياسين من أسواق بغداد المركزية.

كان الجو قارص البرودة.

أسنان الجميع تصطك ارتجافاً.

جاسب وزميله أبو حديدة، يضحكان بقهقهة منفرة.

يشيران الى سرمد وعزام، الذهاب باتجاه المطبخ وجلب الثلج الموجود هناك، ثم تكسيره قطعاً صغيرة ووضعها في حوض الماء البلاستيكي، وطلبا منهما أخذ الماء المثلج من الحوض في هذا الإناء، وسكبه على رؤوس المتآمرين القذرين، كما كان يقول بملء فم تفوح منه رائحة الويسكي بشكل واضح.

وهم يصدرون الأوامر الغريبة، دخلا في نوبة ضحك هستيري، لا يستطيعان التغلب عليها. في اثنائها أشار جاسب الى سرمد وعزام، في أن يسكبا الماء على رأسيهما أولاً، سجينان حقيران، لينتعشا، وينعشا هؤلاء الغبران.

كان كل كأس ماء بارد يسكب على الرأس، يعادل في ألمه عصاً من عصي جاسب الغليظة.

لقد استمرت دورة التعذيب بالماء البارد الى الفجر، وقبل نفاذ مفعول الكحول من عقلهما المخدر، أصدر جاسب أمراً الى حقي للاستلقاء على بطنه في الممر عارياً، وطلب من إسماعيل الذي يشاركه الزنزانة الرقم (9) أن ينام فوقه، كذلك عارياً في منظر منفر، وأصدر

أمراً الى باقي العراة، بالوقوف حولهم في دائرة يصفقون، كأنهم يشجعون لاعبين في حلبة صراع رومانية، مطلوب إماتة أحدهم، في منظر غريب لم يمت فيه طرف، ولم ينتصر فيه طرف، بقيّ فيه الطرفان يذرفان الدمع، وفوقهم جاسب مستمر في طلبه اجراء بعض الحركات بنشاط أقوى، كأنه مُخرج سينمائي يدفع اثنين من الممثلين في مشهد جنس حي، ليتفاعلان معه بواقعية، وكان الجمع لم يتوقف عن التصفيق ولم تبخل عيونهم بذرف الدموع بغزارة.

ختم جاسب ومعه أبو حديدة المشهد بإيقاع ضرب متتال، من قضيب الحديد، على وقعه كادت الأجساد تتجمد، مذبوحة من برودة الماء، واعتصار ألم الحديد النازل، فبات وقع الضربة الآتية على الجلد المنكمش، مثل وخز الابر في العمود الفقري.

لقد كشف هذا الفعل الشاذ هوسهم... هم جبلوا كبيرهم، وصغيرهم على الهوس بأنواع السلوك الشاذ.

انهم يفعلون هذا بالحث أحياناً، وبالإيحاء أحياناً أخرى، يتلقون أوامر الرذيلة من الأعلى فالأعلى.

سلسلة عبيد وعبيد العبيد، متصلة بالصنم الأكبر هبل.

أكبرهم هذا مهندس جهاز الرعب الأوحد، لم يتوان في أية لحظة من تصفية أي من الذين يشك بهم أعداءً بيديه.

لقد كان مكشوفاً هكذا في أبو غريب، وإن بذل جهداً اضافياً في سياقات حياته اليومية، ليثبت نفسه رجل رحيم، مالك حزمة مبادئ بكلتا يديه.

إنهم هكذا كبيرهم وصغيرهم، لا يوجد بينهم انسان يمتلك الحدود الدنيا من الإنسانية، تراهم يستعرضون قوة الحمقى، عند

حصر ضحاياهم في زوايا الضعف، يمارسون أبشع أنواع التعـــذيب، يلجؤون الى العدائية المقيتة، كمن يُدفع اليها مضروب بألف مـــداس على مؤخرة رأسه الفارغ.

***

الموت الأول

يصل رئيس الجهاز هذا القطاع خافياً وجهه بنظارة سوداء، ومن قبله وصل الرئيس شخصيا يمتع نفسه بمشاهد التعذيب ميدانياً، لكنه كان متخفياً بملابس عربية تقليدية، كأن رئيس الجهاز بوصوله اليوم، يريد التأكد من تنفيذ تعليماته حرفياً.

وقف الى جانبه لامع، منتشياً بالاشادة التي قدمها له شخصياً، لادارته حفلات التعذيب باتقان. كان وصوله ايذاناً بتطبيق مرحلة جديدة من التعذيب، المفضي الى التدجين أو تعديل السلوك، كما كان يحلو له تسميته في نقاشاته، مع الرئيس الأعلى للبلاد، عندما يتذكر الموضوع.

تعديلٌ مطلوب تطبيقه على الجميع حرفياً، ليس فقط لأنهم مشتركون في مؤامرة، صدق مع نفسه حدوثها من كثر المناقشة الخاصة بتفاصيلها، وتدريس وقائعها في دورات الاعداد الحزبي، بل ولمدهم جسور تدجين للغير من الحزبيين، وباقي العراقيين، ليسيروا في الطريق الذي يراه الرئيس من جانبه، مسلكاً وحيداً لبسط نفوذه، في عموم البلاد.

كان الوقت عصراً، وكانوا قد أتمو نوبة تعذيب بوضع التعري لما بعد الظهر. عادوا الى زنازينهم يلعقون جراحات، كوّنتها هراوات وأنابيب مطاط، سقطت على أجسادهم قاسية بإفراط، حتى تركت

أخاديد زرقاء، وبقع على الجلود يقترب لونها من الأسود. لاحظها من بعيد، فأثنى على طاقم التدجين، وطالب بنوبة جديدة بضوء تعليمات جديدة، تطبق فيها آليات الصمت، حيث المنع القاطع للصراخ والشكوى والأنين.

من الآن فصاعداً، طوال الليل والنهار، يخيم الصمت على سكان هذا القاطع.

يُمنع منعاً باتاً الهمس والشكوى والأنين، قالها جاسب بوجه مكفهر أثناء التجمع، لتنفيذ نوبة تعذيب صامتة، على شرف السيد رئيس الجهاز، واضاف بصوت جهوري، من يتكلم حرفاً واحداً سُيقطع لسانه.

كانت غايته إسماع رئيس الجهاز، سبيل تنفيذ أوامره حرفياً، وهو مازال واقفاً في مكانه بالزاوية الشمالية، لا يريد أحداً تمييزه، لكن سرمد الذي يعرفه جيداً، أستطاع تمييزه من مشيته، ونظاراته غالية الثمن. كما أن المفوض كريم أكد صحة التمييز، عند تبادلهم الحديث معاً، في المطبخ بعد يوم من التفقد المذكور.

لم يعد الصمت عذاباً مميزاً بالمقارنة مع، الاستلقاء على أرضية ندية في عز الشتاء، وألم التيار الكهربائي من قطبين، موصولين بالأذنين، وإدخال أسياخ الحديد المحلزنة في الأدبار، و لم يعد مشكلة بعد إستبدال الكلام المنطوق، بآخر غير مسموع، عن طريق الاشارة وتحريك الشفاه، حتى بات سرمد وطارق وحليم وعزام وحامد قادرين على التعبير عن آرائهم، ونقل الأخبار، وإتمام الحوار بشكل كاف، عبر الاشارة والشفاه. وكان سرمد أكثرهم حماساً، لاستبدال الكلام المسموع بلغة الاشارة، وتحريك الشفاه، بعدما تأكد من زرع

لاقطات صغيرة جداً، لأغراض الاستراق المنظم للسمع، في المصابيح المعلقة بسقوف الزنازين، قادرة على تسجيل الهمس، وأبلغهم بحقيقتها.

من أين لك هذه المعلومة البلوى؟. سأل عزام صاحبه سرمد بلغة الاشارة خلال المواجهة الصباحية، في الحمامات دون ملاحظة الحارس، لحركة الشفاه أثناء الحوار. فأجاب، أن فنيٌ من الجهاز قد حضر الى القاطع، غيّر جميع المصابيح، اثناء نوبة الصباح يوم أمس. لقد شاهدت المصابيح بعيني مركونة في غرفة الخفر، ومعها علبة معدنية محكمة، مكتوب عليها باللغة الانجليزية (special instrument)، تقارب تلك التي أستوردتها الاستخبارت العسكرية، واستخدمتها حتى مجيئي مديراً لشعبتها الثالثة، ومنعي استخدامها، الا في الحالات التي تؤشر نشاطاً تجسسياً. ثم اني سمعت هذا الفني خلال ادخالي الطعام غرفة الخفر، وهو يتكلم من الهاتف الموجود فيها مع شخص أعلى منه رتبةً، يؤكد انجازه المهمة، بوضع الدبوس في مكانه، واجراء تجربة عملية له، وللجهاز الموجود في الغرفة.

ختم كلامه بعبارة واضحة لاتقبل الشك "الان نسمع دبيب النمل".

***

وقف ياسين في باب الزنزانة الخامسة. حاول فتح مزلاجها بعدائيته المعهودة وخبثه المعروف، فضج في طريقه الى الفتح، ورغم هذا الضجيج العالي، لم يفق النيام من غفوتهم بعد صلاة تراويح قضوا منها أكثر من مائة ركعة.

أنت "الأصكع"، قالها وصوب بقدمه اليمنى ركلة الى جسم مرتضى، النائم على أرض الزنزانة.

أيقظه من كوامنه، وأفكاره وحزم الأسئلة الشائكة في خلايا عقل، كانت تراوده كوابيس أحلام مفزعة.

وقف مرتضى مذعوراً.

كاد يهوى من طوله، وقد غامت الدنيا بعينيه، حتى لم يعد يرى ياسين، الذي انتصب واقفاً بمواجهته. حاول الرد بصوت مسموع، توقف الكلام في حنجرته، عجز أن يخرجه من مكانه. فجاءه السؤال مدوياً من هذا الآدمي، الذي كانوا يسمونه الوحش من قساوته، ألا تسمع؟.

أستجمع قواه وبلع ريقه، ساعياً لتنشيط حباله الصوتية، التي كَسُلت بسبب عدم أستخدامها منذ ما يقارب الشهر، وأخيراً استطاع اخراج كلمتي نعم سيدي متعثرة.

تعال معي، أنت مطلوب، عساك لا ترجع ثانية الى هذا القبر العفن.

نعم سيدي، قالها هذه المرة بوضوح أكثر.

غرق طارق في بؤسه، وهو يشاهد مرتضى في هذه الحال، مثل أمير وقع أسيراً عند عدو لا يرحم.

وضع وجهه في كلتا يديه.

بكى بحرقة مدفوعة بخزين هائل من الحزن، حاول إخراجه من مكمنه عن طريق البكاء. زاد الليل، وعدم عودة صاحبه حتى هذا الوقت المتأخر، شدة الأسى، حتى أحس وكأن الزنزانة من دونه، أصبحت مسكناً تملأه الأشباح.

حاول النوم بأستدراج شخوص الزوجة والبنات، التي درب جهازه الحسي في هذه العزلة على تحسس وجودهن الوهمي. تكلم مع الزوجة الحبيبة، مثل كل يوم قبل أن يسلم نفسه الى سلطان النوم، لم يقدر هذه المرة، فعالم الحواس قد تعطل بغياب مرتضى الانسان، الذي مثل سفراً لتخفيف الأسى، الآتي من نوبات التدجين وغيرها.

لماذا القلق؟، قال في نفسه، وأعطاها جواباً من عنده:

لقد حصل على عفوٍ من الرئيس، فهو عضو قيادة قطرية سابق، ووزير معروف، أو أن ميشيل عفلق قد تدخل عند الرئيس، شفاعة لإتمام العفو... كل شيء وارد!.

رفع يديه إلى أعلى سقف الزنزانة، داعياً خالقه بهمس، أن يكون هذا هو الاحتمال. صلى ركعتين، دعماً لدعواه في أن يكون هو الإحتمال... تفسيرٌ قَبِلهُ العقل المهموم، ساعده على النوم، آخر ساعة من فجر كره طلوعه، لأنه يمثل يوم عذاب جديد.

كان هو وزهير في الزنزانة غارقين في بحور همومهم، وكان القلق من غياب مرتضى واضحاً على وجوههم، وبعد آخر الليلة الثالثة، فُتحت باب الزنزانة، والقي فيها هذا الغائب كشوال من الحنطة.

نظرا اليه جيداً، وجداه باق على حاله. اللحية كما هي تغطي الرقبة أعلى الصدر. بقايا شعر رأس تساقط معظمه، بات متوزعاً على الكتفين المتهدلتين من دون إنتظام.

في اللحظة الفريدة هذه، إستفاق طارق من قلقه، كأنه تخلص من شعور بالتوتر رافقه داخل هذه الزنزانة، لثلاثة أيام بلياليها. نسيَّ تحريمات النطق، هم بالسؤال حال رمي الغائب، عائداً الى بيته المسجل بالزنزانة الرقم (5).

أختلط مزاجه بتركيبة غريبة، من الحزن على عدم إطلاق سراحه، بعفو كما توقع، أو كما أقنع نفسه في الليلة الأولى، ومن الفرح بعودته سالماً، من موت بالإعدام وضعه إحتمالاً، تعمد إستبعاده من العقل، بغية تخفيف الضغط على النفس التي تصارع النوم. أشر له مرتضى بإصبع السبابة اليمنى، الذي مده منتصباً على شفتيه، إشارة السكوت، مستغلاً وجود الحارس خلفه مباشرة.

أين كنت بالله عليك؟.

لقد أقلقنا غيابك حتى لم نستطع النوم، قالها طارق بحركة بطيئة للشفاه، بعد غلق الحارس للمزلاج، والذهاب بإتجاه غرفته في آخر القاطع ليستريح.

جلس الى جانبه، وقد غلفه حزن كبير، صار الخوف سيد هواجسه، بعد هذا الغياب الذي لا يريد التصريح به، فأجاب والخوف قد أخذ منه مأخذاً، سنموت هنا.

لقد حُفرت قبورنا هنا.

لا تسألوني أكثر، لإني سوف لن أجيب!.

لم يجب على أية أسئلة متوسداً أرض الزنزانة الاسمنتية، غاطاً في النوم كمن لم ينم خلال الليالي الثلاث التي غابها، أو إنه يريد من هذا النوم المستعجل، الهروب من الموقف، وإبقاء ما عنده طي الكتمان، مثلها مثل أمور كثيرة في حياة، بات يكرر على مسامع شركائه عدم جدواها، وانها بلا معنى، لا فائدة من استمرارها... كأنه أصبح يمهد الى الموت، كمن يراه قريب جداً.

***

تنطفئ الكهرباء في هذا القاطع اللعين أول مرة، خلافاً لأوامر صريحة، بإبقاء مصابيحه مضاءة ليل نهار. سأل سرمد خفير هذا اليوم المفوض كريم، أثناء تقديم الفطور له جالساً حول الطاولة الوحيدة، في غرفة الخفر صباح اليوم الذي تلى الإنقطاع، عن أسبابه مستغرباً.

كان لدى سرمد جرأة التخاطب مع كريم، عندما يكون معه على انفراد، فكريم عنصر يمتلك في داخله قدراً من الرحمة، بالمقارنة مع جاسب وياسين والآخرين. كما إن سرمد قد إقترب منه كثيراً، حتى عرف غالبية سكان هذا القاطع، التمكن من كسبه الى الصف الذي هم فيه، أواخر السنة الأولى من السجن، وبشهادة عزام وطارق وحليم، بات لا يقسوا عليهم بالضرب، عندما يكون وحيداً في الخفارة، كذلك يحاول في اليوم الذي يكون معه أحد، يكبره في الرتبة والمنزلة، إسقاط الهراوات خفيفة، على مناطق محددة من الجسم، يقل فيها الضرر والاحساس بالألم. وعرفَ طارق بالذات أن سرمد وعد كريم بمنحه رتبة ملازم، عند نجاح خطتهم في الهروب الى سوريا، وقدم له عن طريق قريب له في الأعظمية، مبلغاً لشراء سيارة كوستر يعمل عليها في أوقات استراحته، ويهيئها وسيلة لتنفيذ خطة الهروب عندما تحين.

أجاب كريم تلقائيا، لقد قُصفت محطة كهرباء الدورة.

كان وقع الاجابة مثيراً للدهشة، ومثيراً لسؤال آخر عمن قصفها. مما دفع كريم من استعادة وعيه، الذي شعر وكأنه فقده بهذه الاجابة المحذورة، فقال مرتبكاً بعض الشيء،

صحيح انتم لا تعرفون أن حرباً قد حصلت مع إيران، هناك حرب تدور رحاها معهم منذ أشهر، أنتصر فيها العراق.

لقد أعدنا المحمرة، ومعظم أراضي الأهواز الى بلادنا العظيمة، وقد قامت طائرات إيرانية، بقصف محطة كهرباء الدورة عصر أمس. أُسقِطتْ إحداها، وَمُسك طيارها أسيراً، عرضه تلفزيون بغداد على الملأ بنفس الليلة.

وبعد أن أكمل شرحه لأسباب الانقطاع، رجا سرمد عدم التكلم عن الموضوع، قائلا:

كأني لم أخبرك بشيء، إذ لو عرفوا في الجهاز اني أفشيت سراً، فسوف لن يكتفون بعقابي مثل عقابكم، سيرَحلُوني الى الأخرة على طول.

طبعاً ننتصر، قالها سرمد ليداري موقف المفاجأة. وفي المساء عَبرت منه عن طريق الاشارة، الى رمزي وحليم اللذان يشاركانه السكن في الزنزانة، ومنهم أنتقلت الى الجميع دون معرفة المصدر، لأنه عبّرها بصيغة السماع من الحراس أثناء إعداد وجبة الغداء.

***

كان الأول من حزيران عام 1980، يوم قائض، رطوبته عالية، حظر جاسب قبل ظهره، وقد تغيرت نبرة صوته، اراد الظهور بمظهر المهتم بصحة سجنائه، فنادى بصوت خال من التهديد، على من يشكو حالة تستدعي مراجعة الطبيب، إخراج يده من بين القضبان على الفور، لقد وصل الطبيب تواً، لديه تعليمات بمعالجة من يحتاج العلاج، لا وقت له.

أخرج حليم كلتا يديه، فقد كان يشكو آلام قرحة معوية شديدة، واضطراب القولون العصبي، فأنزلها جاسب بضربة من

عصاه، متهماً اياه بالتمارض، وقال بصوت سمعه الجميع، إن الطبيب لا يريد النظر بهذا الوجه العابس.

إدخلها والا كسرتها بضربة أخرى، أشد قسوة.

فأدخلها وتمتم مع نفسه، لم جاء الطبيب؟.

وقف جاسب أمام الزنزانة الرقم (5)، سجل إسم مرتضى الذي كان قد أخرج يده من بين قضبان زنزانته، وأكتفى به مريضاً واحداً يعاينه الطبيب لهذا اليوم.

خيراً أبو محمد؟، أرى صحتك طبيعية. ما الداعي الى المراجعة؟. إنهم يأتون بالأطباء كنوع من إسقاط الفروض، ولربما لإبقائنا على قيد الحياة، نتلقى التعذيب الى أمد طويل، قال طارق مخاطباً مرتضى، الذي نوه بالقول الى أن الكسر الذي أحدثته في ضلعي، أخامص بنادقهم قبل أيام، أستطيع تلمس نتوءه، من تحت جلدي اليابس، أحس وكأنه قد خرج من مكانه، بات مؤلماً يصعب تحمل وخزاته، وجعاً في جوف صدري الواهن.

ألمه يفوق كل أوجاعي.

أوجاعي يا أخي خناجر، تقطع أوصالي من الداخل، عسى من جاء طبيباً أو مضمداً صحياً، يعطيني ما يهدئ بعضها أو حتى يميتني، فالموت هنا وفي هذا الزمان، الذي صنعناه بأنفسنا، أرحم من الحياة.

كرر طارق مسألة إسقاط الفروض، واطالة العمر لأغراض التمتع بالتعذيب، مبيناً في أن الألم سينتهي بالتآم الكسر، طبيعياً وخلال أيام.

حاول نهييه عن الذهاب الى طبيب، يرى أنه ليس طبيب في الأصل، ولا يمكنه معالجة كسور غائرة في الجسم، يريدون أن يحسبوه طبيباً.

كرر محاولة المنع، مدفوعاً بشيء ما لا يعلمه، أسماه فيما بعد الحادثة بالحدس.

لا، سأذهب الى هذا الطبيب، طبيباً كان أو حتى حلاق يمارس الطب مثل أيام زمان، احسبها مجرد محاولة لتقليل الأوجاع، أو سعيٌ لقضاء الوقت الذي بات ثقيلاً على نفسي، قالها مرتضى، وجلس على أرض الزنزانة واضعاً يديه، متشابكة على ركبتيه، ينتظر مناداته من أجل العرض على الطبيب.

ينتظر طارق وزهير عودة ثالثهما مرتضى من الطبيب، قبل أنتصاف النهار، فقد تعودوا ثلاثتهم تناول نصف الصمونة المقررة تعييناً للغداء، خلال هذا الشهر. عاد منتعشاً بعض الشيء، عاتباً تردد زهير، ونهيّ طارق عن مراجعة الطبيب.

خاطب طارق، واصفاً إياه بالمتردد والشكاك، وسأله لماذا لم تراجع، وقلبك الموجوع لم تتوقف نوبات ضعفه؟. سأل سؤاله هذا، وهو مستمر بالحديث عن مآثر الطب، في تخفيف آلام البشرية، وأضاف قائلاً بثقة عالية، أن الطبيب الذي راجعته شاب لطيف، تصوروا قال لي تفضل بالجلوس على الكرسي المقابل لطاولته.

أصر على الجلوس قبل الإيذان بشرح الأوجاع. ولما قلت له لم يبقَّ شيئاً في جسمي بلا وجع، ضحك وقال لي، تفضل لأفحصك بإمعان على الطاولة، التي وضع عليها ورقاً من الذي يستخدمه الأطباء المرموقين، على أرائك الفحص مرة واحدة.

لقد أتم فحصه بإمعان، تحسس الكسر بتروي، تأسف للطريقة التي حصل فيها... إنه يا سادة رحيم قولاً وفعلاً، أخطأتم بوصفه مضمداً. لقد ناولني بيده الحبة التي قال عنها ستؤدي فعل التهدئة،

حتى يلتئم الكسر طبيعياً، وناول بيده الأخرى قدح الماء دون تكبّر أو إستعلاء... يا له من طبيب، عراقي أصيل.

حفظه الله لأهله وللعراق.

لم يترك مريضه الذي حسبه انسان، الا بعد التأكد من بلع الحبة الوحيدة على وجه التمام.

***

كان الهدوء داخل القاطع شاملا، لا فعاليات في هذا المساء ولا نوبات تعذيب، أرجعه طارق الى وجود الطبيب، وفسره زهير، استراحة مؤقتة، واستمر خلاله مرتضى يتكلم عن مآثر الطبيب.

إتركنا من الطبيب الآن، علينا النوم، فالليل أقترب من منتصفه، وفرصة الهدوء هذه لا تعوض، قال طارق.

أصر على أداء الصلاة، يريد هذه الليلة البقاء خاشعاً الى الله حتى الفجر، لقد بات زاهداً بعد عودته من الغياب ثلاثة أيام بلياليها، يرى في الصلاة وسيلة تقرب الى الله، وسبيل مضمون لتطهير النفس من درن الأخطاء. على هذا زاد من عددها المطلوب شرعياً، بات يصلي بدل الوقت الواحد، ثلاث مرات، ويركع خلالها عشرات المرات، كأنه من عرف قرب نهايته المحتومة، وبات يسابق الزمن لمحو آثام أعتقد أرتكابها، كونه حزبياً.

أكبر الآثام التي يقول عن نفسه ارتكبها، مشاركته الرفاق صنع أحداث هذا الزمن البائس.

طيب صلِ يا شيخنا، سنخلد الى النوم، نأخذ جرعاً من الراحة، تؤهلنا لتحمل عذابات يوم جديد، قال طارق بصوت يقترب من

الهمس. فرد مرتضى بصوت هادئ، هنيئا لكم نـــومكم، وأحـــلام اتمناها خالية من كوابيس العصي، وأنابيب المطاط، وتوجه صـــوب القبلة يتلي الصلاة التي أراد.

لم يكمل السجدة الثانية.

سقط دون سيطرة على جسمه الضعيف.

صرخ من وجع في معدته الخاوية، صـــراخاً زلـــزل جـــدران السجن.

إنحسر صوته تدريجياً، حاول جاهداً فجاءت جملته الأخيرة.

آه من هذا الألم، مثاقب، تحفر في كل أجزائـــي، لقـــد فعلـــها الأنجاس.

زحف باتجاه الزاوية المقابلة لزاويته، مثل أفعى تتلوى على رمال الصحراء، وتكور فيها كأنه ينتظر شيئاً كان متوقعاً.

نادى زهير بصوت يرتجف، طالباً الطبيب الذي أعطاه دواءً بعد الظهر، فلم يجبه أحد.

جلس طارق عند رأسه، مستمر في القول، اللعنة على جاسب، لم يستجب للصراخ واستجداء استقدام الطبيب.

اللعنة على هذا الطبيب الذي خرج تواً من القاطع، مســـتعجلاً حال سماع الصراخ. فضحَ خروجه صوت الغلق المســـموع لمـــزلاج الباب الحديدي الخارجي الخاص بهذا القاطع، كـــان ينتظـــر هـــذه اللحظة، إنتظاراً مرهونا بفاعلية الحبة التي أعطاها سماً فاعلاً بالثاليوم، لقد تظاهر هذا الشيطان بالرحمة وسيلة قتل مروع، ألا فلعنة الله عليه.

ألم من تقطيع أوصال يتعاظم، لم يكن بد من التعامل معه سوى الصراخ، إذ لم يبق مجالاً لتحمله. أخذ نفساً عميقاً، تركه يمضـــي الى

نهاية المشوار، كمن يحاول إبقاء عقله متنبهاً على العكس من الجسم الذي بات عاجزاً عن إكمال فعل التقيؤ.

حاول مد أصابعه في الفم المفتوح، فشل من عجزه في ادخالها لاخراج الاحشاء سبيلاً لايقاف الالم الناتج عن تقطيعها، فشل أيضاً في السيطرة على القلب الذي علت ضرباته حداً، يبدو وكأنه يهم في الخروج من قفصه الحصين.

لحظة موت قاسية تخللتها صحوة عابرة، رفع بها رأسه الى صديقه الأقرب طارق. أطلق صيحة احتجاج تردد صداها في عموم الزنزانات المرصوفة على نحو يصم الآذان، ثم أسلم الروح، ورأسه قد أستقر في حضن طارق، الذي فقد قدرة السيطرة على الذات الخاوية، بعد أن دخلت مشاعر الخوف إلى نفسه دفقة واحدة، جعلته يهذي بصوت لا يكاد يسمعه زهير المصاب كذلك بالذهول، فيقول:

لماذا سبقتني في الموت، وتجاوزت على عهدنا الذهاب الى الخالق معاً؟.

أهكذا تكون نهاية حلمنا بالغد الأفضل، لهذه الامة وعلى يد الرفاق؟.

لا أريد البقاء من بعدك.

أعاهدك أني سأتبعك، ونشكوا الأمر الى الله معاً.

يتدخل جاسب.

يتأكد بنفسه من الموت، سأل عن فحوى الكلام الصادر، وعندما لم يجد إجابة، أمر الزميلان المتبقيان في الزنزانة بالتوجه الى النوم. فأجاباه معاً، بأنه قد مات. لم يعر كلامهما اي أهتمام، بل وعلى العكس من ابداء الاهتمام، سأل وما المشكلة في موت إنسان

تآمر على السيد الرئيس؟. وأكمل ما بعد السؤال جملته اللعينة، جميعكم أوغاد ستموتون، هو أول الميتين هنا، ولا نعلم بعده، من سيكون.

طلبا إخراج الجثة من الزنزانة، ووضعها في أي مكان خارجها، حتى حلول الصباح. عنفّهم بشدة على الضجة التي اثاروها لسبب تافه. تركهما دقيقة واحدة وعاد اليهما، وبيده بطانية من التي كانوا يستخدمونها قبل الدخول الى برنامج النوم بلا فراش. رماها لهم من بين القضبان، طالباً من طارق الذي ناداه بكنيته أبو صماخ أن يكون على يمين الجثة، ومن زهير الذي أسماه بالأهبل، حسب الكنية أيضاً على يسارها، يبقيانها وسطهم، يضعون البطانية غطاءاً لهم الثلاثة، حذرهم من التحرك ولو شعرة الى جهة اليمين أو الشمال.

البقاء هكذا حتى حلول الصباح.

وأخيراً أقسم بالله العظيم قائلاً، إذا ما سمعت صوتاً من أحدكم، أو وجدته قد تحرك من مكانه، سألحقه مع "الأصكع" الى جهنم على الفور.

التحف طارق البطانية والجثة، ترك الألم في داخله جانباً، صار يفكر في الرئيس وزبانيته، من المسؤولين عن بحور الأسى والآلام، التي تكونت في داخلهم، ومثلهم آلاف يعيشون في أبو غريب وسجون أخرى، وكم يحملون من ذنوب. عندها فقط شعر وكأنه قادر على الصمود جنب الجثة، متماسك من دون أن يفقد عقله.

وعندما حل الصباح وأعلنت اشارة التجمع لأغراض التعداد، قال لصاحبه سرمد، لقد حفر موت مرتضى في نفسي حزناً عميقاً، سوف لن يغادرني ما بقيّت حياً، فرد عليه سرمد، ألا أتعلم ان إماتة

مرتضى يوم أمس، جاءت في يوم التأميم الخاص بالنفط تماماً، ذلك الذي رأس مفاوضاته عام 1972، فهل هذه صدفة؟.

وألا تعلم أن الذين شاركوه المفاوضات، من أعضاء القيادة، قتلوا جميعاً، فمحمد فاضل أعدم مع ناظم كزار عام 1973، وعدنان الحمداني وغانم عبد الجليل، أعدما في هذه المؤامرة الوهمية، التي تسجلنا من بين ضحاياها.

وألا تعلم أيضاً، أن الناجي الوحيد من أولئك المفاوضين حتى اليوم، هو سعدون حمادي، الذي يقال أن له موقفاً من التأميم كان مختلفاً.

أما جاسب الذي كان واقفاً مع عصاه التي لا تفارقه فقال، أنت أبو صماخ وصاحبك الأهبل، إخرجا الجثة حالاً.

خرجا من زنزانتهما وقد تورمت أعينهما من البكاء. حملوا فقيدهم العزيز في البطانية التي تشاركوها غطاءاً لهم طوال الليل. غسلاه في قاطع الحمامات، وكفناه بكفن جلبه جاسب، وعادوا الى زنزانتهم، يجران مشاعر الخيبة المُرة لهذا الزمان. وبعد دخولهم اليها تمنى طارق أن يكون الثاني في وداع هذه الدنيا البائسة، أن يموت سريعاً، لأن الموت من وجهة نظره آت لا محالة، مثلما تنبأ مرتضى بعد عودته من الأختفاء لثلاثة أيام.

ولأن العد التنازلي لتراجع آمال الخروج من هذا الجب بسلام، قد بدأ برحيله مسجلاً، أنه الرقم الذي بدأ منه العد.

***

الموت اغتصابا

جلس سرمد مع رفاق الزنزانة، يحكي قصة الموت، التي حدثت بين يديه في الأمس، فهو أكثر من غيره دراية بقصص الموت، والطرق المتبعة للإماتة، في هذا القاطع الرهيب من سجن أبو غريب، بحكم وظيفته في المطبخ الخاص بالخفراء وتنظيف مهاجعهم، استهل القصة بالقول أن منعم هادي الذي مات قبل أسبوعين، أعطيَّ حبة جديدة تم تجريبها أول مرة، ومات علي جعفر ظهر أمس، الذي يعد اليوم الأخير من شهر تموز 1980 بنفس الطريقة، قال عنه يوماً مشؤوماً، مات في آخر ساعاته عبد النافع حميدي بطريقة أخرى، لاحظ هو بعض مشاهدها، وروى أخرى كريم عندما أعاده الى القاطع في آخر النهار... مشاهد تقشعر لها الأبدان.

وما الفرق بين هذه الطريقة وتلك؟، قال عزام، فأجابه الفرق يا سيدي بالألم الحاصل، وباللحظات التي تمر ثقيلة بانتظار الموت.

الحبوب الجديدة، يقول عنها كريم، تحدث صداعاً في الرأس، لا يتحمله الإنسان، وألم بالمفاصل كذلك لا يطاق، واضطراب في نبض القلب يتلف عضلاته، ثم تُوقف عمل الأعضاء الهامة في الجسم بالتدريج، فتزيد من شدة الألم، ومع هذا قال، أن ألم الموت بالنسبة الى عبد النافع، أشد ايلاماً من كل أشكال الموت، سأرويه لكم كما رأيته بنفسي، وكما روى لي كريم بعض من تفاصيله، عندما قال،

لقد جاءنا تلفون من لامع مع بداية الصباح، طلب إحضار عبد النافع الى الجهاز على الفور، لم نجد لباسا يغطي جسمه الذي أصبح هيكلاً عظمياً، يكسوه جلد ناشف، سوى بدلة سفاري، رثة لونها كلون التراب من كثر الاستعمال، رائحتها أقرب الى عفن البصل، تُشم من بعيد.

لقد التهمته البدلة في جوفها الواسع، جعلته أقرب الى مهرج في سيرك فاشل منه الى انسان.

دخل حليم على الخط مقاطعاً بقوله، أسفي على عبد النافع، الضابط المتفوق في الدورات العسكرية جميعها، الذي أشاد به وحيداً من باقي الضباط الموفدين، وزير الدفاع السوفياتي، يوم حضر توزيع شهادات التقدير لخريجي أكاديمية فرونزا، إذ قال عبارته المشهورة "تفتخر وتعتز كلية الاركان السوفيتية العليا، أن يكون أحد تلامذتها، الرائد الركن عبد النافع حميدي، لقد كان تلميذاً متميزاً حقاً، وليس هو الوحيد الذي أستفاد من الكلية، إنما كلية الاركان السوفيتية العليا هي الأخرى قد أستفادت، من الآراء التي كان يطرحها اثناء المناقشات".

توقف طارق عند العبارة المذكورة للوزير السوفيتي، التفت الى حليم الذي يجلس الى جانبه من دون وعي منه قائلا، أن عبد النافع لم يكن هو المسجون الوحيد في مجموعتنا، الذي حل أولاً في الدورات الخارجية، كان سرمد هو الآخر جاء أولاً في دورة الاركان المشتركة بكامبرلي، وأنت كذلك كنت من الأوائل، ألم يكن هذا غريباً؟.

استجاب حليم الى هذا السؤال، وكأنه أفاق من غفوة عابرة، فسأل عن القصد؟.

ان القصد، هو أنهم اختاروا النخبة في كل شيء، وضعوهم في السجن ليميتوهم عمداً أو ليوقعوهم في بحور الجنون.

***

توقفوا جميعاً عن الكلام عند مقطع النخبة، والاختيار والاماتة، كأنهم متفقون لاعطاء المجال الى سرمد ليكمل حديثه، فقال، لقد سار عبد النافع ويداه على السروال، يحاول تثبيته على الخصر، بعد كل مرة ينزل فيها دون استئذان، نظر الى السيارة المضللة من الباب الخارجية للقاطع، التي فتحت تواً، والى حراس جدد فاقشعر جلده المتيبس من الرعب، كأنها سيارة موتى خصصت لنقل المجهولين.

ابتلعته السيارة بثوان معدودات، ظن وهو يهم بالصعود اليها، أنه منقول الى ساحة إعدام لا محالة، ولما لفضته خارجاً من جوفها المعتم، وسط بناية مكتظة بالعسكر والمدنيين، ظن أن الموت قريباً لا محالة.

أدخله كريم الى الغرفة المطلوبة، بعد أن طلب منه، الابقاء على حياته واعياً حتى اكتمال المشهد المرسوم. كانت الغرفة مزججة تشرف على أخرى أوسع منها بقليل، دُفع عبد النافع الى وسطها مصحوباً بسيل من السباب، رأى من خلف الزجاج شابة تجلس على سرير حديدي، رأسها قد أختفى بين يديها، وتكور على بطنها، بوضعية طفل داخل رحم أم، تقاوم آلام الولادة قبل الأوان.

حملقَ بها، شاهد أحد يقترب منها، رفعت يديها في محاولة منها أن تستر شيئا من حالها، ومن جانبه أقترب هو من الزجاج، وضع كلتا عينيه بين كفيه الملتصقتين بالزجاج، لم يصدق ما يراه، كأنه

يعرفها، هي تلك السمراء الجميلة، بطولها الفارع وعينيها الواسعتين الساحرتين، تذكر كيف كان يُشبههما في أوقات اللقاء معها، بعيني المها الأصيلة.

حاول التأكد من شخصها، فرك عينيه ثم أعاد فركها من جديد، هي ذاتها سمية التي أحبها عشقاً شبهه الاصدقاء بعشق مجنون الى ليلى، الخطيبة التي لم يودعها قبل الحشر في واقعة المؤامرة من أشهر مضت.

سأل نفسه، ما الذي أتى بها الى هنا؟، وهل يعقل أنها، متهمة بالمشاركة في المؤامرة أيضا؟. فأجاب نفسه مرعوباً، لا يعقل هذا، فالمتهمون ضباط حزبيون برتب عالية، وسياسيون بدرجات وظيفية وحزبية متقدمة، مطلوب تدجينهم، أما هي فقد تركها مجرد مؤيدة في الحزب، مبتدئة لا تستهويها السياسة.

عاد الى الوراء خطوة، سعياً منه لاستعادة قدرته على التركيز.

اقترب من الزجاج ثانية، التصق به، ضربه بشدة، كمن يريد أثارة الانتباه. فشل في تحقيق الغاية لأن الزجاج من النوع السميك المضاد للكسر. بقيت هي على جلستها المكورة، في محاولة منها المحافظة على عذريتها المهددة، أو إنها هكذا تعيش صدمة الحبس، وذهول التعامل الفض منذ خطفها، وهي في الطريق الى جامعة بغداد، التي تعمل فيها معيدة، بعد تخرجها الاولى في قسم الفيزياء.

يدخله الفشل في دوامة الأسى واللوم والتسبيب.

وهو غاط في هذه الدوامة، تنبه الى شخصين دخلا يكلمانها بحركات توحي، وكأن كلامهما تهديد.

لا يسمع شيئا من هذا التهديد.

لا يفهم من الايماءات الحاصلة الا التهديد.

وأخيراً تحولت الايماءات الى حركات، أبدت فيها مقاومة لشيء ما.

إنها تقاوم وهم مستمرون في محاولة مدها على السرير، زادت المقاومة شراسة، فزاد تعاونهما على تمزيق قميصها الحريري الابيض، ولما تمزق تماماً، تحرك جسمها الطري بغير انتظام معبراً عن خليط بين التوسل والاحتجاج. سحب أحدهما حمالة الصدر، المطرزة باللون الاسود بشراسة ذئب جائع، فجاءت بيديه المكسيتان بالشعر الكث، تاركة خطوط حمراء على الكتفين الممتلئتين، جعلاها تهوى من على السرير، وعندما نهضت ساعية الى الهروب، وجدت نفسها ملتصقة بالحائط المدهون باللون البنفسجي، تغطي صدرها العاري بيديها الناعمتين.

تركت دموعها تنزل متوسلة بالتوقف عند هذا الحد، وتركوا هم لأنفسهم التمتع بدموعها ومقاومتها التي ضعفت بالتدريج، وعند التأكد من حصول حالة الضعف الواهن، هجما معاً على النصف الثاني من الجسم المغطى "بتنورة" رصاصية.

حاولت حماية نفسها بالدخول تحت السرير، لم يغيثها السرير، و لم ينفعها الصراخ في غرفة معزول عنها الصوت.

أخرجاها عارية الا من لباس داخلي.

ترتجف من شدة الحياء.

تصرخ من خدش الحياء.

وقعت بطولها على البلاط، ضربته بكلتا يديها الناعمتين، كأنها تتوسل الارض التي تحته أملاً في ابتلاعها.

لكن هذه البقعة من الارض ملوثة بآثام الانسان، لا تبتلع من يستغيث بها، و لم تبتلع من مر عليها من قبل.

حملاها بلا لباس داخلي، باتت عارية تماماً تتخبط في محاولاتها لتغطية الجسم، ومن شدة تخبطها، أخذت تضع يديها مرة على صدرها، ومرة هنا وأخرى هناك، ولما أحست عدم جدوى الستر، شدت شعرها، لطمت وجهها الذي تورم من تدفق الدم اليه، ومن شدة البكاء.

سِترها الوحيد عقل توقف عن التفكير، بإغماءة أفقدتها الوعي. وخطوتهم فيما بعده، ممارسة الجنس مع جثة مسجاة على الأرض، هامدة بلا حراك.

***

في الغرفة الثانية بات عبد النافع يتحرك، مثل شخص مجنون، يهيم في شوارع تعوي فيها الكلاب، يتألم مثلها من عض الكلاب، يقلد حركاتها، يضرب رأسه بالحائط مثلها، فترك أثراً من الدم، حتى أصبح الحائط مكسواً، ببقع منه حمراء مسودة.

حملاها الى السرير جسداً بلا روح، كررا ممارسة الرذيلة، واحداً بعد الآخر مع ذلك الجسد المنزوع الروح.

صرخ عبد النافع في مكانه، بكي بألم، ضحك باستهتار، تحول احتجاجه الى كلام غير مترابط، كأنه هو الآخر فقد العقل الذي أشاد به الروس عبقرياً من سنوات.

أعيد الى زنزانته في أبو غريب، جسم يتحرك بلا إحساس، كأنه شبح انسان، تيبست بقايا دماء على شعر كساه الشيب مبكراً، بات يردد كلمات، ومصطلحات عسكرية لا علاقة لها بالحال.

لقد أعادوه مساءً، قال سرمد وعيناه تذرفان الدمع وأكمل، كنت ساعتها أنظف غرفة الخفر، فكلفني كريم ايصاله الى الزنزانة، سألته عن غيابه، فذكر بعض من اللقطات التي شاهدها حية، وقليل مما جرى بشكل غير مترابط.

قال إنها غابت ميتة، لم يذكرها بالاسم، ثم وبعد قليل مما ذكره قال أنه قد التقى أباه، فقلت له لكن أباك توفي قبل سنة من دخولك السجن، وأنا حضرت فاتحته، فاتهمني بالكذب وعدم الدراية بما يجري في هذه الدنيا، وأتهمني أيضاً، بأني الشخص الذي أوشى به، وتسبب في مجيئه الى هذا المكان، دخل في نوبة بكاء شديد، أعقبها بأخرى ضحك باهت.

أحسست لحظتها بجرح في داخلي ملتهب.

حرارة امتدت من عينيَّ نزولاً الى أخمص القدمين، صَعَدت ثانية الى القلب المتورم وهو يتفحص هذا الصديق الذي جن.

ألقيت عليه النظرة الأخيرة متيقناً، من موته بعد ساعات، تأسفت على نهاية صداقة دامت منذ الكلية العسكرية، التي كنا فيها طالبان يتنافسان على المركز الأول، وكيف ظفر هذا الصديق المتفوق بالمركز الأول، وباركت له ظفره باعتزاز.

في ذلك الوقت من الليل عدت الى كريم، متوسلاً بقائي معه في الزنزانة، لأنه يحتضر، فعدت اليه، وبقيت عنده، لم يعد عارفاً بيّ، ولا حتى بنفسه، لقد مات عقله أولاً من هول الصدمة التي تسببها أغتصاب خطيبته الميتة، ومن بعدها، وقبل خمسة دقائق من أنتصاف الليل أسلم الروح، فأكتمل العدد المطلوب إماتتهم لهذا الشهر ثلاثة مطلوبين.

***

ولادة من رحم ميت

لم تكن غرفة الاعدام بعيدة عن هذا القاطع الخاص.

تنتصب مشنقتها في الجهة المقابلة لموقعه الغربـــي.

يشاهد من يمر اليها بوضوح، ومن يقف حولها ومن توضـــع في رقبته الحبال المفتولة.

يتحرك الجزارون لهذا اليوم دون تمييز، بين أجسادهم الممتلئـــة، وبين أردية الزيتوني التي تخفي التهافت على تسجيل الرقم الأعلى في الحصد القائم للأرواح.

التهافت هنا مشروع، التسابق مســـموح، وكلاهمـــا ســـلوك مطلوب، لتأكيد الذات الخاوية، والأرقام العليا تُحصـــد في المقابـــل مكرمة من الرئيس بشكل مشروع، سيارة جديدة علـــى الأغلـــب، وربما قطعة أرض في مكان مرموق.

تُسمع الأصوات الباكية نحيباً، دون تمييز بين مصادرها الآتية من قريب.

شخرات الموت التي يطلقها المعذبون، في لحظات سحب العصـــا، وشد الحبل المدلى على الرقاب بين الحين والحين، هي القابلة للتمييز مـــن قبلهم، نزلاء أعتادوا التوجه بانتباههم صوب المكان المخصص، لقـــبض الارواح التائهة، يوم الاحد من كل أسبوع، بعدّهِ يـــوم القصـــاص أو التنفيذ، مصطلح شائع بين سكنة أبو غريب، سجانون ومسجونون.

ينتظر غالبيتهم هذا اليوم ليجلدون بأحداثه ذوات أتعبها السب والشتم، وكلام السجانين القذر وعصيّي التعذيب.

يشغلون عقول فرغت خلاياها، من خزين الذاكرة المُنَـوعْ، في قطاع خاص معزول تماماً عن العراقيين، وباقي شعوب حسبت على العالم الكبير، كأنهم مجبولون على المشاهدة والسماع، أو قد يكونون من بين الذين أدمنوا على إحتياجها، للتعامل مع وقت الفراغ.

شرع سرمد من زنزانته السادسة، بِعَدْ الضحايا المارين بلباسهم البرتقالي، الممهور بأحكام الاعدام أستغرب سيرهم اثنان معاً. صاغ من عنده تهم لكل واحد منهم، تخيل محاكمهم وكأنها صورية، لا تختلف كثيراً عن محاكمته، وباقي الزملاء قبل سنتين في بناية الحاكمية. وضع من خياله رئيساً لكل واحدة منها، كذلك حزبي كبير، ومع هذا لم يتخيل له درجة، مثل التي أمتلكها رئيس محكمته السيد نعيم، عضواً في القيادة القومية للحزب، ولم يتخيل الأعضاء الذين وضعوا تواقيعهم، على الاحكام المكتوبة مسبقاً من الجهات العليا مثل أعضاء محكمته، كبار مسؤولي القيادة القطرية، يرفع فوق رؤوسهم رئيس الجهاز سوط الرقابة، مثل حامل سيف يقاتل أعزل.

تعيده الذاكرة الى الدقائق الخمس، التي أستغرقتها محاكمته، والسؤالين المشهورين، هل لديك شيئا تضيفه؟. هل أنت بريء أم مذنب؟.

توقف عن التفكير، تنبه الى مرور جاسب من أمام الزنزانة، بعصاه المرصعة بمسامير اللسع الآدمي. خشى اثارة انتباهه عند الاستمرار في الغوص بالتفكير، فجلس القرفصاء في الزاوية القريبة،

كاتماً الانفاس، لا يريد تقديمه، وجبة تعذيب صباحي انفرادية، أعتاد جاسب اشتهائها قبل الفطور لأتفه الأسباب.

جاسب الوحش الذي أخذته غفوة الفجر، بسبب أنتظار مفعول حبة ثاليوم أعطاها الى السجين منعم هادي، لاماتته في ساعة متأخرة من الليل، مر مستعجلاً يحث الخطى، بغية اللحاق بحفلة اعدام لم يتعود التأخر عنها من قبل، لأنه أحبها مهنة تُشبع في نفسه غريزة الأنتقام من البشر... حبٌ أو بالمعنى الأدق، رغبةٌ طالما دفعته لأن، يتبرع في البقاء خفيراً ليلة السبت على الاحد، ليحظى بشرف السحب الفوري للعصا، واسقاط الضحية في هوة الموت، متأملاً سماع الرئيس بطولاته في جر العصا ببطء، إمعاناً بتعذيب الضحية، سعياً وراء الحصول على مكرمة منه، قطعة أرض في مدينته السماوة. وكذلك متمتعاً بالجسد الذي يختض متدلياً، بعد انقطاع التروية الدموية عن الدماغ.

تكلم مع أصحابه في غرفة الخفارة ذات مساء، عن حالة أعدم فيها طفلاً، لم يتجاوز الرابعة عشر من العمر فقال، كنت أنتظر تلك اللحظة، التي يرتجف فيها جسمه الغض أختضاضاً، تعمدت وضع انشوطة الحبل جانباً، وليس على مؤخرة الرقبة لأبطئ موته، وأزيد فترة الاختضاض، لم أولي تنبيه الطبيب لأن أضعها في مكانها المطلوب، خلف الرقبة، كم هو ممتع ذاك الشخير الذي يحصل في اللحظة العابرة، بين الشنق وبين الوفاة، وكم هي جميلة حركة الجسم عند الاختضاض.

***

تمر الزوبعة أو يمر جاسب، من دون الاكتراث لوضع النزلاء في القاطع الخاص، مما شجع سرمد العودة الى التفكير، وصياغة الخيالات التي تخفف وحشة الزنزانة، والعزلة وآثار تعذيب، ازدادت شدتها بعد أنقضاء ما يقارب السنتين، وعندما وجد متسعاً من الوقت لمزيد من الغوص، في عالم الافتراض، أندفع في خيالاته بعيداً عن الزنزانة، وتهم الاعدام وعذابات الروح، حتى وصل ذوي الضحايا الساكنين بعيداً، عن أسواره المنيعة.

صنع له وصلاً في الخيال يمده اليهم، كلمهم كذلك في الخيال، أحتج أمامهم على فبركة التهم الموجهة، تذكّر زوجات لهم، صورهن حبيبات مخلصات، يخففن من آلام الحزن على فقدان الأحبة، باعتقاد نطق أسمائهن على السنتهم، قبل انقطاع النفس خنقاً بالحبل الغليظ، وصور أسى أمهات شباب، عندما رسم لبعضهن صوراً عقلية، قوامها اللطم على الخدود المتهدلة، واشادات بأولادهن أبطال راحوا شهداء.

تَعلَّمَ التلاعب في الخيال، وتعلّمَ صنع الوصلات، التي يمدها الى من يريد، فالعائلة أسبقية أولى لما يريد، أدمن التخاطب مع أفرادها من هذا السبيل الافتراضي، وأدمن العيش خيالياً معها في الساعات التي يأمره فيها جاسب، الجلوس بوضع القرفصاء أو المراوحة في الزاوية البعيدة للزنزانة، وينساه جالساً هكذا حتى الصباح. مناجاةٌ في الخيال تستغرق جل الوقت، يتصور خلالها أشكال الأولاد، يكبرون في ذاك البيت بمدينة زيونة، ينصح أحياناً، يوجه أحياناً، يُقَبِلُ وجنات يحسبها متوردة أحيان أخرى، يعود بعدها الى الانزواء، يعصره الالم العابر في متاهات العقل، على ضحايا باتت تساق قطعاناً الى المشنقة

المنصوبة خصيصاً، الى السياسيين الموسومين بخيانة الحزب والثـــورة، حسبما روى عن بعض تفاصيلها، المفوض كريم في أوقات هذياناته، بعد الاطمئنان له إثر زلة اللسان عن موضوع الحرب مـــع إيـــران، وقصف محطة الكهرباء. انهم الآن يتبادلان الحديث، وبعض الاســـرار عند تواجدهما معاً في المطبخ لإعداد وجبات الغـــذاء، أو في الغرفـــة الخاصة بالخفراء، لقد أصبح كريم وبفضل العلاقة التي كونها ســـرمد معه بالذات، الحبل السري الذي يصله بالعالم، خارج أبو غريب.

***

يَلحقُ جاسب بالركب المتجه لإحياء حفلة اعدام.

امرأة ترتدي بدلة برتقالية، تخذل السيقان النحيلـــة جســـدها المتورم من الوسط.

يجرها إثنان بلباس زيتوني، كأنها أصيبت بشلل الرعاش، خلفها بنصف متر، رجل يرتدي ذات البدلة، يسير باعتدال رغم السلســـلة التي تُكبل ساقاه، ومن بعدهم جاسب مستمر في محاولته، وضع أزرار بدلته الزيتوني في أماكنها، اكمالا لقيافته قبل جر العصـــا، وازهـــاق الروح التي لا يعرف في الأصل، صحة التهم الموجهة لها.

جَرَ العصا، سلب روح الرجل أولاً، فارتفع صوت المرأة نواحاً، وقبل جر العصا ثانية، علت من حنجرتها الشابة، صـــرخة تناقلـــت الجدران، صداها المتسرب خارجاً. أختلطت بعدها الاصوات، كـــأن شيئا غير مألوف قد حدث.

أنتهت حفلة هذا اليوم، تفرق الخفراء المكلفون باتمام المهمـــة، كل باتجاه العمل المخصص له في قائمة التوزيع. عـــاد جاســـب الى

صومعته، ساعياً الفوز بساعة نوم إضافية، بعد متعة جر العصا وأختضاض جسدين، أزهق أرواحهما في آن معاً.

يبدأ كريم خفارته مشرفاً على خطوات التهذيب، أو التعذيب منذ الصباح، حسب البرنامج الموضوع من خبراء الجهاز، دخل المطبخ لتحديد وجبة الغداء، تقدم منه سرمد مستفسراً عن الصرخة المدوية قبل قليل، وعن شخصين سيقا معاً الى غرفة الموت، فاجابه دون توجس، انهما زوجان شيوعيان، قاتلا الحكومة في صفوف الانصار بشمال العراق، القيَّ القبض عليهما في السيطرة العسكرية بمدينة الخالص، يقال أنهما مكلفان بإيصال، تعليمات شفوية الى قواعد الحزب الشيوعي في بغداد، ويقال أنهما ادعيا تركهما العمل الحزبي، والتوجه الى بغداد للعمل، والعيش مثل غيرهم من أهل العراق. صدر بحقهما الحكم بالاعدام، شنقاً حتى الموت، من قبل محكمة الثورة، نفذ قبل قليل.

أستمر كريم هكذا في الكلام مبيناً أن الصخب الذي حصل، واختلاط الاصوات، يتعلق بكون المتهمة حامل في شهرها الأخير.

لقد توسلت تأجيل التنفيذ حتى حلول الولادة، وعندما رفض رئيس الجهاز التأجيل، وعلق على الطلب "الدولة ليست بحاجة الى خائن جديد". قدمت طلباً آخر باجراء عملية قيصرية لاخراج الطفل البريء قبل التنفيذ، لم تحصل الموافقة أيضا.

كان الموقف برمته مثيراً، باتت خلاله تتوالى التفاصيل من فم، وكأن صاحبه يتعاطف مع الضحية، يخشى إثارة الانتباه، يخاف جماعته القريبين، وان كان محسوباً عليهم، طاقم تم أختياره بامعان لاغراض التعذيب.

توقف قليلاً، التفت قليلاً حول المكان، وكأنه يخشى قدوم أحد بالصدفة.

حاول سرمد سحبه لاتمام ما بدأه من كلام، باستخدام التعجب وسيلة استثارة، تدفع للاستمرار في الكلام، فأكمل حديثه قائلاً، أن ميادة الزوجة المقاتلة، قاومت الصعود الى منصة الاعدام، صرخت لتأخيره قليلاً، عساها تسمع، صرخة الطفل آخر ما تتمنا، وعندما تيقنت من استحالة التأخير، ولو دقائق معدودات، حاولت فتح ساقيها، بكت بحرقة، استنجدت بالله، ندهت بأسماء الأنبياء والأولياء، كأنها تريد الدخول في دورة المخاض، مازالت تتأمل تكحيل عينيها بوليد ينزل حياً قبل الممات.

لم يمهلها جاسب المهووس بردود فعل الجسم اختضاضاً، بعد التفاف الحبل وقطع الانفاس، لم يلبِ رغبتها الاخيرة قبل التنفيذ، سحب العصا سريعاً هذه المرة، عَلَتْ وجهه العبوس أبتسامة تَشَفي باهتة، كمن حصل على حاجة أنتظرها طويلا.

تدلى جسدها العشريني يختض بشدة، وفي داخله صرخة احتجاج مكتومة، تحركت قدميها بحركات متوالية، وكأنها إستجمعت طاقة شباب، كانت مخزونة قوتها لقطع شريط القماش، الذي يربطهما قدمين قويين.

سقطت على الأرض ميتة، تباعدت ساقاها عصبياً، وكأنها مازالت تتحكم بفتحهما كما هي الحاجة أثناء الولادة التقليدية، عندها انزلق الطفل من بين الفخذين، مطلقاً صرخة ميلاد الى عالم مظلم.

بهت الحضور عجباً من اصرار الضحية على اتمام الولادة ميتةً، أختلفوا على تقرير مصير الطفل الوليد، فتقدم جاسب خطوة باتجاه

الطفل راقداً على الارض، يرى ضرورة تركه على ذات الحال يموت، جنب والدته الميتة، أيده الإمام المنتدب لتلاوة الشهادة قبل الموت، في الوقت الذي رأى الطبيب عكس هذا قائلاً، أن العقاب موجه الى الام الخائنة، ولا علاقة للمولود بما ارتكبته من إثم لعين.

نوه بذكاء الى أن الاماتة القصدية، مسؤولية قد تغضب السيد الرئيس، تنويهٌ أراد منه التأثير على جاسب، للحيلولة دون اماتة المولود عمداً. نقاشٌ لم يدم طويلاً، حيث الاتفاق على إبقاء الطفل عند طرف ثالث، لحين الاستفسار عن مصيره من رئيس الجهاز.

السيدة رضية عاملة التنظيف هي الطرف الثالث. لقد تجاوزت الاربعين من العمر، ولم تنجب طفلاً من زوجها العقيم، سمعت تفاصيل النقاش أثناء غسل الأرضية التي غطتها دماء الولادة، الآتية من جثة أعطت مولوداً دون الشعور بآلام المخاض، عرضت أخذ الطفل، تسجيله باسم زوج لها ما فتأ يصلي لمولود ولو بالتبني. حلٌ قبله جاسب، أطلق عليه إسما من عنده "زغيّر" على أن تتركه يموت اذا ما جاء الرفض من قبل السيد رئيس الجهاز.

اللفافة من بقايا ملابس تركتها ميادة في الامانات. غسلت جسمه في الحمام المخصص للمساجين، أزالت الطبقة الدهنية الجينية، لفتهُ بتلك البقايا، واستأذنت الذهاب الى البيت في منطقة الحصوة قريباً من أبو غريب، كأن الحياة عادت اليها، تفكر بالروح التي جاءت من أخرى زهقت تواً.

حزنت مع نفسها على الأم التي لم تر مولودها في لحظة الوفاة.

تمسكت به إبناً كأنها ولدته فعلاً[1]، سجلته في دائرة النفوس بإسم "وليد" لعدم اقتناعها بالتسمية التي أرادها جاسب، يوم ولادته من رحم أم ميتة.

***

لم يهدأ جاسب، أو لم يرتوي من منظر الأجساد، التي تدلت من فوق منصة الاعدام، بعد سحبه العصا في الصباح، فعاد الى غرفة الخفر مساءً، وبالتحديد قبل حلول موعد النوم في الساعة التاسعة، أصطحب معه صائب وغالون من الكحول، مشى بين الزنازين وهو يقول، لابد وأن يموت إثنان في هذا الشهر، لقد قاربت هذه السنة 1981، على الانتهاء، أنتصف شهرها الأخير هذا اليوم، ولم يمت واحد، تهيئوا أيها الحمقى، لتودعوا واحد.

وقف أمام الزنزانة التي فيها حامد، بقضبانها من الحديد التي تبقيها عارية أمام الحراس، وتبقي سكنتها تحت طائلة النظر ليل نهار، ثم قال موجهاً كلامه الى حامد، أنت المكطن.

نعم سيدي.

تقدم منه حامد والقلق قد أنهك ركبتاه، جعلهما واهنتين لا تقويان على حمل جسده الذي قل وزنه كثيراً منذ أن وضع سجيناً

(1) بعد عام 2003 حضر عم الولد الذي يقيم في ألمانيا الى بيت السيدة رضية، مطالبا بإعادة ابن أخيه الذي يعمل حمالاً يدفع عربة في المنطقة، يعيش منها ويعين أهله الذين أحتظنوه على العيش، أراد اصطحابه ليعيش معه والعائلة في ألمانيا، تركت السيدة رضية الخيار للولد، الذي أكد بحضور عمه أنها والدته الحقيقية وزوجها والده، هم أهله، لا يمكنه تركهم في حالهم الفقير، والذهاب بعيداً عنهم ولو الى النعيم.

في الجب، شعر بثقلٍ حلَّ عليه لم يكن معهوداً من قبل، وكأن عظامه قد مُلئت بالحديد، كان حذراً متوجساً خيفة من ردود الفعل غير المعروفة لهذا الوحش، متجهماً لم يحرك عضلة واحدة في وجهه العبوس، ولما جاور القضبان، طلب منه الجلوس على الأرض، واخراج يديه وكذلك قدميه من بين القضبان. ولما أخرجها، التفت الى الحارس الواقف الى جانبه، أراد منه ربط كل واحدة، الى قضيب بسلك كهربائي رفيع جلبه لهذا الغرض، وبات يستهزأ قائلاً.

بعد الآن سوف لن يبق لديك قوة للمشاكسة، ومن يدري قد لا يبق فيك نفساً في الأصل، حاولتُ أن أعرف لماذا أنت هكذا ترى نفسك بطلاً؟، لم أصل الى نتيجة، الحمد لله سوف لن أجهد نفسي بعد الآن، للتفتيش عن السبب.

أكمل حديثه المسموم، ومعه عبارات الاستهزاء بالبطولة الفارغة على حد تعبيره، ثم طلب من الحارس، سكب مقدار من الكحول على أطرافه.

بدء باليد اليمنى، ولعَّ فيها ناراً من قداحة، طالما أفتخر بأخذها من تاجر أعدمه بتهمة التلاعب بالأسعار.

أنطفأ الحريق تلقائياً بعد نفاذ فاعلية الكحول.

حاول حامد كتم صوته، وكأنه يريد تحدي جاسب، وإثبات البطولة غصباً عنه.

سكب الحارس كمية أخرى من الكحول على اليد اليسرى، وهكذا كرر العملية، وحامد ما سكاً أنفاسه كمن يقبض على جمر بكلتا يديه، لا يريد الصراخ، لكن أنينه فُسر من أصحابه صراخاً صامتاً.

قالوا فيما بعد كان قوياً بما يكفي لكبت الصراخ.

انتقل الحال الى الساقين، وأعاد الكرة على اليدين، حتى ملئت روائح الشواء لهذا اللحم الآدمي أجواء الزنازين، عندها بات الأنين مسموعاً من جميعها.

مع ذلك الأنين الصارخ، كان جاسب يضحك منتشياً بقسوةٍ، اقترب وقعها من الجحيم، بل هي الجحيم عينه، كما كان الوصف الذي أطلقه عليها المسجونين آنذاك.

كان حليم الذي معه في الزنزانة، يتألم مع ألمه الشديد، قال في اليوم الثاني واصفاً ألمه ليس هناك من ألم أشد، من النظر الى صديق يهاجمه الموت، حرقاً من دون التمكن من مساعدته، أو تخفيف الألم الذي يعتصره، وأضاف، لقد وضعت وجهي بين يديَّ هرباً من منظر الحرق، الى أن تدخل جاسب طالباً النظر بملء العين، مهدداً بالمصير ذاته، لمن لا ينظر بملأ العين، لعذاب ممنهج، مفروض من الجهات العليا.

لقد انسلخ الجلد من مكانه، وتكونت زائدة منه تتدلى من كلا القدمين، قصها سرمد في اليوم الثاني بموس حلاقة حصل عليه من كريم... سرمد ذاك الضابط المظلي الكفؤ كان مضمداً لجروح السجناء الخفيفة، وطبيب كسور في بعض الحالات الخفيفة أيضاً، بالإضافة الى كونه طباخاً صار مشهوراً، أختير لأنه كان صائماً، صياماً يعتقدونه، الضامن القوي لعدم التجاوز على حصصهم الغذائية، ولو بلقمة عن طريق الصدفة. لم يستطع سرمد مداواة حامد، لشدة الحروق في أطرافه، كما لم يسمح له بالتدخل لمداواته، فيوم موته قد تحدد من الأعلى، و لم يعد أحد قادراً على التدخل،

فظل لسبعة أيام زاحفاً الى المرحاض، وسط مياه تغطيها الفضلات، مثل طفل لم يكمل عامه الأول، وقد كشفت الحروق نهايات عظام أطرافه.

أعفيّ من نوبات التعذيب، تُرك في زنزانته يتأوه من جروحه، بدا عليه الاكتئاب، والهذيان فور مغادرة جاسب لحفل الحرق بالكحول، لم يعد يكلم أحداً، وإذا ما نطق، ينطق أسماءً لا علاقة لها بالمكان الذي هو فيه.

التهبت ساقاه، مُنع الزملاء من إطعامه، ومنع سرمد من التقرب اليه، حاول مراراً وبدافع الحاجة الغريزية الى الطعام، أن يلتهم ما يقدم له وهو مستلقٍ على بطنه، يلعق الماء بطريقة لم يتعودها الانسان.

هكذا تُرك في زنزانته بجلد محروق ينهشه الالتهاب، ويعشعش فوقه الذباب، وبعقل فُقد من هول العذاب. وفي منتصف الشهر بالتحديد وجد ميتاً، ويده المحروقة قريبة من دورق الماء.

مات عطشاناً.

مات من قبله رياض القدو، ومن بعده بثمانية أيام مات طاهر الربيعي بحبة ثاليوم، لتنتهي السنة هذه، سبعة أموات بطرق مختلفة.

***

المشهد الأخير

هنا في هذا القاطع الخاص بسجناء حزبيين، سَجنهم حـــزبهم، وهم في السلم الأعلى لمراتب قيادته، أماتَ منهم أربعة عشر واحداً، أصاب عقول الباقين بمس من هموم النفس لا تشفى، حسبوها هـــم والعارفين بالهموم مكيدة عصر، تشبه مذبحة القلعة الـــتي هندســـها، وكتب مشاهدها محمد علي باشا، لمماليك عصره عام 1811.

هنا في بداية شهر آذار من العام 1983 توقف التعذيب فجـــأة، تغيرت مناهج التطويع الى أخرى خاليـــة مـــن الضـــرب والاهانـــة والتنكيل، وكأن هؤلاء الموتى الأحياء أعطوا فرصة الأنتقال الى حال لا يعرفون مآلها بعد.

هنا في هذا الشهر وفي هذا القاطع، وبالتحديد في اليوم العاشـــر منه حضر لامع، عميداً برتبته الجديدة، طلب حضـــورهم الى غرفـــة الخفر، واحداً بعد الآخر، كان أول الحاضرين صالح الحمداني ومـــن بعده عزام، وكان آخرهم طارق، جميعهم حضروا بالسرعة ذاتها، التي كانوا فيها يلبون أوامر الحضور من قبل، شعر بعضهم بينـــهم عـــزام وسرمد بالخشية من العودة الى أيام التطويع، ومـــع هـــذا حضـــروا مسرعين.

جلس لامع خلف مكتب بسيط، منتشياً بنجاحـــه في إكمـــال مشروع التطويع، الذي اشرف عليه بأمر مباشر من رئيس الجهـــاز،

وبمعرفة الرئيس الأعلى للبلاد، مخاطباً كل من يدخل مرعوباً، ليكتب اعترافاً صريحاً بتورطه في المؤامرة القذرة، ونـــدماً كـــذلك صـــريحاً لمشاركته فيها، ويكتب طلباً أخراً الى السيد الرئيس القائد حفظه الله ورعاه، يرجو فيه العفو والمغفرة.

السيد الرئيس، رحيم، خال من الأحقاد، إنساني يغفر في طبعه، ينظر الى مواطنيه سواسية في الحقوق والواجبات، عبارة كررها مـــع كل سجين.

انهمكوا جميعاً في الكتابة غير مصدقين، حتى إنهم لم يدققوا فيما قاله من كلام بعد اتمام اصدار الأمر.

سأل عزام عن التاريخ، الذي يضعه على طلبه، فأجابه لامع بأن يضع التاريخ الذي يعتقده ماثلاً في عقله، فوضع الأول من آذار عام 1983، وآخر وضع تاريخاً مختلفا، إجابة عمدية أراد منها لا مـــع، أن تبدو الطلبات مختلفة في تواريخها، لتفسر أنهـــا طلبـــات تعـــبر عـــن توسلات أصحابها.

حَسبَ طارق جل الموضوع، لعبة من ألاعيب التطويع. سلمَ ما كتبه على ورقتين.

تعال هنا قال لامع، أعد كتابة العفو، إن ما كتبته عتاب وليس رجاء، والسيد الرئيس لا يعاتب، أنت بالذات أعرف مـــن غـــيرك بعظمة السيد الرئيس.

نعم سيدي، سأعيد كتابته.

هناك في هذا الشهر، في الواحد والعشرين منه، في قاعة المجلس الوطني، احتفال رئاسي آخر، أو جزء متمم للاحتفال الأول، الـــذي أجري في قاعة الخلد قبل ثلاثة سنوات ونصـــف، حضـــرهُ الأهـــل

والأقارب من الدرجة الأولى، وحضره النائب عزة الدوري ممثلا عن الرئيس. معه جوق من الحمايات، تقل أعداده كثيراً، عن أعداد وهيبة الجوق الذي يسير مع الرئيس، هو أكثر من يعرف الرئيس، لا يريد الاقتراب من هيبته.

أعطى الاذن لموظف من الرئاسة بإشارة من يده، أن يقرأ اعترافات المشاركة والندم، وألقى فيهم موعظة عن مآثر الرئيس، وعفوه عن رفاق أرتكبوا حسب اعترافهم، جريمة المشاركة في المؤامرة القذرة، هم كفَروا بحق حزبهم وثورتهم والعراق، وفي المقابل عفى السيد الرئيس، حفظه الله ورعاه عنهم بحكمته الأبوية، إنه حقاً عظيم.

يتعالى التصفيق، والهتاف بحياة الرئيس، العظيم، القادر وحده على العفو عن الخونة المجرمين.

***

هنا في القاطع، يظهر جاسب صباح يوم السادس والعشرين من الشهر الثالث عام 1983، يطلق صافرة التجمع، يعطي أوامر التوجه الى الحمامات، بلهجة مختلفة عن تلك التي كانت سارية فيما قبل. أشار الى أدوات الحلاقة الذاتية، وضرورة المباشرة بحلق الذقون، ومن بعد ألتفت الى السجين فالح، المختص بالحلاقة عند الحاجة، طلب منه الدخول الى غرفة مجاورة، كانت خالية إلا من كرسي، وأخذ ماكنة الحلاقة الكهربائية والمقص، بغية التهيؤ الى حلاقة الرؤوس، بما يليق بليلة عرس، حسبما قال معلقاً على ما يجري، ليضفي على الاجواء قدراً من البهجة، عساها تمسح ولو قليلا من الكدر، الذي تميزت به السنوات التي أنقضت هذا اليوم.

لاحت الى طارق حيرة أصحابه المساجين، وهم يستلمون أدوات الحلاقة، وكيف كانوا يسألون بعضهم بعضاً عن إتمام الحلاقة دون مرآة.

هم جميعاً لم يشاهدوا مرآة منذ دخولهم القاطع الخاص، قبل ثلاث سنوات ونصف، لأنها من بين الممنوعات، ولأنهم معزولون عن عالم ينظر فيه الناس الى نفوسهم بالمرآة. ولاح له كذلك تدخل لامع، عندما طلب من جاسب جلب المرآة الموجودة في غرفة الخفارة، ورميها على الأرض، وبعد أن تشظت قطع صغيرة، أصبحت كافية لأن يرى الواحد نصف ذقن يحلقه على عجل.

آه من تلك اللحظات التي لم يصدق أحد، أنها أصل الخلاص، قالها سرمد مع نفسه، وحملق في ذاك الجزء غير النظامي من المرآة، مسكها بيده اليسرى، ليرى نصف وجهه شاحباً بلحية غزاها الشيب، حتى شك بنفسه، كاد لا يعرفها. ترك موضوع الاستعجال في الحلاقة، والجرح الذي تركته غائراً أسفل الاذن اليسرى، وشكه بنسيان الحلاقة بشفرات الاستخدام للمرة الواحدة، ومصاعب اجتثاث الشعر من مكانه بمثل هكذا شفرات بعد أن بلغت نهاياته مستوى الصدر، وفكر بحقيقة ما يجري، وعلامات فرج لم يطمئن اليها، ولما لم يصل الى قناعة واضحة بهذه العلامات، تحسس بيده اليسرى الجرح الذي ينزف ببطئ، حسب أنه عابراً لا يقارن بألم، الهراوات وأنابيب المياه المطاطية وأقطاب الكهرباء، تركه دون مبالاة بأمره، تماشياً مع سياقات السجن، التي تقتضي آنذاك ترك الجروح تقطب ذاتها، قال لنفسه، أنه جرح لا يحتاج الرتق، فالدم لا ينساب غزيراً من أوردة وشرايين، تعطلت من كثر الضرب القاسي على الوجه.

كل واحد منكم، يأخذ بدلة سفاري على قياسه، لا تشغلوا أنفسكم بالمقاسات فهي متقاربة، وأجسامكم اليوم في أوزانها متقاربة، قال جاسب، واشار الى تناول القهوة العربية قبل التوجه الى سيارتي الكوستر المتوقفة جانباً.

قال حليم، سيذهبون بنا الى الموت، هكذا كتبت نهاية المشهد.

وقال عزام، قد ينقلوننا الى سجن آخر أشد بؤساً من هذا السجن الرهيب، هي هكذا نهاية المشهد.

وقال سرمد، أنا لا أتفق معكم، فما استرقته سمعاً من الخفراء والسجانين، طوال الأيام الخمسة الماضية، أن فرجاً في الطريق، سيكون هو المشهد.

ومن جانبه أيد طارق قول سرمد، وقال نحن أمام الفرج، قريبين منه كما هي السطور التي كتبت أصلا في المشهد.

غادرت السيارة الأولى المخصصة الى جانب الكرخ أسوار السجن المشؤوم، ومن بعدها الثانية صوب الرصافة، ركابهما لم يصدقوا مع أنفسهم وفيما بينهم ما يجري.

جاسب في السيارة الأولى، يضع أغنية وطنية في جهاز التسجيل "هيه يهل العمارة"، ركابها يتلصصون في نظرهم خلسة، على عالم جديد غير ذاك العالم المضغوط، يغمضون العيون مع كل التفاتة الى جاسب ناحيتهم، خشية معاقبتهم على جريمة عدم الاستئذان بمشاهدة العالم الجديد.

نظرات الخلسة الى الشوارع التي مرت منها السيارة، تخيلها طارق مسارب هرب من حال الاكتئاب الذي هم فيه، حتى لم يبهره التغيير الحاصل في البناء خلال فترة سجنه، ولم يثيره اعلان صافرة

الانذار، عن غارة جوية في حرب لم يعرفُ عنها سوى القليل، لأنه منشغل فقط بفكرة المواجهة، مع الزوجة الحبيبة والبنات، التي سيطرت عليه حد التسلط القهري، وبالاعتقاد من أن العراق بات سجناً كبيراً، والعودة الى أبو غريب محتومة، والافراج اذا ما تم فعلاً، فهو فصل من مسرحية كتبها الرئيس، يمكن أن تعيدهُ بعض مشاهدها، في أي وقت الى غياهب الجب ثانية، بتهم أخرى لمؤامرات أخرى، لم تنقطع سبيلاً للتصفية وادارة شؤون البلاد.

***

سرحَ في تفكيره بعيداً والسيارة تقترب من مدينة المنصور، تذكر بدايات اتهامه بالاشتراك في مؤامرة لا يعرف عنها شيئا، شريط مليء بالصور المتحركة، ظهر في مقدمته مشهد الصديق صالح الساعدي، السجين في الزنزانة الرقم (7) جسدٌ جفَ من نقص الماء والطعام، فذوى قريباً من الموت، مثل زهيرات عطشى تحت جحيم الشمس بحرارتها العالية في صحراء العراق، تعطل تماماً الا من التفكير، يحمله رفاقه المسجونين، يقذفونه أعلى بإيعاز من السجان جمال، أبو حديدة، الذي لُقب هكذا من كثر استخدامه قضيب الحديد في التعذيب، يتركونه يهوى على الأرض الصلبة، فتتهشم الفقرات واحدة تلو الأخرى.

ظهرت صورة سرمد في الشريط، وهو يحاول إبقاء يده ماسكةً طرف الثوب "الدشداشة" المتهرئ أو بقاياه، لتخفيف أثر السقطة على الجسد العاطل، فيكشف جمال تمزقها بسبب تلك المحاولة، التي أراد تقديمها وفاءً لأعز صديق، فيناديه طالباً الحضور أمامه على الفور.

سأله عن أسباب مسكه طرف الثوب، لهذا المخلوق المطلـــوب تهشيم ظهره في الحال، وعندما أجاب بعدم مسكه طرف الثوب، وإن الثوب هو الذي علق باصابعه فتمزق لأنه عتيق. قطب جمال جبينه، أخذ جرعة ماء من قدح كان على طاولة قريبة، وأعاد مسك قضيب الحديد بيد قادرة على التحكم، هجم به على بدن سرمد الضـــعيف، مثل وحش خرج عن طوع بنانه، واستمر بتوالي الضرب، لم يتوقف عن مواصلته حتى شاهد اليد اليمنى لضحيته، قد تدلت من كســـر في عظام الرسغ.

نظر طارق الى سرمد الذي يجلس الى جانبه في هذه الســـيارة، والى يده التي تحمل آثار الكسر، لا تفارقه صورة صـــالح بفقـــرات عموده الفقري المهشمة، وطريقة زحفه الى حمامات الصباح للقـــاطع الخاص، على ظهر مكسور، والعودة منها ممرغاً ببقايا غائط، يطوف على مياه غطت أرضيتها القذرة، واستجدائه الموت علناً من جاسب الذي يغرس العصا بفمه المفتوح وجعاً، أثناء العودة زحفاً بعد غمسها في القاذورات، وردهِ على الاستجداء بسيل من الســـباب، واشـــارة موت لم يحن بعد.

لقد أمتنع صالح عن الأكل وشرب الماء لثلاثة أيـــام، بقصـــد التخفيف من ألم قاسٍ، يسببه انتفاخ المعدة والأمعاء وعذاب الزحف، الى الحمامات خوضاً في برك القاذورات، تذكر آخر حـــوار حـــول حالته عن طريق الاشارة، مع سرمد الذي خبره بأنه قد جازف مـــن أجله، وسرق تفاحة من أرزاق الحراس، رجاه تناولها، ألح على تناولها لأنها مفيدة، لتنشيط المعدة والأمعاء. أقترح تقسيمها قطعاً صـــغيرة، ليسهل عليه مضغها، لكنه رفض باشارة من يـــده، وعنـــدما أعـــاد

المحاولة، شارحاً خطورة البقاء دون طعام وشراب لثلاثة أيام، واحتمالات الموت، وهم جميعاً لا يريدونه ميتاً بهذه الطريقة، التي تستهوي الرئيس وشقيقه رئيس المخابرات، أملّهُ بالخروج حتماً في يوم من الأيام، والعودة الى العائلة والأولاد، ذكرَ له حلمٌ حلمه ليلة أمس، تبين فيه أنه جالس في بيته الذي تركه في منطقة الزيونة، قال عن حلمٍ مثل هذا أنه لا يخيب، وإنه فأل حسن أراد، اقناعه بتناول قطعة صغيرة من التفاحة المسروقة، وجرعة ماء، وعدَ بحمله على الظهر الى المرحاض، وأن لا يقلق من الذهاب اليها، وانه سيتوسل الحراس، ليسمحوا له بحمله والبقاء معه حتى قضاء الحاجة، سُيقبّلُ أقدامهم النجسة حتى يقتنعوا. لكنه لم يلين، وبعد أن شعر أنه لم ولن يلين، أقترح عليه التغوط في الزنزانة، سينظفها بنفسه، سوف لن ينزعج. كيف ينزعج وقد وضعوه طباخاً لهم، يهيء طعامهم وينظف مهاجعهم وهم يجلدونه يومياً؟.

رجاه للمرة الثالثة والرابعة أن يتناول ولو القليل من التفاحة، لكنه لم يلين، يبدو أنه قد أخذ قراراً باستقبال الموت وسيلة وحيدة للخلاص، آخر اشارة رفض له كانت هذه المرة عن طريق العين، بعد أن وجد صعوبة في استخدام اليد من شدة الوهن. وأخيراً أستجمع قواه في صحوة موت قبل فقدان الوعي، وتسليم الروح الى خالقها فقال مخاطباً سرمد، أنا أعرف أنك تريد بمحاولتك هذه إطالة أمدي في البقاء، طارق أحق مني بها، وجسمه أحوج من جسمي.

أنا ثمرة نضجت وحان أوان سقوطها.

أدعوا الله كل الوقت من أجل التعجيل في سقوطها، لم أعد أرغب في البقاء.

لقد نجحوا في إماتتنا أحياء.

أبقونا أجساد تشم الهواء.

لا أريد هذا الهواء المشبع بالأحقاد، لم أعد أريده، وسوف لن اشرب الماء.

كان سرمد لحظة تأكده من عدم الفائدة، قد تحول باتجاه آخر، بدأ قراءة سورة "يس" اعتقاداً منه بتسهيل خروج الروح.

كم كان صوته حزيناً وهو يتلو "يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي الى ربك راضية مرضية...".

لقد جازف في القراءة بصوت مسموع، متكئا على وجود كريم في الخفارة، ذلك اليوم... كانت خفارة كريم هذا اليوم هي الأخيرة له في سجل الخفارات، إذ غاب بعدها مباشرة، وتبين من التحقيق مع حسن الفلسطيني، واماتته بالضرب في عمود الحديد منتصف آب 1982، أن كريم قد نقل منه رسالة الى شقيقه مرافق ميشيل عفلق طالباً تدخله لدى الرئيس، من أجل العفو عنه، وعند التكلم مع الرئيس، رد متأسفا لتأخر الوقت، فحسن قد مات بالأمس.

لقد مات حسن، وفي نفس اليوم أعدم كريم.

***

إنهم كانوا أنذال، رفضوا السماح بتغسيل جثمان صالح، وتكفينه مثلما تم فعله مع المرحوم مرتضى، ورفضوا كذلك مع الباقين الذين ماتوا من قبله. كان صالح الرقم عشرة من بين الضحايا، مات معه بنفس اليوم فاضل العبيدي، ومن بعده مات أحمد ابراهيم ومحسن الذهب، وكان آخر من مات ضحيةً، هو كردي الحديثي، شقيق

مرتضى في هذه السلسلة المبرمجة للاماتة القسرية، كان لو تـــأخر في موته ساعات أخرى لما مات، إذ أن أمراً جاء الى السجن بعد موتـــه مباشرة، بإيقاف الإماتة العمدية حسب توجيه من الرئيس. من يدري ربما بموته، أكتفى الرئيس بتقديم الاضاحي، لاستمراره سيداً أبـــدياً لهذه البلاد.

يا لها من مصادفة، تسجل في سجلات قدرها البـــائس، أن أول الميتين مرتضى، وآخرهم شقيقه كردي، الذي اكتمل بموته العـــدد، أربعة عشرة ضحية سلبت أرواحهم بطرق مختلفة، لكل واحد طريقة وقصة موت، كأنها قد خُطت من جهة عليا، والحراس مع الخفـــراء ينفذونها خططاً محكمة بشكل دقيق، هم فيهـــا ضـــحايا تلفيـــق... استنتاج أيده عزام في حوار جرى سريعاً قرب الحمامات أول الشهر، عندما قال، أن جاسب قبل شهرين، كان يقصده بحفلة تعذيب يومي قبل النوم، وفي آخر حفلة، أشتد في ضربه على الرأس، والقول أثناءه، يجب أن تموت، وقبل إنهاء الحفل جاءه جمال، كلمه علـــى انفـــراد، وعاد بعدها قائلاً، كم أنت محظوظ، لقد نجوتَ من المـــوت، كـــان يجب أن تموت اليوم، لتكمل العدد المطلوب، يعتقد هو أن تدخل من صديقه العزاوي، الذي هو صديق الرئيس، حصل بالصدفة، حـــال دون اماتته، لأن الاماتة من عدمها مرهون بـــأوامر الـــرئيس، إنـــه أستنتاج قال في وقته، أنه سيبقيه مفتوحاً حتى يتأكد من صحته ما دام حياً.

أدار وجهه صوب الشوارع التي تلفها كآبة الحرب، وما زالت صورة صالح بانتفاخ بطنه، وعجزه لليوم الثالث عـــن الـــذهاب الى الحمام، وعذاب الاحتفاظ بالفضلات داخل أمعائه، التي تمزقـــت في

اليوم الرابع، وقتلته افرازاتها السامة، قبل أنتصاف ليلة التاسع عشر من آب عام 1982.

* * *

حليم، إنها المنصور، نتجه الآن الى علاوي الحلة، يبدو أن الفرج حقيقي، وليس وهم، أراه قريب جداً، قال سرمد، وسأل، هل حقاً يمكن أن يتحقق هذا اليوم؟. وهل سنعود الى حضيرة البشر؟. لقد أشتقت الى زوجتي وأولادي، أشتقت الى بيتي، كم أتمنى النوم هذه الليلة على سرير، ولو من السعف مثل أهل الريف، لقد آلمني النوم على الأرض، مثل حيوان في زريبة فلاح فقير.

أريد أن أفطر في بيتي فطوراً تعده زوجتي، أريد أن أعود اليها صائما، لأفي بوعدي.

يبدو هكذا، قال حليم، وغاص ثانية في عالم الذكريات، كمن يريد التخلص من وقعها قبل التأكد من حقيقة الفرج، وربما لاقتناعه بحصوله فعلاً، فجاءت في مخيلته صورة الحارس الذي حضر الى قاطعهم، في اليوم الأخير، والساعة الأخيرة من العام الماضي، الذي فيها الناس تحتفل بانتهاء سنة ومقدم أخرى، ماسكاً بيده سلماً معدنياً، وضعه في الباحة، ومن خلفه آخر وضع على كتفه حزمة حطب، وسعف نخيل زهدي كدسه تحت السلم، يسير من بعدهم جاسب، يزعق بصوته المنفر، من أجل اكتمال العدد لابد وأن يموت واحد.

لقد قارب الشهر على الانتهاء و لم يمت إلا واحد.

تجمعوا هنا، أولاد الزنا في هذا المكان، لنختار منكم واحداً.

عندها ترك الباقون على قيد الحياة مهاجعهم هرولة، تعوّدوا التجمع هكذا سريعاً، عند سماع الصافرة الآتية مميزة، من جاسب على وجه الخصوص، تفادياً لعقاب يضاف الى العقاب المقرر في المنهج، كأنهم يقبلون هذا النوع من العقاب، يتحاشون المَ ذاك الآتي من خارجه.

توجه جاسب الى الامعان في التعذيب النفسي، عمل قرعة لمن يختاره القدر، ميتاً لإكمال العدد المطلوب اثنان في الشهر.

أعاد القرعة بعد ابتعادها عن المطلوب اماتته، حسب القصاصة التي وردت من أمن الجهاز مساء أمس، أعادها ثالثة ورابعة، وعندما لم تأت كما هو وارد، أوقَفها سبيلاً للاختيار.

سدد بعصاه الى صدر لؤي عبد العزيز طالباً صعوده، مستهزئاً بالقول، أنا من يقرر وليس القدر... أنا شخصياً لا أثق بالقدر.

يصعد لؤي درجات السلم متباطئاً بشكل واضح، وكأن عضلات ساقيه قد شلت من جذورها. دفعه حارس متخم قوي الى الأعلى، في محاولة التعجيل بصعوده، كان يرافق جاسب في بعض غزواته المثيرة.

لم يكن لؤي لحظتها يفكر بصعودٍ الى هذا الأعلى، طالما تمنى الأعلى، ترقية أعلى ومنصب عسكري أعلى، ابان دراسته في الكلية العسكرية، وعمله آمراً، وتخرجه متفوقاً في دراسة الأركان.

أدرك أن صعوده الآن الى الأعلى، نزول نحو قاع تخيله سحيقاً، ليس صعباً تفسيره، لقد فسره جاسب قبل قليل، لكن الصعب في مجاله تَصورُ الموت صعوداً على سلم، حيث لا مجال الى النزول قبل تسليم الروح، ولا معجزة قد تحصل في هذا العصر البائس، وفي هذا المكان المعزول عن الإحساس بالحياة.

تخيل عزرائيل متربصاً أعلى السلم، ينتظر صعوده، فأبطأ لا إرادياً، فاستعجله الحارس بوخز عصا، في أعلاها مسمار يستخدمه، عند اشتهاء سيل الدم قبل تناول الطعام.

تعجب لؤي وهو في طريق الصعود، من التقاء الرغبات في عقل جاسب، ونوايا عزرائيل في مسألة الاستعجال، تساءل في أجزاء من اللحظة، هل يعقل أن عزرائيل لا يعرف جاسب، واحداً من أوحش أهل الأرض وأكثرهم ظلماً؟.

كيف يلبي رغبته في قبض الروح، بهذه الطريقة البشعة؟.

تعجب من هذا الابطاء المحكوم بغريزة البقاء، وقد تمنى الموت على يد عزرائيل في جميع نوبات التعذيب.

سأل نفسه ثانية كم هي عزيزة هذه الروح؟.

أسفَ لموت جاء بهذه الطريقة الرخيصة، عكس تمنياته موتاً في ساحة قتال، يحسب فيها شهيداً.

تأوه من الموت وهذا الصعود، وعالم يتحكم به الغل المجنون.

تخيل نفسه إذا ما عَدِل عزرائيل عن الأمر، وأجل قبض الروح احتجاجاً على الطريقة، التي أرادها جاسب أو عناداً به، سينزلونه غصباً كما فعلوا في الصعود، جسداً مشوهاً بلا روح، سيدفنوه حياً مع باقي المعذبين في قبورٍ مجهولة، أو يرموه جثة عفنة في مياه دجلة مثل باقي القاذورات.

شعرَ وكأن رأسه في دوامة يدور، يمكن أن يهرب منه بعيداً عن الجسد، وكرد فعل استجابي، حاول تثبيت قدميه على احدى درجات السلم بإرادة العاجز، وبحث بكلتا يديه عن شيء يمسكه لتأكيد التثبيت. لكن عصا الحارس لم تمهله وخزاً باتجاه الصعود.

يربط جاسب اليدين متعامدتين، على خشبة ثبتّها على السلم، فبات الجسد المربوط، وكأنه الصليب الذي ربط عليه السيد المسيح، قبل ما يقارب الألفي عام.

أوقد ناراً في الحطب المكدس، وعاد جالساً على كرسي جلبه الحراس من مكتبه القريب.

يتصاعد الدخان عالياً، وتصاعد معه الهتاف بحياة الرئيس، أمراً أصدره جاسب ومعه الرقص دائرة حول المغدور.

ضغط لؤي على ذاته المشتتة، في محاولة الإبقاء على قدر من التركيز، كأنه يريد التأكد من مشهد الموت، حاول حرف التركيز، ولو بقليل من هواء يدخل رئتيه بعد امتلائهما بالدخان حد الانفجار، أخرج لسانه من بين شفتيه، كمن يحاول ترطيبها بلسان يبس هو أيضاً.

تصاعدت نحوه النار، وأشتد معها اليباس، مثل سنوات جفاف حلت على هذه الأرض التي هم فيها الآن.

صرخ من اعماقه، طالباً الرحمة من الله، ومن عزرائيل الاستعجال في قبض الروح، فأزاد الحارس ناره حطباً، لترتفع الى أعلى.

بقيَّ على حاله يصرخ، وقبل فقدان تحسسه الألم جراء احتراق النهايات الحسية في الجلد، جال في خاطره أنهم في هذه البلاد القاسية على أهلها، ليسوا بشراً مثل غيرهم يختارون حاضرهم، ولا طريقة موتهم.

ولما اشتدت في داخله الحسرة، وأحس قبضة عزرائيل تحيط رقبته التي تضخمت أوردتها من اشتداد تلك الحسرة، بصق بوجه

جاسب، واستمرت عيناه تتحركان من دون ألم، عندها تعالى الهتاف بحياة الرئيس، تفادياً لردة الفعل غير المتوقعة.

انزلوه، قالها جاسب، إنه لا يستحق موتاً بلا ألم، سأميته بطريقة يبقى فيها متألماً، أنا من يقرر نهايته وليس عزرائيل، أتحدى عزرائيل أن يقبض روحه الآن.

رائحة الشواء، تملأ أقبية الزنازين.

لهيب النار طال العظام.

أنتهى حفل الشواء، فأخذه المشاركون الى زنزانته الرقم (8)، رموه على أرضها الباردة، فاقد الإحساس بالمكان، وكذلك بالمحيط اذ لم يعد يعرف أحداً فيه، كذلك لم يكلم أحداً الا كلاماً غريباً، وعندما يتكلم يشتم من يكون منه قريب، لم يخرج الى الحمام، قضى حاجاته في المكان على نفسه، ولما لم يمت في اليوم الثاني، مُنع الزملاء من إطعامه ومن تزويده بالماء، لثلاثة أيام سلم فيها الروح بعد استغاثة إحساس أطلقها بصحوة موت "اعطوني ماء إكراماً لوجه الله".

أكتئب لميتته المؤلمة جميع النزلاء، أحسوا انتظار الدور، اماتة مماثلة وربما أتعس بكثير، قرابين تقدم شهرياً الى الرئيس، واثقين جميعاً من انه يسأل كل مساء، وقبل النوم تحديداً عن أشكال عذابات الرفاق، وما يفعله الرجال التابعين لجهازه المخابراتي بالتحديد... انه يتابع بلهفة شديدة قصصهم، خاصة المثيرة منها لأنها تسره.

***

توقفت السيارة التي أقلتهم في علاوي الحلة، لينزل منها أحد السجانين. ابتسم جاسب، ابتسامة قد تكون الأولى، غير المنقوعة بعجين التشفي والعداء المكبوت. هنأهم بالإفراج مكرمة من السيد الرئيس، وقال، ها قد وصلتم نهاية المشوار، التعليمات التي لديّ، التزامكم الصمت عما جرى خلال سني سجنكم، أنصحكم أن تصمتوا فحيطان بيوتكم لها آذان تُسمع.

أصابهم الذهول، الفرج المشكوك فيه من ساعة مغادرتهم سجن أبو غريب، بات حقيقة ملموسة.

لحظات صمت، قال بعدها شكري، "يعني يمكنني النزول من السيارة والذهاب بسيارة تكسي الى البيت".

يمكنك، والأمر متروك لك، لكن من أين لك النقود، واذا لم تجد أحد في البيت أين ستذهب، لك الخيار، قال جاسب، فنزل شكري، مسرعاً حتى لم يودع من بقيَّ في السيارة، مثل طير الكناري المحبوس وقد فتحت له باب القفص.

اتجهت السيارة، من علاوي الحلة الى حي اليرموك أولاً، كما قال جاسب، فتمثلت المسافة القريبة الى هذا الحي الراقي، بالنسبة الى طارق وكأنها ألف كيلو متر، وكأن الدقائق التي لا تزيد عن العشرة، ألف ساعة مسير، جعلته يهرب من وقعها الثقيل على نفسه المتلهفة لأهل البيت، انشغل بالتفكير، مرت من أمامه خيالات صور مرتضى وحامد وصالح وآخرين، وكذلك محمد صبري الحديثي، مسجى ميتاً على أرض الممر، بضربة جاءت قوية من أبو حديدة، هشمت نصف جمجمته، جالس عند رأسه، شقيقه السفير شكري، ومن فوقه ابو حديدة يصدر الأوامر:

على الجميع الحضور الى هنا.

شكلوا دائرة حول هذا الخائن.

اريد منكم فرقة غناء، سنحتفل بموت الخائن.

قائد الفرقة ومغنيها سيكون "النذل"، هل أنت جاهز؟.

أجاب شكري ونوبة البكاء تخنقه، نعم سيدي.

كان لشكري صوت جميل يدندن به في بعض أوقات الانفراج ترويحاً عن نفسه. حاول التملص من الموقف، فالمغدور شقيقه، فجاءته ضربة من عمود أبو حديدة على كتفه أوقعته جانباً، وبعد أن عدّلَ من وضعه، أحس الحزن في داخله يتورم، وهو يرى عيون الآخرين من حوله تريد أن تقول شيئاً، ومع هذا بدأ الشجو حزيناً لهذه الأبيات كمن يقرأ وأقعة كربلاء:

يا نائمين الليل

كيف المنام يطيب

الموت حق

والفراق صعيب

تمنيت الكفن عند الأهل

وتمنيت الوالدة من تجمع الكافور والطيب

يا نائمين الليل... كيف المنام يطيب

بكى من حوله الجميع، وهم يرددون آخر كلمة من شطر البيت المغنى "يطيب" بكاءً ليس على السيد محمد الذي تخلص من جحيم العذاب، بل على شكري الذي أقحم في موقف يراد فيه انتزاع الروح من جسدها ببطء.

مازالت السيارة في طريقها الى حي اليرموك، ومازال ركابها صامتون، خائفين من أن يكونوا في موقف حلم عابر، ألتفت اليهم

طارق، جال في وجوههم التي لم تستوعب الحدث بعد، وعـــاد الى نفسه، خصها بالقول، ما أكثر لحظات الصمت التي مرت في سنوات السجن الرهيب، لو جاز حساب الصمت فيها لفاق لحظات، كـــان الوعي خلالها صاحٍ يستجيب، لكن لحظة الصمت في هذه الســـيارة مختلفة، عن تلك التي تحصل في السجن، هذه فيها أمل تمتد جذوره في لهفة لمن فارقناهم، واشتقنا اليهم طوال الوقت الذي كان فيه العقـــل واعٍ يفكر.

أطلقَ زفرة كانت تكتمها الأنفاس العطشى، وتمتم خلالها القلب مرتعشاً، كأنه ينبض في كومة أحزان. قائلاً:

هل تشفى الأحزان؟،

وهل ينتهي التيه، وآهات هذا الزمان، وأعود مثلما كنت أقرب للإنسان.

لا، لا أريد العود الى حضائر فيها نفس الانسان.

أريد الهروب من نفسي، من وطني، سأبقى غارقاً في دمـــوعي، الدمع لي وطن، عيون حبيبتي الدامعة هي الوطن، الذي سيطفئ النار التي توقدها دوماً هذه الأحزان.

هل تنتهي الأحزان؟.

كيف تنتهي الأحزان، وصورة جاسب هذا الجالس قريباً مني لا تفارقني.

أفعاله الشائنة لن تغادر مخيلتي، سوف لن تنهيها الأيام.

طارق، هل هذا هو بيتكم؟ سأل جاسب.

نعم ســـ... لم يكمل، تذكر أنه قد يعود الى ســـالف الـــزمن انسان، فتعمد عدم قول كلمة "سيدي"، كان يخنقـــه قولهـــا مـــن

الداخل، يشعره بالخذلان. فأدرك جاسب الموقف، وعندما هم بالنزول معه والتوجه الى باب البيت قال له، اسمعني جيداً، نحن مأمورين، ننفذ ما يطلب منا، يقولون لنا اضربوا فنضرب، مَوُتّوا فنميت، أقبلوا التحية نقبلها، أدوا التحية نؤديها، هكذا نحن وسنبقى هكذا مأمورين.. ثم طرق على الباب، فالكهرباء كانت مقطوعة وجرس الباب لا يعمل، أعاد الطرق، فخرجت الزوجة ومن بعدها أربع بنات، سألها هل تعرفين هذا الرجل؟.

نظرت "أم نداء" ملياً، صرخت من فرط شوقها، رمت نفسها عليه، وكذلك فعلن الأربع بنات.

انتهت

سيرة ذاتية

حياة المؤلف

- ولد في قرية الجمجمة من محافظة بابل عام 1946.
- تخرج من الكلية العسكرية العراقية، الدورة (43) عام 1966. واحيل على التقاعد عام 2014.
- حصل على البكالوريوس آداب من الجامعة المستنصرية كلية الآداب قسم اللغة الانجليزية عام 1976.
- أكمل دراسة الدبلوم العام والخاص في التربية من جامعة عين شمس عام 1979.
- حصل على شهادة الطيران التجاري من مؤسسة الطيران المدني العراقية عام 1987.
- نال شهادة الدكتوراه في علم النفس السريري من جامعة بغداد عام 1991.
- خدم ضابطاً في الجيش العراقي لخمسين عاما، تدرج من آمر فصيل وسرية ومساعد آمر فوج، ثم مدير شعبة الإستخبارات النفسية، ومدير البحوث والخدمات النفسية، ومدير عام التخطيط والمتابعة في وزارة الداخلية، ومستشار وزير الدفاع، وملحق عسكري في باريس.

- عمل مدرسا لمادة علم النفس والصحة النفسية في كلية المأمون الجامعة، والجامعة المستنصرية في بغداد، وجامعة الفاتح في ليبيا منذ العام 1992 حتى 2000، وباحثا في علم النفس والسياسة، وكاتبا لعمود في الصحافة العراقية.
- رئيس مجلس ادارة مركز الشرق للبحوث والاستشارات.
- عضو الاتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق.

اصدارات للمؤلف

1- مقدمة في علم النفس العسكري (مع مؤلفين آخرين) مديرية التدريب العسكري، بغداد 1983.
2- المعنويات بعد الحرب، مديرية التوجيه المعنوي، 1989.
3- المخالفة في الحياة العسكرية، عواملها النفسية وأسس التعامل معها، مديرية التوجيه المعنوي، بغداد 1990.
4- نوايا وحروب. دار العارف، بيروت 2003.
5- أزمة المجتمع العراقي. دار الكنوز، بيروت 2003.
6- دوامات المحنة. الدار العربية للعلوم، بيروت 2007.
7- المعنويات في الميدان، نظرة في التقويم والقياس. مطبعة الرشيد، بغداد 2011.
8- حصاد العاصفة، الجزء الاول، (ثقافة التضاد في عراق بين زمنين) دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 2011..
9- جراح الغابة، "رواية" فضاءات للنشر والتوزيع والطباعة، عمان، 2012.
10- وأد البطل، نهاية جيش وملحمة وطن، تموز للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، 2013.
11- سيكولوجية المخالفة، دار الجواهري، بغداد، 2013.
12- تلك هي "رواية" دار الجواهري، بغداد، 2013.
13- الاجهاد القتالي في ظروف مكافحة الارهاب، وزارة الدفاع، 2013.
14- حصاد العاصفة، الجزء الثاني (التداعيات الادارية والامنية لعاصفة التغيير في العراق)، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 2014.
15- الضغوط النفسية في الحرب، مركز الشرق للبحوث والاستشارات، بغداد 2015.